الإمام

محمد بن عبد الوهاب

أو

انتصار المنهج السلفى

عبد الحليم الجندى

دار المعارف

الإمام
محمد بن عبد الوهاب
أو
انتصار المنهج السلفي

الإمام
محمد بن عبد الوهاب
أو
انتصار المنهج السلفى

عبد الحليم الجندى



دار المعارف

المؤلف : المستشار عبد الحليم الجندى
* الرئيس السابق لإدارة قضايا الحكومة فى جمهورية مصر العربية .
* رئيس لجنة تجلية مبادئ الشريعة الإسلامية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
* عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
* عضو لجنة الشريعة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
* الأستاذ الزائر بجامعة محمد بن سعود الإسلامية فى العام الجامعى :
(١٣٩٥-١٣٩٦هـ=١٩٧٥-١٩٧٦م .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المحتويات

صفحة

الفهارس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لهذا الكتاب إخوة كبار عن أئمة الفقه الأربعة لأهل السنة ، والخامس منها عن الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة ، تأخينا بها وصف الحياة التى حيوها ، وشرح أصول مذاهبهم ، وإظهار الجلال العلمى والهدى الإسلامى فى وقائع تتكلم على ألسنة رجال من لحم ودم ؛ لتتجلى بالطريقتين – الموضوعية والشخصية – عظمة الإسلام ، ودرجات الكمال فى الرجال ، وسماحة الشريعة ، واتساع فقهها واقتداره على أن يصلح العالم كله فى عصرنا الحاضر . فما أحزاه أن يصلح به الله حال المسلمين الآن !

والمجتمع العالمى الآن يعالج حضاراته فى الشرق والغرب وفى العالم الثالث ، ويتنادى بقيم جديدة تعيذه من شرور الانحلال الخلقى والعاطفى ، الفردى والأسرى والاجتماعى ، وحرية الشهوة ، وشيوع المخدرات ، وتفاقم الجرائم ، والفزع الشخصى والجماعى من الدمار النووى المرتقب !

ولم تكف المستشفيات معالجة ضحايا المخدرات ولا التعليم محاربة اللذة المحرمة أو الفقر النفسى الذى ينزف ما تجمعه الحضارة المعاصرة بين أيدى البشر من آثار الإنتاج الكبير وأعراض النعمى والغضارة أو الفزع الذى ينزع الطمأنينة من أنفس الناس ، فيستكثروا من الإنتاج النووى وهم عليمون أن فيه هلاكهم ، فيضيفوا فزعاً إلى فزع . وتبخع الحضارة نفسها وهى فى كمال إدراكها !

ونزلت بعض المجتمعات عن حرياتها لدولها فنزلت ونزلت حتى خسرت خصائص آدميتها !

ولا جرم أن المجتمع الإسلامى المعاصر يعيش فى مستوى أدنى مما يؤهله له الإسلام . والإسلام قانونه الكفاح والمساواة والعدالة .

وإنما يستقعد أهله الانفصال بين العقيدة والسلوك ، والانحراف عن الوسيلة الكفيلة بالتقدم ، وهى جلية لأعينهم قائمة بين أيديهم ، أعلنها مالك بن أنس فى مقولته الجارية على الألسن : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله !

وفى هذا المعترك الفسيح للإصلاح بذل كل إمام جهده ؛ ليعيد المسلمين إلى الجادة .

وفى القرنين السابع والثامن بلغ الفساد كل مبلغ ، فلم يقتصر على الجمود والتقليد أو على الامتناع عن الجهاد ، أو الاستهتار بالقيم الدينية ، بل تجاوزها إلى الانقطاع عن التوحيد واستبدال الطقوس والبدع الذميمة أو المكفرة بالدين الصحيح .

وكان من فضل الله أن أتاح ابن تيمية للإصلاح ، فخاض معركة الدفاع عن الدين ببراعة واقتدار ، وخلف بمؤلفاته وسيرة حياته محجة واضحة سار عليها «ابن عبد الوهاب» ، وأضاف إلى فقهه القيمة العظمى التى تهب الحياة للكلمات ، يوم حمل دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة فى يد ، وسيف القوة فى يد ، فأمكنه الله من تطبيق الشريعة . وصلح أمر الجماعة فى سنوات ، وتتابع على نهجه المصلحون من بعده .

* * *

ومن أجل الاعتبار بما صنعه ابن عبد الوهاب وحاجة العصر الحالى إلى التأسى بكل كلمة قالها وكل صنيع صنعه – وضع هذا الكتاب ؛ ليذكر كل ذى بصر أن صفحات هذا التاريخ العظيم تتكرر. وصدق رسول الله ﷺ : «مثل أمتى كالمطر لا يدرى : أوله خير أم آخره» .

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية تمسكان كرة الأرض من الشرق والغرب من جزيرة العرب ، وتملكان الزاد والعتاد ، يوم أشرقت شمس الإسلام ، فى حين لم يكن المسلمون يملكون إلا عقيدتهم . وانتصر أصحاب العقيدة على العالم فى سنوات معدودات . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله !

وكهيئة ذلك الانتصار تماماً – وفى المكان ذاته – تكررت دروس العقيدة على يد الإمام محمد ابن عبد الوهاب ، لتُظهِر السماء بنى الدنيا مرة إثر أخرى ، على أن عقيدة التوحيد تهب الشجاعة وتحدث الانتصار ؛ إذ يتواعد الرجال الصلُب على الجنة ؛ ليظفروا بالشهادة أو بالنصر ، وهم فى الحالتين منتصرون ؛ ولتظهر على مدار قرنين ونيف بعد موت الإمام – أن الذين لا تسقط أعلام الجهاد من أيديهم لا يخسرون أرواحهم ؛ وإنما يهبون بها الخلود لأمتهم ؛ فتغدق السماء حيث تشح السحب ، وتنجب الأمة حيث تجدُب الأرض !

بهذا أصبحت المملكة العربية السعودية دولة رائدة فى المجتمع العالمى ، معلمة للمجتمع الإسلامى ، بانتصار الشريعة على الجريمة والرذيلة والتواكل والجهل والفشل التى رحضت مواهب غيرها من الأمم ، وبسيادة العدالة والطمأنينة ، وانتشار الجامعات وازدهار الأخلاق الرغيبة والائتمار بالمعروف والتناهى عن المنكر.

وبهذا قامت جماعة إسلامية حقًا هى آدى للأمانة واكد فى التعامل ، وأبعد من التبذل ، وأصون للحرمات ، تتواصل فيها الطبقات وتكدح ، وتجد وتجتهد ، وتثبت لعالم تتخاذل دوله ،

وتت ـلل شعوبه – أن العذاب يحل بالأمم من أنفسها ، ولا يصيب الذين ظلموا خاصة ، وأن الله صادق وعده ناصر جنده ، وإن غبي عن ذلك عبدة القوة أو المادة ، أو عمى الآخرون عن رؤية الواقع !

* * *

والإمام محمد بن عبد الوهاب لا يقدم للعالم ولا للمسلمين نظرية فلسفية ؛ وإنما يقدم أعمالا ومنجزات . والعمل ملاك الفكر الإسلامى ، وهو فكر إيجابى كله ، والإيمان فيه إقرار وعمل .

والتاريخ إذ يسجل لنا منجزاته يعرضها للبشرية على الطريقة الإسلامية المعلّمة : فتبدأ بداية الإسلام فى الصحراء . وتستطرد فى الذيوع والنَماء والتمكين ، مع الالتزام الدقيق بمنهج السلف الصالح ؛ لتنشئ فى جزيرة العرب دولة كبرى تزاحم بمنكب ضخم ، فى موكب التقدم ، وتتبع أحدث أساليب التكنولوجيا ، وتبهت أعداء الشريعة بنجاح مقطوع القرين ، فتنفى اتهام الجاهلين للفقه الإسلامى بالتخلف عن سداد حاجات المسلمين فى القرون الحديثة ، وتُعلم الجميع أن الوسيلة (الوحيدة) للنهوض بالأمة هى تطبيق الشريعة .

وبارك الله فى الأرض التى طهرتها الشريعة ، فدرّت ينابيعها بالعطاء ، إرشادًا من السماء للناس كافة ، إلى حيث يولى المسلمون وجوههم ؛ ليعبدوا الله وحده ، وليعملوا لدنياهم صادقين .

وبارك الله لابن عبد الوهاب . فلم يلق ربه إلا بعد أن شهد توحيد الجانب الشرقى من جزيرة العرب إيذانًا بوحدتها الكاملة بعده ، وإن تراخى الزمان – فما الأعوام أو الحوادث فى تاريخ الديانات إلا منارات ، أو أحرف يكتب بها التاريخ كلماته .

والمسلمون أمة نسجت مقومات وجودها وبقائها من قيم الإسلام .

وكل يوم يمر على الأمة – دون أن تعمل بها – يوم من أيام الضياع ينزل بها الهزائم ، ويزيد الغشاوة على أبصار أبنائها كثافة ، فيتشاحّون على العيش الرغد أو على مجرد البقاء فى الأرض وإن كان فيه الهوان .

وصدق رسول الله ﷺ : « توشك الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » قال قائل : يا رسول الله ما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهة الموت » .

* * *

وبعد فهذا الكتاب أقسام ثلاثة فى أبواب تستقرئ التاريخ ، وتستشهد الوقائع ، وتدل على الداء ، وتقدم الطب الذى طبه له الإمام .

الأول : يعرض – فى صورة عجلى – ألفا ومائة عام من عمر أهل الإسلام ، وكيف أسلمتهم

الفرقة الباكرة والحكومات الجائرة وانطواء العلماء من قرن بئيس إلى قرن أبأس ! وكيف نشأت البدع الصغار لتنتشر كالشرار ، فتسرى من بعدُ كالنار فى هشيم المحتظر ، فتهز أركان الجماعة فلا يبقى لها من التوحيد – وهو أصل الدين – إلا مجرد النطق بالشهادة ومن أمور العبادة إلا أشكالها . ويتعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهو الدواء الفطرى الذى أمرت به السماء ، لتستعمل الفطرة فى علاج الذات ، فتستجيب له بالطبيعة .

والثانى : يعرض ميلاد رجل قدرته السماء ؛ ليصلح ما أفسدته القرون السابقة ولتستفتح به الأمة أسباب الصمود فى عصورها الحديثة مع ظهور الحضارة الغربية وسيطرتها ؛ لتُعدّ المسلمين للاقتدار على التطور ، بالعودة إلى أصل الدين وهو التوحيد ، وإلى خصيصة الجماعة الإسلامية ، وهى الائتمار بالمعروف والتناهى عن المنكر . وكيف نجح الشيخ ، واتخذ المنهج السلفى عمادًا لفكره وقواعد الحرية القانونية التى يمتاز بها فقه أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية سنادًا لفقهه : مع سلوك مسلك الصحابة والتابعين وأئمة الفقه :

١ – بتعليم المسلمين بالمجلس النبيه فى (العيينة) و (الدرعية) ، وبالمؤلفات الواضحة المقنعة لإدحاض البدع التى أركست المسلمين فى الحضيض من قبل عصره وفى إبان عصره ، ومازالت مقاومتها وسيلة لإقالة المسلمين من عثارهم فى العصور التى تلته .

٢ – ويحمل السيف على الذين يلحدون فى الدين ويشركون بالله من عبدة الأصنام من الحجر أو الشجر أو الناس .

والثالث : يظهر الدور الذى قامت به أسلحة محمد بن سعود وبنيه فى خدمة الدعوة ، وبسالة الأبطال فى الاستشهاد من أجل العقيدة ، وانتصار المذهب السلفى والدعوة الوهابية ، وانتقال الدعوة بالحروب المظفرة أو المعارك الخاسرة إلى خارج جزيرة العرب ، وخارج القرن الذى ظهرت فيه ، لنرى فى كل بلدان الإسلام ، وكل داعية للإصلاح فى القرنين اللذين أعقبا موت ابن عبد الوهاب – تلميذًا له فى الفكر ، يدين بتعاليمه جملة وتفصيلا .

الباب الأول

من عالم النور إلى بحر الظلمات

«يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعونى فلا أجيبكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم ، وتسألونى فلا أعطيكم» .
حديث شريف

فى الصفحات التالية جولة عجلى فى فروع من التاريخ ، تعبّر بها وقائع تخيّرناها ، عن أسباب الفساد الذى أصاب المسلمين من سقطات الولاة وفرطات الجماعة وإغضاء أهل العلم ، يتضح منها للناس أن الوسيلة لصلاح بالهم هى العودة إلى الأمر الأول : أمر النبى ﷺ وصحبه ، حيث الشريعة مطبقة يعضون عليها بالنواجذ ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا . ولما نسى المسلمون الله أنساهم أنفسهم ، وعلا شأن الشعوبيين والفرس والأتراك ، وأوشك المجتمع الإسلامى أن يكون غير إسلامى !

وتساءل المسلمون متى نصر الله ؟ وكان الجواب ظهور أحمد بن تيمية فى القرن السابع ومحمد ابن عبد الوهاب فى القرن الثانى عشر للهجرة .

والكلام فى هذا الباب فصول :

الأول : خاص بمسيرة التاريخ كما تتابعت بها القرون حتى كُبكب المسلمون فى أمور يكفرها دينهم أو يبدعها ، تُعطل الدأب وتُطفئ شعلة الفكر وتربطه فى داخل حلقة مفرغة من الوهم الذى يقتل الأمم .

والثانى : خاص بالفلسفات التى ينتسب بها بعضٌ للتصوف . والصوفية الصلحاء منها براء . وكيف أدخلت على الإسلام وأوقفت ازدهار مجتمعات المسلمين .

والثالث : خاص بانتصار ابن تيمية ومدرسته للمنهج السلفى وانتصاره به .

الفصل الأول

من خير القرون إلى ظهور البدع

«خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» .
حديث شريف

كانت السنوات الأولى من عمر الإسلام سنوات تكوين وتمكين بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واجتماع الكلمة ، وانطلاق العرب بالإسلام خارج جزيرتهم كانتشار الضوء بعد انفجار الفجر فى كل الأرجاء .

وخلف الصديق صاحبه ﷺ . ثم استخلف الفاروق . واختار أهل الشورى عثمان بعد عمر فبايعه المسلمون .

ثم بايعوا عليا بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ إلا كبراء بنى أمية وعلى رأسهم معاوية فى الشام وثلة ممن شايعوهم من الصحابة .

ودب دبيب الفرقة ، فدارت رحى الحرب بين على وبين طلحة والزبير فى موقعة (الجمل) وأظفره الله بهما ، فصفح الصفح الجميل ، ثم تلاقى علىٌّ وجندُ الشام فى موقعة (صفين) . وأدرك معاوية وبنو أمية معه أنهم منهزمون . فرفعوا المصاحف على شبا الرماح طالبين (تحكيم كتاب الله) .

ولم يكن لأمير المؤمنين معدًّى عن أن يقبل التحكيم ، فخرج عليه من جيشه (الخوارج) . وهم يسمون كذلك : إما لخروجهم فى سبيل الله كما وهموا ، وإما للخروج على الجماعة كما فهم المسلمون ؛ وهزمهم أمير المؤمنين (بالنهروان) ، واستشهد بطل الإسلام ، فى كبريات حروبه ، بطعنة (خارجى) فى المسجد سنة ٤٠ .

وبايع الناس بعده ابنه الحسن ، فلبث أشهراً ، ثم تصالح هو ومعاوية ، وقامت دولة بنى أمية سنة ٤١ لتبقى تسعين عاماً ونيفا حتى سنة ١٣٢ (٦٦٩ – ٧٤٩ م) .

أنسى معاوية الناسَ بكيسهِ وسخائه خروجَه على أمير المؤمنين وقسوته على شيعته ، فلم يستعمل الحسام كلما أجزأه الكلام ، وقد طالما أجزأه . وكان نضيج الرأى يفطن للمأتى البعيد للخطر ، فشغل جيوش المسلمين بالجهاد ، فكان فيها الحسين بن على والعبادلة [١] وصحابة الرسول ﷺ .

---

(١) جمع عبد الله . العبادلة الأربعة ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير .

وكان المسلمون ينتصرون .

وكانت سنواته العشرون سنوات رخاء وفتوح فى البر والبحر وفى أنفس الناس . وراح يأسو الجراح ، فلم يأكل كبدَه الضغنُ . وأنزل الله فى قلبه السكينة ، وانتقلت من قلبه إلى الجمهور ، وكانت نقلة الأمة من أعاصير الفتن إلى عصر السلام مأثرته .

وربما أجزأ عن الشروح أو فلسفة التاريخ إشهاد الوقائع . وقد يكفى منها واقعة واحدة من حياته اليومية توضح فلسفته وطريقته أو سياسته . والوقائع أشياء وأشخاص تتكلم . والناس لها أسمع وأبصر :

روى جلساؤه فى دمشق ما قالته (الزرقاء بنت عدى) أيام كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة فأمر الوالى أن يسيّرها إليه وأن يكرمها . . حتى إذا جاءته قال : كيف حالك يا خالة وكيف مسيرك إلينا ؟ قالت : خيرمسير . قال : ما حملك على أن تحرضى علينا ؟ قالت يا أمير المؤمنين : قد مات الرأس وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال : هل تحفظين ما قلت ؟ قالت : لا

قال : لله أبوك ! لقد سمعتك تقولين :

(أيها الناس ، إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، وإن الكواكب لا تضىء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . . إنه لا يستوى المحق والمبطل . أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا . لا يستوون . فالنزال النزالَ ، والصبرَ الصَبر ، ألا وإن خضاب النساء الحنّاء وخضاب الرجال الدماء !) .

يا زرقاء ، أليس هذا تحريضك ؟

قالت : لقد كان ذلك .

قال : لقد شاركت عليا فى دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك يبشر بخير ويسر جليسه !

قال : أوقد سرك ذلك ؟

قالت : والله لقد سرنى وأنّى لى بتحقيقه .

قال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلىّ من حبكم له فى حياته . فاذكرى حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليت على نفسى : لا أسأل أحداً بعد علىّ حاجة .

قال : لقد أشاروا علىّ بقتلك .

قالت : لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته .

قال : كلا ، لنعفون عنك .

قالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساء ، وأعطى من غير مسألة !

فأعطاها كسوة ، وأقطعها ضيعة !

وولى بعد معاوية ابنه يزيد (٦١ – ٦٤) . وفعل يزيد الأفاعيل بالمسلمين : من استشهاد الحسين بن على فى كربلاء واستشهاد ستة إخوة معه وخمسة من حَفَدَة فاطمة . واثنين من أبناء عبد الله بن جعفر زوج زينب بنت على ، إلى وقعة الحَرّة بالمدينة سنة ٦٣ حيث استشهد (أهل بدر) فى محاربة يزيد ، فلم يبق على الأرض بدرى واحد ! إلى حرق جيشه للكعبة وهو ينسحب من حصار مكة بعد موته . وهى حوادث ثلاثة وقعت فى سنوات ثلاث هى كل حكمه ، أو لعنات ثلاث تنزلها السماء بدولته . وتنذر بها المسلمين ليبصُروا بآثار الفرقة والصراع على السلطة !

وكانت النذر أقرب إلى قلب معاوية بن يزيد ؛ إذ خَلَفه فنزل عن الخلافة ، وأعلن أن آباءه كانوا جائرين . فكان هذا حكْماً عليهم من أنفسهم .

* * *

وبايع بنو أمية من بينهم مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز بن مروان أميراً على مصر ، وتتابع الملك العضود فى أبناء عبد الملك الأربعة نحو الأربعين عاما وإن توسط عقدَها ثلاثون شهراً أو نحوها من خلافة راشدة لابن عمهم وزوج أختهم عمر بن عبد العزيز . بدأها باستدعاء الجيش الذى يحاصر القسطنطينية إدراكاً منه أن (المسلمين أحب إلىّ من الروم وما حوت) كما قال .

وضرب عمر من نفسه مثلاً للمسلمين بالتقوى والزهد والبدء بنفسه وأهله فى رد المظالم. ولما قدر على نفسه وأهله قدر على الناس : فأقام الحدود وأغنى المحتاجين ، فلم يوجد عند توزيع الصدقات من يستحق الصدقة سواء فى المدينة المنورة أو فى أفريقية ! وأصبح الناس إذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عن عباداتهم وأورادهم فى لياليهم . وسار سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب [1] إذ سئل : كيف تخرب القرى وهى عامرة ؟ فأجاب : (إذا علا فجّارُها أبرارها وساد منافقوها) ، فأدنى الأبرار منه وأقصى عنه أهل النفاق ، وأدق النظر فى اختيار عماله .

ولم يكتف بتطبيق الشريعة ، بل جعل ولاية الحكم للفقهاء : فأبو الزناد صار كاتبا

(١) رد عمر للمسلمين ما أخذه بنو أمية ومروان من أموالهم . فافتقر بنو أمية ومروان ، فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعياً للرزق ، فأذن لهم . وأنفذوا إليه عمته . قالت له : أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً . قال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة لا وقانى الله شره . . فعادت إلى قومها تقول لهم : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم !

لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى خراج العراق ، والحسن البصرى صار قاضيا للبصرة . وميمون بن مهران تولى خراج الجزيرة ، وسليمان بن يسار تولى سوق المدينة ، وأبو بكر بن حزم صار قاضى المدينة وأميرها ، ويحيى بن سعيد هو القائل : (بعثنى عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيراً ! ولم نجد من يأخذها ! قد أغنى عمر الناس فاشتريت رقاباً فأعتقتهم) .

وحدّث رجل من ولد زيد بن الخطاب قال : (إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف السنة . فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ؛ فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يستحقه منهم فما يجده فيرجع بماله . قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس !) . وهو من قبل أن يغنيهم كان يبعث إليهم فى أمصارهم من يعلمونهم .

وأهمه تفرق السنن فى صدور الحفظة . فكلف ابن شهاب الزهرى وأبا بكر بن حزم جمعها .

وذات يوم دخل عليه غلام مع أبيه فسأله : ماذا تعلمه ؟ قال الفقه ؛ قال : علمه الفقه الأكبر ؛ قال : وما الفقه الأكبر؟ قال : القناعة وكف الأذى .

وكان من فقهه الأكبر يذكر الناس بغضبات السماء ، ليعملوا صالحاً ترضاه ، ويتذكروا أسباب نعمة الله . فيكتب إلى عماله : (أما بعد : فهذا الرجف (زلزال) شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا فى يوم كذا وكذا وشهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء فليتصدق به فإن الله تعالى يقول : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) . وقولوا كما قال آدم : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

هذه الشهور الثلاثون من حكم عمر حجة لله على خلقه باقتدار رجل واحد ، فى أقصر زمن ، على إصلاح ما تفسده دول بتمامها ، مهما استحكم الفساد واستغلظ ، إذا صدقت النية ؛ فإنه عندئذ يجد الرجال الصدّق والطرائق القاصدة ، ومن خلصت نيته لله فالله معه .

ويذكر المسعودى فى مروج الذهب أن صاحب القسطنطينية إذ بلغه نعيه نزل عن سريره وبكى ، وقال لوفد من العرب ذهب للفداء بين الروم والمسلمين : لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى ! ولقد كانت تأتينى أخباره باطنا وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته لطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته . ولكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدمه ، فزهد فيها حتى صار مثل الراهب[1] .

* * *

---

(١) قال أسلم : اتكأ عمر بن الخطاب على جدار فى جوف الليل وهو يعس فى المدينة . فسمع امرأة تقول لبنتها : قومى

أما حديث هذه الدولة السياسى من قبل عمر ومن بعده فيمكن إجماله فى أنها رفعت رايات الإسلام فوق جبال القارة الهندية فى قلب آسيا فى الشرق ، وفى جبال الأندلس وأطراف أوربة على شواطئ المحيط الأطلنطى فى الغرب ، على أيدى محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فى آسيا وموسى بن نصير وطارق بن زياد فى أوربة . وفى الأندلس استقر المسلمون قروناً ثمانية انتقلت فيها علوم المسلمين إلى أوربة المسيحية ؛ لتختتم العصور الوسطى وتبدأ العصور الحديثة ، وينتقل المنهج الإسلامى الذى جاء به القرآن إلى عصور النهضة فتبلغ به الحضارة الغربية مبالغها الحالية .

كما يمكن إجمال تاريخ الحكم والظلم والعقاب والعذاب من السماء فى حروب وثورات شغلت تاريخ بنى أمية وبنى مروان حصّلها قول عبد الملك بن عمير الليثى لعبد الملك بن مروان إذ هو خليفة : (رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن على رضى الله عنهما على ترس ، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدى المختار بن عبيد ، ثم رأيت رأس المختار بن عبيد بين يدى مصعب ابن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدى عبد الملك بن مروان ، فتحدثت بذلك إلى عبد الملك فتطير منه) .

أما الرأس الأول فرأس ريحانة النبى ﷺ . وأما الرؤوس الثلاثة الأخرى فرؤوس قواد أضرموا نيران الحروب على بنى أمية وبنى مروان والأخير منهم كان صديقاً لعبد الملك ومع ذلك سيّر إليه من قتله ! .

وكان عبد الملك معدوداً فى الفقهاء حتى ولى السلطة فقَسَّت قلبه . والحجاج واحد من ولاته . وهو الذى ضرب الكعبة فى حرب عبد الملك مع ابن الزبير إذ تنازعا على الخلافة . وكان لزاماً على الخليفة الفقيه أن يتوقع حساب السماء له على بطشه وبطش الحجاج لحسابه ! .

فسيرى الناس عند قيام دولة بنى العباس ، بعد نصف قرن أو يزيد شيئاً ، سبعين ونيفا من بنى أمية يتصدرهم حفيده سليمان بن هشام بن عبد الملك يذبحون فى وليمة أعدت لهم ، ولا يعنى من الذبح إلا حفيد للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز !

ويمكن إجمال الحديث عن ثلث القرن الأخير من عمر الدولة بعد موت عمر بن عبد العزيز بكلمات عن السنوات الأربع التى استخلف فيها يزيد بن عبد الملك (١٠١–١٠٥) فاستفتحها

= إلى اللبن فامزقيه ، قالت الفتاة : أما علمت ماكان من عزمة أمير المؤمنين أنه لا يشاب اللبن بالماء ؟ قالت المرأة : إنك بموضع لا يراك فيه عمر ! قالت : والله ماكنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخفاء ! وعمر يسمع هذا كله .

قال علّم الباب واعرف الموضع – ومضى فى عسه ، فلما أصبح قال يا أسلم : امض إلى الموضع . . فنظرت فإذا الجارية أيم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها لا بعل لها ، فأتيت عمر فأخبرته ، فدعا ولده ، فجمعهم وقال : فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ قال عاصم : لا زوجة لى فزوجنى ، فزوجها عاصماً ، فولدت له بنتاً ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز .

برسالة منه إلى ولاته يقول فيها عن الرجل الصالح وعن أرواح المسلمين وأموالهم : (أما بعد فإن عمر كان مغرورا غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه فى انكسار الخراج . فإذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا كرهوا أم أحبوا ، حيوا أم ماتوا . والسلام) .

وليس بعد قتل الراعى للرعية وسلبها ذنوب !

وتوارى يزيد فى مباذله يلقى إليه السمع كل مشّاء بنميم ، ويُرعى سمعه مغنيتى القصر الشهيرتين سلامة وحبابة ، تثبطان نشاطه وتفسدان حاشيته ، فيصيح من تباريح غرامه : دعونى أطير ! وتطارحه الغانية الصبابة فتهتف : إلى من تدع الأمة ؟

ولما لفظت حبابة أنفاسها تلفت نفسه ، فلفظ أنفاسه بعدها بأيام سبعة !

تلك حال الدولة التى صيرها معاوية (هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل) كما قال له عبد الرحمن بن أبى بكر . والتى حكّمت العرب فى الموالى وهم كثرة الأمصار ، فلم يصلح حال العرب فى جزيرتهم ولا بال الموالى فى سائر الديار ، وأقبلت الجيوش من خراسان تطالب بعودة الحكم إلى أهل بيت النبى ، فليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى .

* * *

قامت دولة بنى العباس (١٣٢–٦٥٦) على شعارين هما :

١ – إعادة الدولة للحكم الإسلامى الحق على أن يتولاها أهل بيت النبى .

٢ – المساواة بين الموالى والعرب .

لكن الدولة لم تكد تبدأ حتى أبعدت من الشعارين كل البعد ! فأصبحت ملكاً عضوداً يسيطر الموالى فيه على العرب ، ويوضع الأساس لحكم (شعوبى) يقتلع كل ما هو عربى ويخلط فى العقائد بقصد وبغير قصد ويفتك بأهل بيت النبى .

ولم يكد أبو جعفر المنصور يبنى بغداد (سنة ١٤٥) حتى غدت كهيئة صندوق الدنيا : عدسة صغيرة يبصر فيها الناظر إليها عجائب العالم ومتناقضاته !

وسيحكم الجاحظ على الدولة بعد انقضاء قرن على قيامها فيقول : (دولتهم أعجمية خراسانية ، ودولة بنى أمية عربية أعرابية !) .

ولم يقتصر التخليط على الأفكار والأفعال ، بل تسرب إلى دماء الخلفاء فكثر منهم الهجناء . المأمون (٢١٨) أمه «مراجل» خراسانية ، والمعتصم أمه (ماردة) تركية ، وأم الواثق (قراطيس) رومية ، والمتوكل أمه (شجاع) خوارزمية ، والمعتز أمه (قبيحة) والمقتدر والمستكفى أماهما روميتان والمطيع أمه صقلبية !

وجَنَّ على البيت الهاشمى ليل بهيم تدلج فيه البدع ، وتناهت إلى المسلمين إسرائيليات كثيرة وخلافات وعقائد من النصارى والفرس والإغريق ، وبدأت آثار الفرقة تظهر فى محيط المذاهب بين أهل السنة ، ومال بيت الخلافة عنهم زماناً ، فأضرم الفتنة ، ثم مال إليهم فلم ينفع أو ينتفع ، فلقد ساءت سيرته واستيْئس العلماء منه ، أنْ صار نادياً للخمر وللهو منذ المائة الثانية من عمر الدولة.

وحياة الأمم فى عصر هى حاصل حياة أفراده وقواده . والناس على دين ملوكهم .

وبعد أن كان فى الدولة جهاز لمقاومة الزندقة أصبح فيها من العلماء من يحرض المأمون والمعتصم على الفتك بعلماء الحديث والسنة ، واقترنت نزعة الاجتهاد ونزعة التقليد ، ثم استبد التقليد بعقول العلماء ، وخبا الضياء ، وران الجهل على القلوب ، ولم يعد بين الخلفاء علماء أو أصحاب ورع ، بل شاعت أحاديث البلهنية والرفاهية عنهم ، وحكمت الحاشية باسمهم أو على الرغم منهم[1].

---

(١) فقدت الدولة العباسية توازنها بعد موت الرشيد ، وكان أول الأسباب فساد الدين وسوء سلوك الخليفة الأمين . إذ أوصى إليه الرشيد بالخلافة تغليباً للعنصر العربى فى بنى العباس فأمه زبيدة بنت عم الرشيد . وأوصى لأخيه الأكبر – المأمون – بخراسان. واستفتح الأمين عصر اللهو والخمر والمجون فى بيت بنى العباس على مدى سنوات خمس تعسة ، وثارت خراسان على الخليفة العربى الأب والأم ، كمثل ما ثارت على دولة بنى أمية العربية الأعرابية كما يصفها الجاحظ ، وانتصرت جيوشها على الأمين وقتلته وأحلت المأمون محله . وسار المأمون سيرة سوء فى المحدِّثين : ففصل بين الأمة وبين الخلافة ، ثم خلفه أخوه المعتصم بعد أن وصاه المأمون أن يسير فى المحدثين سيرته نفسها وأن يمتحنهم بمحنة خلق القرآن ، وهو الخليفة الذى ضرب أحمد بن حنبل ووضعه على العقابين ليعذب حتى الموت أو يقول بخلق القرآن ولو تقيّة .

وكان طبيعياً وقد انحرفت الدولة عن الجادة على مدى ثلث قرن من حكم الإخوة الثلاثة أن تنحرف عن العرب إلى الفرس فى حياة المأمون ؛ فهم أخواله وجنده ، ثم إلى الترك فى حياة المعتصم ، فهم أخواله وجنده !

وكان غير طبيعى أن يسقط المعتصم العرب من ديوان الجيش ، وأن يقصره على الأتراك . فقد لاذ منهم بذئب سيفترس أبناءه وخلفاءه . وأحدث الأتراك الانفصام بين الحكم وبين العقيدة . وأصبحت السلطة غرضهم على حساب الأمة والعقيدة . فتوجه بنو العباس إلى اللهو المزرى يغرقون فيه همومهم . وإلى السرف يعوضون فيه حقائق السلطة التى تفلتت من أيديهم إلى الترك . فأصبحوا أسرى لهم ، بمظاهر الثراء والبحبحة ، ليظهروا فى أعين الناس وفى أعين أنفسهم أنهم ما يزالون محل اعتبار !

فالواثق بن المعتصم – هو الذى توج أشناس التركى ملكاً .

وهو الذى جلس ذات يوم على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب فى قصر مفروش بالوشى والديباج يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ ، ويستمع إلى جاريته (فريدة) وهى تغنى :

أهابك إجلالاً وما بى حاجة إليك ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها قلتك ولكن قل منك نصيبها

وأخذته النشوة فضربها برجله ، فتدهورت تحت السرير فقال : صنعت ذلك لأننى تصورت أنك ستغنين بعدى للمتوكل !

ولما خلفه أخوه المتوكل (جعفر) اختفت فريدة ، وملكت قلبه الجارية (قبيحة) . فآثر ابنها المعتز على ابنه الآخر المنتصر ، فتآمر المنتصر على أبيه مع الأتراك فقتلوه سنة ٢٤٧ ، ثم قتلوا المنتصر بعد ستة أشهر !

ولم يظهر أحد من الإسراف ما أظهره المتوكل : بلغ مجموع ما أنفقه على بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم وهى ثلاثة أرباع دخل الدولة فى عام ، وكانت كل نوبة من نوب الفراشين فى هذه القصور أربعة آلاف من السرارى ، أما فراشه فيخصص له خمسمائة وصيفة أحظاهن عنده (قبيحة) .

=

وكما استعان المأمون بأخواله الفرس استعان المعتصم بأخواله الترك فغلب الواغلون على الدولة ، وقتلوا ابنه المتوكل بمؤامرة مع ابن له ، ثم قتلوا ذلك الابن ، ثم ولوا المستعين ثم قتلوه (٢٥٢) ، وولوا المعتز ثم خلعوه . بعد ثلاث سنوات وحبسوه فى بيت مسدود حتى مات فيه ! وولوا المهتدى ثم قتلوه سنة ٢٥٦ ، وولوا المعتمد ثلاثة وعشرين عاماً طالت قدر ما طال خضوعه لهم ، فلقد طلب ذات يوم ثلثمائة دينار فلم يجدها !

وتناقل التاريخ شعره :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه ؟

ثم ولوا المعتضد فالمكتفى حتى مات سنة ٢٦٥ ، وولوا أخاه المقتدر وهو غلام أخذاً بنصح وزيرهم ابن الفرات حين رشحه للخلافة ، لأنه (صبى لا يدرى أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب) وثارت عليه طائفة منهم ولت ابن المعتز.وله الأرجوزة الذائعة الصيت فى الأدب العربى ، وفى بيت واحد منها قانون السلطة الذى أخذ به الأتراك خلفاء بنى العباس ، وهو فى طليعة المأخوذين ؛ إذ لم يستخلف إلا ليلة ! فكان كما قال فى أرجوزته :

كل يوم خليفة مقتول أو خائف مروع ذليل

ثم أعادوا المقتدر ، فكانت أمه تسوس الدولة وتجلس قهرمانتها (ثمل) للمظالم !

ولما قبضت أم المقتدر يدها عن الجند قتلوا ابنها ، وولوا أخاه من غيرها ولقبوه (القاهر) فعلّقها منكّسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثة آلاف دينار !

وخلع الأتراك القاهر بعد عامين ، وفقئوا عينه ، وأجاعوه ، فكان يتكفف الناس ين الصفوف فى جامع المنصور !

ثم ولوا الراضى سنة ٣٢٢ فبقى حتى سنة ٣٢٩ ، وفى عهده أضيفت فى خزائن الدولة إلى جمجمة وزير سابق « هو الحسن بن القاسم » يد وزير لاحق هو ابن مقلة وهى صاحبة الخط الشهير باسمه . فحفظتا فى سفط واحد كتب عليه : (إن هذه اليد هى التى أمرت بقطع هذا الرأس) !

وفى سنة ٣٢٩ ولوا المتقى ثم خلعوه سنة ٣٣٤ وسملوا عينيه ، وولوا المكتفى ولم يمهلوه إلا أربعين يوما ، ثم دخل عليه اثنان من النقباء الديلم فتناولا يده ، فمدها حسباناً منه أنهما سيقبلان يده ! فجذباه من سريره وجعلا عمامته فى حلقه وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة البويهى وسملوا عينيه !

خرجت إليه يوم عيد النيروز تساقيه الخمر وتغنيه :

فيا من مناها فى السريرة جعفر سقى الله من سُقيا ثناياك جعفرا !

وولوا ابنه المطيع ليبقى فى طاعتهم حتى سنة ٣٦٣ ، وفى عهده قامت هوشة الكرخ من أحياء بغداد فحرقها الوزير معز الدولة (أبو الفضل الشيرازى) ، بل أرسل جنده فطرحوا عليها النار وأحرقوا النساء والصبيان والأموال ، فهلك ١٧ ألف إنسان ، وثلثمائة دكان ، وثلثمائة وعشرون داراً . وثلاثة وثلاثون مسجداً . والبويهيون شيعة ، وسكان الكرخ شيعة ! وسيتابع الخلفاء المطاويع حتى المستعصم وهو الذى يقول ابن الطقطقى فيه وفى ندماه وحاشيته : (كانوا منهمكين معه فى التنعم واللذات لا يرجون له صلاحاً ! ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب ، وفى تلك الحال وصلت رسل السلطان الأكبر (هولاكو) يطلب منه منجنيقات وآلات حصار ، فقال بدر الدين : (انظر إلى المطلوبيْن ، وابكوا على الإسلام وأهله ! » .

* * *

وجرى قضاء الله على المسلمين بما يستحقون ، وبخاصة أولى الأمر منهم . سواء أكانوا الأمراء الذين استسخروا العلماء أو عمل العلماء فى إضلالهم ، أم كانوا العلماء الذين أضاعوا العلم ، ولم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر !

وتخلف عن آثار الانفصام الذى أصاب دولة تظهر النسك وتبطن نقيضه ، ومشيخةً للعلماء يأخذ الأمراء من دينهم أضعاف ما يصيب العلماء من دنيا الأمراء – أن أصبحت الأمة رجراجة ، تنجذب يمنة أو يسرة على حسب ذبذبات السلطة ، وتدفعها بين هؤلاء وهؤلاء شهوات الحكام بالسلاطة والقسوة فى مهاب الرياح الأربعة !

وحسبك أنباء صغيرة من (حوليات) ذلك الزمان تفوق دلالتها أفصح التعبيرات عن فساد كالمائعات يسيل إلى الناس من علٍ . ولقد طالما فاقت همسات الصغائر جلجلة الكبائر فى الأثر ، وبخاصة عندما يقارفها صاحب السلطة أو رجل العلم الذى تطلع إليه العامة والخاصة :

لم يكد القرن الثانى للهجرة يشارف ختامه فى أخريات عصر الرشيد حتى شرع بنيان الدولة العباسية فى التصدع ، فقامت فى أقطارها المتنازحة دويلات صغيرة أولاها دولة الأغالبة (١٩٠ – ٢٢٠) فى أفريقية ، ثم الدولة الطاهرية فى خراسان ، ثم الدولة السامانية فى عهد المعتضد ، ثم الدولة الصفرية فى عهد المعتز ، وقامت بمصر الدولة الطولونية (٢٤٥ – ٢٩٢) ، فالدولة الإخشيدية[١] (٣٣٢ – ٣٥٨) ؛ كما قامت الدولة الحمدانية فى حلب (٣١٧ – ٣٩٤) .

وفى أفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ لتبقى دولة كبرى حتى سنة ٥٦٧ .

---

(١) الإخشيد لقب فارسى كان يطلق على ملوك الفرغانة . ومعناه « ملك الملوك » وسنرى بعد سخط الناس على هذا اللقب عندما ادعاه لنفسه الأمير التركى بلغة عربية .

وغلبت دولة بنى بويه على الخلافة العباسية ابتداء من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ عندما دخل السلاجقة بغداد ، وصار الخلفاء دُمّى فى أصابع البويهيين ، فالسلاجقة ، واستحبّوا الخنوع ، واتخذوا المنصب الدينى وسيلة للمعاش . فأصبحوا عناوين كذب على حكم لا يمت إلى الدين بأوهى سبب .

يقول عنهم المسعودى فى سنة ٣٤٥ : (لم أعرض لوصف أخلاق المتقى والمستكفى والمطيع ومذاهبهم ؛ إذ كان هؤلاء الخلفاء كالمولّى عليهم : لا أمر ينفذ لهم ، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثره المتغلبون الذين استظهروا عليهم بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مخاطبة الخلفاء (بإمرة المؤمنين) والدعاء لهم ، وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم ، وصاروا خائفين ، قد قنعوا باسم الخلافة ، ورضوا بالسلامة) .

وصَغار الخلفاء كهوان العلماء وغلول الأمراء ولصوصية الحرس – نذر دمار لا يتخلف :

يذكر ابن الأثير فى الكامل أن المطيع قال للأمير البويهى إذ طلب منه مالاً للغزو : (إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى الأموال إلىّ ، وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شيء ! وإنما يلزم مَن البلاد فى يده ، وليس لى إلا الخطبة ، فإن شئتم أن أعتزل فعلت) .

فخليفة المسلمين يعتزل الخلافة فيهم ، إذ يختلف هو ورجل ، بل هو لا يملك أن يعتزل إلا أن يأذن له الرجل !

ويقول ابن الجوزى فى كتابه المنتظم عن أحداث سنة ٤٢٦ : إن سخط الخليفة القائم بأمر الله على الدولة بلغ به أن يأمر القضاة بالامتناع عن الحكم ويأمر الخطباء (ألا يحضروا إملاكاً ولا يعقدوا عقداً !) .

فخليفة المسلمين يعطل أحكام الشريعة إذا غضب ويجريها إذا رضى !

ومن قبل هذا الانتقاض على الدولة التى تدار باسمه كان الخطباء ينتقضون على الخليفة ذاته :

روى بن الجوزى فى حوادث سنة ٤٠٢ أنهم كانوا بعد الدعاء للنبى ﷺ يضيفون دعاء شيعة على بن أبى طالب : (وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب مكلم الجمجمة ومحيى الأموات ، البشرى الإلهى ، ومكلم فتية أهل الكهف !)

وإذا كان خليفة المسلمين خشخاشة ، وكان الدعاء لعلى على المنبر يقترن بأراجيف مكفرة ترفعه على رسول الله ﷺ – فلم لا يضيف أمير بنى بويه لنفسه لقبا يشبّه نفسه فيه بالله جل جلاله ؟ ولم لا يمشى إليه الخليفة هرولة ، أو يتبادر العلماء فى ركابه ؟

وصدق رسول الله ﷺ : (من شر ما أوتى العبد شح هالع وجبن خالع) .

يذكر ابن الجوزى عن أحداث سنة ٤٢٩ مايذكره ابن السبكى فى طبقات الفقهاء .

(فى رمضان من تلك السنة استقر أن يزاد فى ألقاب جلال الدولة (البويهى) لقب شاهنشاه الأعظم (أى ملك الملوك) ، فأمر الخليفة القائم أن يخطب له به ، فنفر العامة ورموا الخطباء بالآجر ! فكتب الخليفة إلى العلماء فى ذلك ، وأجاب أبو عبد الله الصيمرى : أن هذه الأسماء يُعتبر فيها القصد والنية . قال الله تعالى : (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) وقال تعالى : (وكان وراءهم ملك) وإذاكان هذا فى الأرض جاز أن يكون بعضهم فوق بعض ، وليس فى هذا ما يوجب التكبر أو المماثلة بين الخالق والمخلوق .

وكتب أبو الطيب الطبرى أن إطلاق « ملك الملوك » جائز ، ويكون معناه ملك ملوك الأرض ؛ وإذا جاز أن يقال : (كافى الكفاة) . و (قاضى القضاة) جاز (ملك الملوك) ؛ وإذاكان فى اللفظ ما يدل على أن المقصود ملك الملوك فى الأرض زالت الشبهة. وكتب التميمى الحنبلى نحو ذلك .

وذكر محمد بن عبد الملك الهمذانى أن الماوردى (وكان شافعيا) منع من جواز ذلك ، وكان يلى وظيفة (قاضى القضاة) لجلال الدولة . فدعاه جلال الدولة فمضى على وجل يتوقع المكروه ، فلما دخل عليه قال له : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتنى لما بينى وبينك مع أنك أكثر الفقهاء إيماناً وأوفاهم جاهاً ومالاً ، وما حملك على مخالفتى إلا الدين . وقد قربك ذلك منى وزاد محلك من قلبى . وقدمتك على نظائرك عندى[1].

وعلق ابن الجوزى – وهو الحنبلى – على الفتوى بأن قاضى القضاة (الماوردى) على حق لأنه قد صح فى الحديث ما يدل على المنع ، ولكن الفقهاء المتأخرين عن النقل بمعزل.

ويشرح ابن السبكى (الفقيه الشافعى) قول ابن الجوزى ، فيذكر النقل المقصود وهو حديث

---

(١) العلم أمانة لا تحتمل إلا الوفاء . وقد يختلف العلماء ولكنهم يؤدون الأمانة ، ولا يتواطئون ، ولا ينتصرون للظلم أو للكفر . ومنهم السياسيون الذين يتيحون للدولة المنادح والفرص . ومنهم من يأخذونها بالشدة حتى لا تميل ، لكن الفريقين لا يبغيان إلا النصيحة للمسلمين . إليك مثلاً من خلاف عالمين يمثلان الفريقين :

بعث عمر بن هبيرة والى العراق لبنى مروان إلى الشعبى (١٠٤) المحدث وقاضى الكوفة لعبد الملك بن مروان وسفيره وصديقه وإلى الحسن البصرى (١١٠) .

قال عمر بن هبيرة : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك طلب إلىّ أموراً أعمل بها ، فما تريان ؟

قال الشعبى : أنت مأمور والتبعة على من أمرك !

وقال الحسن : إن الله تعالى ينجيك من يزيد ، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه وتعالى . لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وخرج الحسن وتبعه الآذن يقول له : أيها الشيخ ما حملك على ما استقبلت به الأمير ؟ .

قال الحسن : قال الله تعالى : «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم»

والحسن أعلم بيزيد فهو يدرك ماذا بعث به إلى عمر .

ولقد مر بنا أمر يزيد .

الرسول : (أخنع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) وحديث (اشتد غضب الله تعالى على رجلٍ تسمى بملك الملوك . لا ملك إلا الله تعالى) . وأضاف أن دولة بنى بويه لم تمكث بعد هذا اللقب إلا قليلاً .

ولم يمض جلال الدولة بعد هذا أشهراً وعاش الماوردى (٤٠٥) سنين ضنيناً بكرامة العلم والعلماء وهو مع عظمته فى القضاء أعظم فى الفقه وفى أدب الدنيا والدين وفى تفسير القرآن .

* * *

فى هذه الواقعة التى تنطق بانحراف الخليفة والسلطان والإمَّعات الطائعة من أهل العلم دلالة على مبلغ ما استشرى الفساد فى كل وجه. وسيرد التنبيه على خطره على العقيدة الإسلامية بعد قرون فى كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب وشراحه [1] .

ولئن كان لنا أن نلاحظ أن السلطان التركى لم يفكر فى تفخيم دولته إلا وهى تهوى نحو الزوال إخفاء منه لواقع الحال – إن المرء ليشهد كذلك سلطاناً قاهراً دينه القوة وديدنه الغلول ! وخلفاء مقهورين لا حول لهم ولا طول! وعلماء معممّين يعيشون عمياناً أو متعامين . فإذا اجتهد واحد منهم لم يجتهد ليظهر حكم الله ؛ وإنما كان همه وكبر مناه أن يبرر للسلطان شهوة تتعارض هى وصريح النص أو جلال الواحد القهار .

والناس دائماً – والمسلمون بوجه خاص – ينتظرون موقف الصدق من الأمراء وكلمة الحق من العلماء ، فما أضيع الأمة إذا فسد هؤلاء كلهم أو جلهم !

ولئن قارب الأتراك الخلفاء ليربطوهم بقطارهم . أو أصهروا إليهم ليضيفوا الدم القرشى النقى إلى دم طولونى أو سلجوقى – إن زواج الدولة هذا كان يدير الحدق فى شتى الاتجاهات ، ويتغيا أغرب الغايات من أغراض الزواج ! ففى القرن الثالث زوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قطر الندى المعتضد ، ليخلع على بنى طولون حلة من البهاء ، فى حين كان المعتضد يقول : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار ابن طولون ؛ لأنه يضطر أن يجهزها بما لم تجهز به عروس من قبل ! وكان ما قاله : جُهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام !

وفى القرن الخامس غلب السلاجقة على البويهيين ، فدخل طغرل بك مؤسس الدولة

---

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابه التوحيد : (باب التسمى بقاضى القضاة أو نحوه) : (فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله).

قال سفيان بن عيينة : مثل شاهنشاه .

والإمام أحمد بن حنبل يروى هذا الحديث عن سفيان ويرويه بطريق أخرى .

ومن قبل ابن عبد الوهاب يقول ابن قيم الجوزية : تحرم التسمية بسيد الناس وسيدة الكل (ست الكل) كما يحرم تسييد ولد آدم ؛ فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ .

السلجوقية بغداد ، فأطلق الخليفة القائم بأمر الله من حبسه ، وأخذ بلجام بغلته وزوجه بنت أخيه داود سنة ٤٤٨. ثم تزوج هو بنت الخليفة . حتى إذا ولى السلطان مسعود السلجوقى أجلس الخليفة المتقى على مسند الخلافة ، وبايع له ، ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغيرها وانصرف !

وتستمر الحال على هذا المنوال حتى يدخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ بخيانة وزير الخلافة ابن العلقمى ، فيقتل الخليفة ويجزى ابن العلقمى غدراً بغدر فيقتله !

وكمثل زواج الدولة وخيانة الوزراء ، ومهانة الذين فسقوا عن أمر ربهم لأجلهم – كان رياء السلاطين وتجارتهم بالدين وهوان الأحياء من بنى العباس !

لقد ولى واحد من بنى العباس فراراً من بطش التتار ، فهبط مصر سنة ٦٦٠ فتلقفه سلطانها الظاهر « بيبرس » ، وعينه خليفة قرشيًّا ، ليتخذه شعاراً لمشروعية حكمه ، ثم تتابع فى مصر تعيين السلاطين لخلفاء رمزيين من بنى العباس ربما عاشوا من النذور التى كانت تقدم فى مسجد يحمل اسم السيدة « نفيسة بنت الحسن » القائم الآن بالقاهرة فى حى يحمل اسم (حى الخليفة) تخليداً لمكان إقامة هؤلاء الخلفاء حتى سنة ٩٢٣ – ١٥١٧م .

ففى ذلك العام غزا الأتراك مصر ، ورجع السلطان سليم العثمانى إلى القسطنطينية حاملاً نفائسها وأعلاقها وعمالها المهرة ومعهم (الخليفة العباسى) ؛ لتنتهى خلافة بنى العباس بمصر ولتبدأ « خلافة » تركية للعثمانيين فى إسطنبول تبقى قروناً أربعة حتى يقضى عليها مصطفى كمال فى النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة والربع الأول من القرن العشرين للميلاد .

* * *

هكذا سخر الأتراك الخلافة فى كل العصور ، فأذلوا بنى العباس فى بغداد ، وشروا بهم متاعاً قليلاً فى القاهرة ، وحملوهم فى رحالهم إلى إسطنبول ؛ ليرثوهم أحياء ، ورفعوا الشعارات الدينية لإيهام الرعية وغيرها بأن الدولة قد تكامل فيها أمر الدين والدنيا بمجرد رفع الشعار دون الالتزام بمضمونه . واستبدلوا الشكل بالموضوع ، والطقوس بالحقائق ، والبدع بالسنن ، وظواهر الأشياء بجواهرها .

وازداد انحدار الجماعة والدولة واستمر ، فلم يكد يبقى فرق بين الحكم الوثنى وبين حكم المجتمع الإسلامى !

ولم يعد الحرص على الإسلام مشغلة الحكام ، ولا العض على الدين بالنواجذ فضيلة المجتمع ، وإنما انشغل الحكام بالتسلط ، وانطوى الصلحاء على أنفسهم ، وأقفل العلماء باب الاجتهاد . وأمعنوا فى تقليد غيرهم وتعطيل فكرهم . وضعفت عزائم الناس عن التصدى للمنكر ، فحق

عليهم قول رسول الله ﷺ .

(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده) .

وما كان تعاقب الدول الغازية لهم – واحدة بعد أخرى – إلا جزاء السماء لهم على أحداث أحدثوها بأنفسهم .

المنهج السلفى مركز الثقل فى الأمة

فى إبان هذا الفساد الذى يتزايد قدر ما تتباعد العصور من فجر الإسلام ويتحكم الشعوبيون فى الأمة ويمكّن الحكام لدولهم على حساب دينهم ، وتسرى القدوة السيئة من الحكام إلى الرعية ، وتشيع البلبلة من البدع الوافدة من الخارج ، نَتَجتْ أمة العرب فحولا ليس لهم نظائر فى تاريخ الشرائع نذروا حياتهم لتعليم المسلمين فقه الشريعة بتخريج معانى النصوص وتطبيقها وتجلية الكنوز الدينية والفكرية التى حيى بها المسلمون . وكانت بدع المتكلمين والمشككين والمشعوذين والمتساهلين محلا للحرب ، فهى – كالسموم التى تتعاطاها الأمة بيدها – أعجل فى التداول والانتشار والدمار !

ففى القرن الثانى علا نجم مالك (١٧٩) فى سماء الحجاز ممثلاً علماء المدينة من محدثين وفقهاء ، وارتفع اسم أبى حنيفة (١٥٠) ، واقترن بإمامة الرأى فى العراق ؛ وفى أواخر القرن انطلق محمد بن إدريس الشافعى (٢٠٤) من مكة والمدينة إلى مراكز العلم فى بغداد بالعراق وجامع عمرو فى مصر ؛ ليزيد فقه الإمامين اللذين سبقاه تسديداً ، وليضع أصول الفقه الإسلامى ، ويرسى قواعد الاجتهاد ، ليجرى على سننها المتفقهة أجمعون ، ويسير على الطريق ذاته سائر علماء المسلمين .

وفى مدرسة المحدثين وحلقة الشافعى نجب أحمد بن حنبل (٢٤١) ، فأصبح إماماً فى الفقه والحديث ، وكان أكثر الأئمة علماً بالنصوص والآثار واستعمالاً لها ولأصلى الإباحة والاستصحاب ، فكان مذهبه أظهر المذاهب يسرا وسعة والتزاماً لمنهج السلف .

وفى فاتحة المائة الثالثة تجمعت التيارات الفكرية ودعاوى اليهود والنصارى بين أيدى العلماء ، يواجههم بها مرجفون ظاهرون ومستترون ، هيأت لهم ساحة الجماعة الإسلامية ظروفاً مواتية ، وفتح لهم الأبواب استهتارُ الخلفاء والحكام بعد إذ ولى الأمين فى خواتيم المائة الثانية ، وألهاه المجون عن الزنادقة ، ثم ولى المأمون وكان شديداً فى التشيع ، عنيداً فى فرض آراء المعتزلة على الأمة ، حريصاً

على ترجمة كتب الإغريق والفرس والهنود ؛ ففتح الأبواب على مصاريعها لكل قول ، وألزم العلماء ، والسيوفُ على أعناقهم ، أن يعتنقوا آراء المعتزلة فى القول بأن القرآن «مخلوق» . وكان أحمد بن حنبل عالم العصر ، فكان رجل الساعة ، فقال كلمة الساعة .

وسما اسم أحمد بما أصابه من العذاب والاسترهاب ووقوفه فى وجه البدع التى أحدثها بعضٌ سواء من المتكلمين[1] الذين أدخلوا فى مجالات العلم والفقه مقولات جدلية قد تحدث البلبلة ، أو من العباد أو الزهاد الذين يخترعون بدعاً لم يصنعها السلف الصالح ولا تحتملها النصوص أو المعانى الكلية المستنبطة من مجموع نصوص .

والشريعة معقولة المعنى ، فلا يمكن أن يتناقض صريح المعقول وصريح المنقول فيها ، ويتعين على المسلم أن يبادر إلى ما تكلم الله به من اللفظ ، فيتدبره ويعمل بفحواه : كما تلقاه المسلمون عن الرسول وصحبه وتابعيهم فهؤلاء خير القرون . وفيهم قوله ﷺ : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران بن حصين : فلا أدرى : أقرنين ذكر بعد قرنه أم ثلاثة ؟ (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون . ويظهر فيهم السمن)[2] .

وعمل هذه الأجيال وبخاصة جيله – عليه الصلاة والسلام – خير عمل . فهو بين أن يكون عن مشاهدة لما صنع الرسول وأن يكون فهماً صحيحاً منهم للشريعة ، وقد كانوا أول من خاطبهم الله تعالى . فعملهم عمل السلف الصالح الذى زاده أحمد بن حنبل تثبيتاً عند جمعه للسنة فى (المسند) ليكون مرجعاً يرجع الناس إليه .

وتتابع على الجمع والتصحيح بعده أصحاب الصحاح والمسانيد فى القرون التالية ، وتناقلت الأجيال السنة الصحيحة ، وفهمت أسماء الله وصفاته وتوحيده على الوجه الذى جاءت به

---

(١) المتكلمون – والمعتزلة منهم – أصحاب علم الكلام . وهو علم يتضمن الحجاج بالأدلة العقلية – عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، فهم يبدءون بالعقل وينتهون إلى إثبات الشرع ، ويردون على أصحاب البدع والمنحرفين فى الاعتقاد .

وكثر جدال المتكلمين فى القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله جل شأنه ونظرية الإمامة – الخلافة – وكثر فيهم المؤولون لألفاظ الكتاب والسنة ، واستطار الخلاف بينهم وبين المحدثين ومع المحدثين جمهور الأمة . يقول الإمام الشافعى : (إياكم والنظر فى الكلام ، فإن الرجل لو سئل عن مسألة فى الفقه أخطأ فيها ، كما لو سئل عن رجل قتل رجلاً فقال : ديتة بيضة – كان أكثر شىء أن يضحك منه ، ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة) .

ويروى عنه الربيع قوله : (لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام فى هذه الوصية) . ولما ناظره حفص الفرد فى دعوى خلق القرآن انصرف حفص كاسف البال يشكو أن الشافعى كفره .

(٢) ويروى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته) . والقرن الجيل ، ثم استعملت الكلمة بعد ذلك بمعنى مائة عام .

النصوص ، وفهمها به الصحابة من النبى ، والتابعون من الصحابة ، دون أن تحيك فى صدورهم الشكوك . والله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) فهو بصير وسميع له الأسماء الحسنى – يسمع ويرى لا كما يسمع الناس ويرون ، ويستوى على عرشه – هو – لا كهيئة الملوك أو عروشهم – والكون كله فى قبضته بسلطانه وجلالة شأنه .

وعمل العلماء العدول بالسنة وعلموها . فلم يوجد فى الأئمة مشبه أو مجسد أو مبتدع . وكثر فيهم الزهد على نحو ما زهد الصحابة والتابعون : لا يصطنعون هيآت للتعبد ولا يسيغون مستحدثات لم يسبق بها الأولون . فإذا أضافوا جديداً فإنما يضيفون فضلَ عملٍ لا ينبو عن الأصل .

* * *

وخلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف لم يكونوا أمثالهم ، لكن الأئمة تركوا آثارهم فيهم . فنشروا العلم ، ولم يستطيعوا أن يمسكوا بالسلوك عن أن ينفعل بما أصاب الأمة من غير الزمان واضمحلال الإقبال على الجهاد . وهو ترياق من طبيعة الجماعة الإسلامية شرعه الله ليصهر معدنها وليطهرها ويصقلها ، فإذا اضمحل غَلبت عليها الدعة وإيثار العاجلة والاستهتار بالقيم الدينية فى الحياة اليومية ، فعجزت عن أن تجاهد الشهوات فى أنفس أفرادها بالقيم الدينية ، أو تنتهى عن المنكر إذا ارتكبه السلطان أو قارفته الجماعة .

ثم أخذ التخليط الوثنى سبيله إلى المجتمع على أيدى غزاة غلاظ القلوب من ديالمة بويهيين، وسامانيين أو خراسانيين وتتار وأتراك يبغون للدين نصرة ، لكنهم إذا أسلموا بقى فى فهمهم للإسلام آثار من دياناتهم أو مجتمعاتهم السابقة ، تدخل فى المجتمع المغلوب على أمره بدعاً يقبل عليها المقهورون.

والمسلمون أمة صنعتها شريعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله . ويوم يخرجون على قانونهم جهرة أو خفية يفقدون التمكن والتوازن ، ويذلون للحكام أو الأغنياء أو الأقوياء ، وينساقون لتقليد المزخرفين والمزوقين فلا يتناهون عن منكر فعلوه ، وتتسع الهوة بين حياة المسلم وعقيدته ، وتنحدر الجماعة إلى مستوى أدنى من الإسلام ، فذلك يوم لا يصدق عليهم فيه أنهم مسلمون . وتكتب عليهم الهزائم من أنفسهم ثم من الخارج .

والهزائم من أنفسهم معروفة : فَهْمٌ غيرُ صحيح للدين أو تراخ فى التمسك بتعاليمه من أمره ونهيه وأدبه وإرشاده ، وانقطاعٌ عن الجهاد وامتناع عن الاجتهاد وتقليد لغيرهم فى الدين ، وتحويل للعبادة الصادقة إلى طقوس أو شكليات ! . وأنواع عيش من يوم ليوم بين الرجاء الذى لا يعملون له واليأس الذى يرين على قلوبهم ، ورضاهم بأن يكونوا مع الخوالف . . !

ويسلم جيل مستيئس مستسلم نقائصه إلى جيل أشد ابتعادا من الأصل وافتقادا للأمل . وكلما استحكم اليأس انقطع العمل الجاد الذى تحيا به الأمم ، ونما التواكل الذى يقتل العزائم ، وركن

الناس إلى خرافات تبيض وتفرخ فى أفهام الخاصة وأوهام العامة، وتمتد جذورها فى ثرى المجتمع وترتفع فروعها، فيستظل بها العلماء والأمراء. ويسيطر الخوف على الناس كافة من غير سبب سواء من الأشخاص أو الأشياء أو الأفكار– فترى الرجال أشباه رجال والعلماء صور علماء!

وفى هذا الخليط من الوساوس والرذائل يضمحل شأن العلم، ويلتحق العلماء بمواكب السلطة، ويوشك العقاب أن يعم الأمة، فلا يصيب الذين ظلموا خاصة.

والهزائم من الخارج وليدة هزائم الداخل: فهذه الأمة لا تدمرها العوامل السياسية أو الحربية أو الجغرافية أو تكاثر العدو أو ظهور غيرها من الأمم على وجه كرة الأرض، أو ظهورها على المسلمين أنفسهم، فقد طالما أسلم المنتصرون، واهتدوا بهدى المسلمين. وإنما تقهرها الآفات التى تصيب نسيجها الذى نسجت منه، وهو فضائل دينها، فتعجز عن المقاومة وربما عن مجرد البقاء!

* * *

رفع الإمام أحمد فى حياته (١٦٠ – ٢٤١) راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقاوم «بدعة» خلق القرآن وتناقلت الأجيال قوله (هذا زمان مبادرة، هذا زمان من عمل)، ليعلم المسلمين أن كل زمان إنما هو زمان مبادرة وزمان عمل. وليس العلم فيه إلا طريقا أو قرينا للعمل [١] وقدّم فى سبيل ذلك عنقه لسيف المأمون وهو ينتظره شاهرا سيفه ليقتله بيده فحملوه إلى القتل آلاف الأميال، مقيداً فى الحديد، فقتل الله المأمون وأحيا الإمام!

ودخلت عليه سنة بعد سنة وهو سجين ينتظر القتل بيد المعتصم، فأنزل به من العذاب على العقابين ما يتناقله التاريخ، ومزقت السياط جسده، فلم يطلقوه إلا بعد أن فقد وعيه!

ولما خرج من السجن لم يتهاون مع الذين تهاونوا، لكيلا يعرف عنه تساهل مع من تساهل فى «البدعة» وإن كان أقرب المسلمين إلى قلبه.

دخل عليه يحيى بن معين[٢] يعوده إذ مرض، وكان قد قال بخلق القرآن تقيةً – فازورّ المريض

(١) ولد أحمد فى عهد خلافة المهدى الذى كتب إليه سفيان الثورى يقول: (ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك. يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ولا يحدون الشارب، ويزنون ولا يجلدون الزانى، ويسرقون ولا يقطعون يد السارق!).

وكان حكم المهدى مع هذا – من أصلح الحكم فى الدولة العباسية – نسبياً – ديناً ودنيا، ومن بعده تتابع الانحدار فى الدفاع عن الدين والاتساع فى طلب الدنيا، وانقطع حساب الزنادقة وألغى الديوان الذى أنشأه لمعاقبتهم.

(٢) صحب يحيى أحمد عُظْم حياته ورحل معه فى عهد الطلب حتى صار علماً فى علوم الحديث وكتبه مراجع أصلية فيها، وكان أبوه من كبار عمال الدولة. خلف له خمسين ألف درهم أنفقها فى سبيل العلم، وتزهد. وهو يقول:

(أراد الله منا أن نكون مثل أحمد، والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد). ويقول: (إن الثناء على أبى عبد الله من أطيب مجالس الذكر) وأحمد يقول فى علمه: (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث) ولا يناديه باسمه بل يقول له: (يا أبا زكريا) فلقد كان يكبر أحمد بسبع سنين.

عن زائره وأدار وجهه كى لا يراه أو يحدثه . فتكلم يحيى عن الإكراه الذى يأذن للمكره أن يتقى الأذى بقول لا يعتقد صحته ، وأشار إلى حديث عمار (بإباحة القول تقية) ، فتابع الإمام ازوراره ، وخرج يحيى ، فقعد بالباب منكسر النفس ، ويحيى من أكابر المحدثين فى التاريخ الإسلامى — حتى إذا خرج إليه أبو بكر المروزى تلميذ أحمد وخادمه سأله : ماذا قال أحمد بعدى ؟ فأجاب أبوبكر : قال (يحتج بحديث عمار — مررت وهم يسبونك فنهيتهم فضربونى) وأنتم قيل لكم : (نريد أن نضربكم) .

يقصد أن الأذى لم يقع فى حين أنه وقع بالفعل فى حديث عمار ، فالاحتجاج بالحديث حجة داحضة .

قال يحيى : مر يا أحمد غفر الله لك ، فما رأيت تحت أديم السماء أفقه فى دين الله منك [١].

وعلَّم أحمدُ المسلمين درساً خالداً فى الأمر بالمعروف والتصدى « للبدع » علا به اسم الحنابلة بعده ، وارتفعت أصواتهم متشددة فى كل بدعة ، فنسب التشدد فى الدين إلى الحنبلية . وما هى إلا الحنيفية السمحة كلما انتهكت حرمة لله كانت لها غضبتها .

والحنيفية يسر كلها ، ما خير صاحبها عليه الصلاة والسلام بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر ، لكنها تجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض عين على الجماعة ، إذا لم تقم به أثمت كلها ، لتتضامن فى الفضيلة . فيتعدد المكلفون ويتيقظ المنقذون وتتنوع الوسائل ويتضافر الآمرون بالمعروف وييسر الإصلاح .

وحق إبداء الرأى أو حرية الرأى منصوص عليه فى القرآن والسنة فى صورة « واجب » على الحكام والمحكومين فى غير موضع ، ومن أظهرها إيجابه تعالى على رسوله أن يستشير وإن أخطأ المستشارون حيث يقول : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

والله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . فالطاعة لله والرسول فريضة محكمة . ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وليس للفرد أن يسكت عن إبداء رأيه ، فهو بعض الأمر بالمعروف المفروض عليه . وهذا « الحق » أو « الواجب » أحد المسلمات فى الإسلام قبل أن يعرفه الفرنجة بألف وثلثمائة عام فى نظمهم البرلمانية [٢]. يقول عمر : (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها) .

---

(١) فصلنا الكلام فى محنة خلق القرآن فى كتابنا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف فى الباب الخامس ص ٣٣٣ إلى ٤١٤ .

(٢) لم يصل الأوربيون إلى هذا الحق إلا بعد إقامة النظام النيابى ، فى القرن الثامن عشر للميلاد والثالث عشر للهجرة وفى =

والحكم للدين . فإذا أساغت الجماعة المنكرأوسكتت عن إنكاره أو تقاعست عن إبداء رأيها لم تعد هى « الجماعة » ولم تكن لها الطاعة .

يقول ابن مسعود : (الحق ما وافق الجماعة وإن كنت وحدك) ويجليه قول نعيم بن حماد (إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة وإنْ كنت وحدك) ولما وقف أحمد بن حنبل موقفه الخالد فى وجه المأمون كان أحمد – لا خليفة المسلمين ولا الكثرة التى تبادرت إلى مرضاته – ممثلا لجماعة المسلمين لأن الحق كان معه .

وفى موقف أحمد يقول ابن قيم الجوزية بعد قرون خمسة : (لقد شذ الناس «كلهم » إلا نفرا يسيرا زمن أحمد كانوا هم الجماعة) .

ومن نقائص الجماعة فى عهد أحمد بن حنبل ومواقفه منها تتشكل صورة مصغرة لما سوف ينجم فى المجتمع من بدع تزداد تفاقما قدر ما يزداد التخلف .

وأحمد يروى عن رسول الله ﷺ : (كل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة) ، ويروى عنه : (من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد) .

ولم يرو أحمد حديثا إلا عمل به ، فحياته درس فى دفع البدع وسد الذرائع .

البدع

البدعة شىء يشبه أن يكون من الدين وهو ليس منه ، سواء أكان بالصورة أم بالحقيقة فى الشكل أم فى الموضوع . وهى محرمة أو مكروهة وفق ما تحدثه من بلبلة ،وقدر قوة شبهها بالأصول وضعفها ، والمكروه منها يجب العدول عنه سداً للذريعة .

وكثيراً ما توجد البدعة فى كيفيات بعض المندوبات وما تميل إليه الأنفس كالذكر والتلاوة بما يدخل عليها البعضُ من كيفيات سلوكية على نحو ما يصنع بعض المنتسبين للطرق ليروجوا طرائقهم .

ولا مراء فى أن الفيصل بين الأصل والبدعة هو عمل السلف بالأصل ومتابعة الخلف له ، ففى عملهم عصمة للأمة بتتابع السلاّف عليه.وشهادة الأصل له واستمرار العمل به ، والسلف هم علماء أصول السنة والعاملون بها أعظم العمل ، والقرون – الأجيال – الثلاثة الأولى خير القرون ، أولها قرن الرسول . و(رسول الله ﷺ –كما يقول الإمام أحمد – هو المعبر عن كتاب الله الدال على

= ذلك الكلمة التى يرددها الأحرار عن جون ستيوارت مل : (لو كان للناس جميعاً – إلا واحداً منهم – رأى . وكان لهذا الواحد رأى مخالف – لم يكن للناس جميعا حق فى إسكاتِ صوت ذلك الواحد ، كمثل ما إنه ليس لهذا الواحد – إذا كانت السلطة فى يده – أن يسكت أصوات الناس جميعاً) .

معانيه . شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم لنبيه واصطفاهم له ، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم) وشاهدهم وتعلم عليهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم .

ومن المذاهب ما يعتبر عمل أهل المدينة وعلمهم أصلا فى أصوله أو يعتبر لإجماعهم القوة لمكانة « السابقة » فى الإثبات . والأمر آكد فى الإثبات إذا تواتر وعم واستمر عليه العمل .

أما ما لم يفعله السلف – مع ثبوت أصله – فالرأى من قول مالك وقول مدرسة أبى حنيفة أنهم لم يفعلوه لأمر ثبت عندهم ، وهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالسنة .

رأى ابن مسعود – معلم الكوفة – قوما يجتمعون بعد العشاء ويذكرون الله جماعة رافعين بالذكر أصواتهم فقال لهم : (يا لله ! لقد جئتم « ببدعة » ظلماء، أو لقد فقتم أصحاب محمد علما) .

والشافعية يرون أن كل ماله مستند من الشرع فليس ببدعة وإن لم يعمل به السلف ، فقد يرجع تركهم له إلى أسباب محلية أو وقتية أو لإيثار ما هو خير منه ، أو لعله لم يبلغهم جميعاً .

ومن ذلك يختلفون فى الذكر جهراً أو جماعة ، وفى الدعاء كذلك . وحجة الشافعى أنه قد ورد الترغيب فى أصله ، وإن لم يرد عن السلف فعله ، فالحجة عنده أن الشرع يدعو إلى القيام بالأمر وإن لم يبين طريق القيام به ، فهو مباح .

ومن البدع ما يكفر صاحبه ومنها ما يكتفى بتبديعه ، ومنها ما هو صريح ، وهو ما ليس له أصل شرعى فى مقابلة أمر ثابت شرعا واجب أو مندوب ، فالبدعة عندئذ تميت سنة ثبتت ، أى تحارب حقيقة إسلامية ، مثل ادعاء قوم أن بعضاً يعرف الغيب استناداً إلى الفراسة .

ومن البدع ما هو محل خلاف ، فالانتهاء عنه أنجح للمرء وأنفع للجماعة .

وخطر البدع كبير لتسربها فى المجتمع الرخو الهشيش ، وكثيرا ما انتهت بأفراده أو جماعته إلى قبول ممارسات تناقض الدين ، أو معتقدات زيوف يصطنعها بعض للتظاهر أو السيطرة . !

والصغير من البدع يؤدى إلى الكبير . وكثيراً ما تعاظمت الصغائر وتعددت وتنوعت ، فصار لها خطر الكبائر ، وقل أن يُقدم الفرد أو المجتمع على الكبيرة بغتة دون أن تمهد السوابق الصغيرة أو الشائعة لذلك الهجوم ، فما بالك بالبدع التى تعم بها البلوى وتشوه وجه المجتمع ، ويتعين العدول عنها إبقاء على سلامة العقيدة وسلوك الأفراد .

وكثيراً ما يكون المنكر الصغير خروجا على واجب واحد ، لكن فيه تهوينا أو تحريضا للخروج على واجبات كثيرة .

والإبعاد من الجادة إذ يبدأ بخطوة واحدة يزداد قدر ما يزداد الانحراف . ومن القطرات بدايات السيل العرم .

ومن ذلك تشدد الأئمة لاتباع الأصل ، لأنه الدليل الشرعى .

* * *

أحمد رضى الله عنه لا تعجبه الصلاة فى جلود الثعالب .

ولا يتزيا بزى النساك ، فلم يلبس الخرق ، بل كان يأتزر ويعتم فوق القلنسوة . وليس ثوبه غليظا ولا رقيقا ينكر ، وكان فى غاية النظافة .

ولا يرى أحمد شد الرحال لزيارة القبور .

ولا يرى بناء القبور مرتفعة بل يقول (مثل قبور أحد) .

وسئل عن القراءة على القبور : هل يَحفظ فيها شيئاً ؟ قال لا . وإن كان الشافعى لا يرى بها بأساً ، وكذلك إبراهيم النخعى .

ولا يرضى أحمد عن سياحة الطوافين بالبلاد يظهرون النسك بأسمالهم البالية .

فإذا نسبت إليه كرامة (بالمعنى الغيبى) هاج وماج :

فنى ذات يوم مسح تلميذه على يده ثم مسح على بدنه (بدن التلميذ) ، فنظر إليه مغضبا غضبا شديدا ، وجعل ينفض نفسه ويقول : عمن أخذتم هذا ؟

ولما طلب إليه رجل أن يدعو لأمه — وهى زمنة — أجاب مغضباً : نحن أحوج إلى أن تدعو لنا .

وهجر الحارث بن أسد المحاسبى (٢٤٣) وهو شيخ كثير من المتصوفة . كان يعقد مجالس للذكر فى داره ودور أصحابه ، فسمع أحمد بها ، فطلب أن يراهم من حيث لا يرونه ، فلما رآهم كأن على رءوسهم الطير ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يزعق — بكى أحمد فى مخبئه وغشى عليه من البكاء . فلما انفض المجلس قال لصاحبه : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل .

وأضاف إمام المسلمين : ولا أرى لك صحبتهم .

وأحمد ينهى عن التهليل ورفع الصوت بالقراءة ، ويعتبر ذلك بدعة محدثة. وكان الشافعى من قبل يقول : (تركت شيئا بالعراق يقال له التغبير أحدثه الزنادقة يصدون به عن القرآن)

وصلى أحمد خلف إمام يجمع ثوبه إذا سجد بيده اليسرى ، فلم يقل له شيئا ، ولكن قال لصاحب بجواره : (قال النبى ﷺ : إذا قام أحدكم فى الصلاة فلا يكف شعرا ولا ثوبا) . ومضى .

وسأل الرجل صاحب أحمد عما قال له ، فأخبره وأردف قائلا : ما أحسب المعنى إلا لك !

وأحمد فى هذا كالحسن البصرى دُعِىَ إلى عرس فجيىء بجام من فضة فيه طعام ، فتناول الطعام فقلبه على رغيف فأصاب منه . فهذا نهى فى سكون عن استعمال آنية الفضة .

وما هو إلا منهج النبى عليه الصلاة والسلام ، إذ كثيرا ما أصدر أمره بطريقة غير مباشرة ، كما كان يقول للناس : (أقيلوا ذوى الهيئة عثراتهم) .

وأم الدرداء تقول – وكانت من العلماء – من وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

وآفة النصح أن يكون جهاراً .

ويقول أحمد : النياحة من فعل الجاهلية .

ولما سئل عن الرجل يدخل ليغسل الميت ، فيسمع صوت النوح : أيدخل ليغسله وهم ينوحون ؟ فأجاب : نعم ، ولكن ينهاهم .

وسأله تلميذه حرب بن إسماعيل : الرجل يسمع النوح فيترقق . قال : « ما أدرى » وروى حديث سعيد بن صالح : رأيت أبا وائل[1] يستمع النوح ويبكى .

* * *

وإذا جاز للمسلم أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز له ذلك أيضا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن ذلك قول الغزالى : إنه يستحب له أن يعرض نفسه للضرب بل القتل إذا كان لفعله تأثير فى رفع المنكر أوكسر لجاه الفاسق أوتقوية لقلوب أهل الدين .

روى أبو بكر المروزى – تلميذ أحمد وخادمه – أنه ذكر ابن مروان الذى صلب فى الأمر بالمعروف ، فترحم عليه وقال : قد قضى ما عليه .

لكن الموعظة الحسنة للسلطان تقتضى اختيار الزمان والمكان والأسلوب والرجل . كان المهدى أكثر بنى العباس يسرا وورعا وأشدهم على أعداء الدين بأسا ، وفى إحدى حجاته طلب أن يخلى له المطاف حين طوافه بالكعبة ، فمنعه من ذلك المحتسب ، فخضع له ، فى جوار الكعبة ، ثم حبسه وحبس معه فرسا شموسا حتى قتله الفرس !

ولقد وعظ سفيان الثورى أبا جعفر المنصور فى مواجهته حتى أوصاه حاجبه بقتله ، وكان مع ذلك يوصى الآمرين بالحكمة ويخشى أن يسدر السلطان فى غيه . ولقد يكون السلطان ميئوساً منه .

سأله سائل : ألا تأتى السلطان فتأمره ؟ فأجاب إذا انبثق البحر فمن يسكره[2] !

والمؤمن ينتصر لله لا لنفسه إذ يعظ غيره ، فالانتصار لله تعبّد ، والانتصار للنفس حب للمحمدة أو خوف للمذمة أو عجب بالذات أو شهوة للشهرة ، وهكذا كله غير محمود ؛ لأن

---

(١) جد سفيان الثورى وكان من خيار زمانه زهادة وعبادة .

(٢) يسده .

الإرادة فيه لم تتمحّض لله وحده . وإذا وجد شرك خفى فى العمل بطل[١].

وأحمد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل مسئولية الأمر ، ويخاف على الناس ويوجب الستر عليهم ، ولا يشرك السلطان إلا فى الشدائد ، ويؤثر الاستعانة بالجماعة : كل أولئك فى مزاج موفق بين سياسة الناس فى دنياهم وجمع كلمتهم على استنكار المنكر.

واستخدام السلطان مخطرة لابتداره بالبطش فى مواقع كثيرة قد يكون للمنطق فيها موضع .

والسلطان مُسلط عليه الكثير من فوقه ، ومغلوب على أمره بكثيرين تحته ، وبعوامل شتى منها الشهوة والصولة والاستعلاء ، فالاستعانة به لا تؤمن مغبتها ، وقد يكون سكوته إذ يُستعدّى سببا ، فى سوء فهم العامة أو تمكينا للضلال بالسلطة ، وفى الاستعانة بالسلطان تبليغ عن المنكر تمتنع بعده الشفاعة وتعلن الفضيحة . وكثيرا ما كانت دِرَّة السلطان قاتلة ، وكانت فضيحة الآثم مدعاة ليتولى كبره فيتردى فى وزره ، وكان أخذه باليسر أنجح للنصحاء وأفلح للمنتصح .

سئل أحمد عن جار يرى منه الفسق والدعارة : أيرفعه إلى السلطان ؟ قال : إن علمت أنه يقيم الحد فارفعه . ونبه على أن الأمر جد فأضاف : «كان لنا جار فرفع إلى السلطان . كان قد تأذى منه جيرانه ، فرفعوه فضربوه ثلاثين دره فمات » .

ووضع السيف فى موضع الندى مضر كوضع الندى موضعه : سأله تلميذه يعقوب بن بختان عن القوم يؤذونه بالغناء فأجاب : تقدم إليهم وانههم واجمع عليهم قال يعقوب : أأستعين بالسلطان ؟ فأجاب الإمام : لا . قال يعقوب : فأدع الصلاة ؟ قال الإمام « لا تضيع المسجد » فهو ينتهى بالمسجد ويبدأ الفتيا بعدم الالتجاء إلى السلطان أخذاً لكل شىء بقدره.ويرى أن

---

(١) روى أحمد أن رجلا جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال له : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا شىء له ! فأعادها ثلاث مرات يقول له الرسول لا شىء له ، ثم قال : (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له) .

وسئل عن الرجل يقاتل من أجل أخيه حمية وعن رجل يقاتل لا يدفعه للقتال إلا الشجاعة والمروءة ، وعن رجل يقاتل للرياء والتظاهر ! فقال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) .

ويروى عنه ﷺ : (أن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : قتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء. فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار) .

وروى مالك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه ، فصاح به فلم يجبه ، فاسترجع رسول الله ﷺ وقال : (غلبنا عليك يا أبا الربيع) فقالت ابنته : والله إنى كنت أرجو أن تكون شهيداً فإنك قد قضيت جهازك ، فقال رسول الله ﷺ :(إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته) .

يجمع الناس ليروا المنكر ويشتركوا فى إنكاره ويصلحوا الفساد وهم أجمعون ، فيصلحون ويُصلحون(١).

وإذا أعلن الفاسق فسقه أو أخطأ خاطئ فى العبادة ، فلا وجه للصبر عليه . كانت لأحمد مساكن يؤجرها فبلغه بين المغرب والعشاء عن ساكن له أنه طلق امرأته ، وأنها تقيم معه ، فخرج إليه وصاح به : تطلق وتقيم ؟ وأمره أن يتحول عنه وقال : انتقل .

وصلى أحمد إلى جنب رجل لا يتم الركوع ولا السجود فقال : يا هذا ، أقم صلبك فى الركوع

---

(١) وسأله سائل . إذا أمرت بالمعروف فلم ينته فماذا أصنع ؟ قال : فدعه . قد أمرته . وقد أنكرت عليه بلسانك وجوارحك . لا تخرج إلى غيره ولا ترفعه إلى السلطان يتعدى عليه .

كان أصحاب عبد الله : إذا تلاحى قوم قالوا : مهلا بارك الله فيكم . مهلا بارك الله فيكم .

ويقول أحمد فى موضع آخر : أما السلطان فلا . إذا رفعهم إلى السلطان خرج الأمر من يده ، أما علمت وصية عقبة بن عامر ؟

أما أصحاب عبد الله فأصحاب ابن مسعود حاجب النبى ﷺ سادس الستة الأولين فى الإسلام ، وإليه ترجع مدرسة الكوفة التى نتجت أبا حنيفة .

وأما عقبة بن عامر فصحابى وَلِىَ مصر لمعاوية سنوات . وهو القائل إذ أخبره رجل أن لهم جيراناً يشربون الخمر وأنه داع لهم الشُّرطة ليأخذوهم . (لا تفعل ، ولكن عظهم وتهددهم) ففعل فلم ينتهوا ، فعاد إليه يريد تبليغ الشرطة فقال عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإنى سمعت رسول الله يقول : (من ستر مؤمناً فكأنما استحيا موءودة من قبرها) .

وشكا رجل إلى أحمد جاراً يؤذيه بمنكر ، فقال له : مره بينك وبينه ، قال : أمرته مراراً وكأنه يضحك ! قال الإمام : وأى شىء عليك ، إنما هو يضحك على نفسه ! أنكر بقلبك ودعه .

وإذا لم يَقْو امرؤ على الإنكار على صاحب السطوة وقوى على الإنكار على ضعيف فعليه ألا يسوى بين الاثنين ، فيترك الإنكار على الضعيف من أجل ضعفه : أى عليه أن ينكر على من يقدر على رده عن المنكر وإلا أصبح الضعف قوة تأذن بارتكاب المنكر واختلقت قوة المبطل حجة على إجازة الباطل ! يقول أحمد : ينكر على الذى يقوى أن ينكر عليه .

سئل أحمد عن بيع اليهودى والنصرانى الخمر ظاهراً : فهل على المسلم شىء ؟ فقال : إذا كان ذلك من السلطان فليس يتعرض هو .

قيل : فإذا رأى مسلماً قد حمل شيئاً منه ؟ قال : المسلم يعظه . فإن أبى أهرقه .

وأكثر الناس قادرون فى أكثر الظروف على الإنكار على أكثر المنحرفين ، والنهى عن المنكر يشد ظهور المؤمنين – وما أحوجهم إلى شد ظهورهم – وبرغم أنف المنافقين . وهم كثر .

يقول أحمد فى عصره ، وشتان ما عصره والعصور بعده ، إذا رأيتم اليوم شيئاً مستوياً فتعجبوا !

ويقول : يأتى على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم كالجيفة ، ويكون المنافق يُشار إليه بالأصابع ! فقيل له : كيف يشار إلى المنافق بالأصابع ؟ فقال : صيروا الأمر فضولاً : المؤمن إذا رأى أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى . يعنى قالوا هذا فضول ! والمنافق كل شىء يراه قال بيده على فمه (وضعها على فمه علامة على الصمت) ، فقالوا : نعم الرجل !

وإذا كان للمعروف دائماً موضع فالأمر به يحتاج إلى كيس الكيس ، أو دهاء الدهىّ . ومن الناس من ختم الله على قلوبهم وألقى الغشاوة على أبصارهم . ومن الناس من لا ينفع النصح فيهم .

وقديماً قال يحيى بن كثير : موعظة الجاهل كالمغنى عند رأس الميت !

والسجود وأحسن صلاتك .

وسئل عن رجل يضرب الطنبور والطبل أو نحو ذلك : أيوجب أن يغير؟ قال : أوجب . . إن غير فله فضل ؛ فسئل فيرفع إلى السلطان ؟ قال : تخافه ؟ قال : نعم ؛ قال : أنكره بقلبك . وليعلم الله ذلك منك . روى ذلك عن عبد الله بن مسعود .

فإذا انكشف المنكر فلا حرمة له : يقول أحمد : لا يمر بالخمر مكشوفا . قيل له : فإذا كان مغطى ؟ قال : لا تتعرض له إذا كان مغطى .

سئل عن الرجل يرى القنينة (يظن) أن فيها مسكرا ؟ فقال : دعه[1] وسأله أبو بكر المروزى — لو رأيت الخمر مكشوفا فى قنينة أو قربة ترى أن تكسر أو تصب ؟ قال : تكسر.

وسأله عن الطنبور إذا كان مغطى ؟ فأجاب : إذا ستر عنك فلا .

يقول أحمد لمن سأله : وإن كان العود من وراء الثوب وهو يصفه أو يبينه ؟ لا إذا كان مغطى فلا أرى له ذلك .

ومن مجموع النصوص والآثار يمكن الترخيص فى الغناء فى العرس والعيد غناء الرجولة أو المناسبة الصالحة الذى لا يترنم الفساق بمثله :

أخرج النسائى عن عامر بن سعد : دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى فى عرس وإذا جوار يغنين فقلت : أى صاحبى رسول الله ﷺ وأهل بدر يُفعل هذا عندهم ؟ فقالا : اجلس فاسمع معنا ، وإن شئت فاذهب ، فإنه قد رخص لنا فى اللهو عند العرس .

وفى تحريم غناء النساء قال الرسول (لا تشتروا القينات ولا تبيعوهن ولا خير فى تجارتهن وثمنهن

---

(١) دخل أحمد ويحيى بن معين وأبو خيثمة دار خلف بن هشام البزار يطلبون حديثه . وهو من كبار المحدثين وله قراءة اختص بها ، لكنه كان يشرب النبيذ — آخذاً أخذ من أباحه من العراقيين كالشعبى والنخعى وأبى حنيفة وإن لم ينتبذ منهم أحد قط — فوجدوا بين يدى خلف قنينة نبيذ . وأقبل أحمد يسأله ، وحول ظهره إلى القنينة ، حتى إذا أزمعوا الانصراف سأله خلف : يا أبا عبد الله ، أى شىء تقول فى هذا ؟ — يقصد القنينة — قال أحمد : ليس ذلك إلىّ ، ذلك إليك ! قال خلف . كيف ؟ قال أحمد : قال النبى ﷺ : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والرجل راع فى منزله ومسئول عما فيه ، وليس للخارج أن يغير على الداخل شيئاً .

ولما خرجوا سكب خلف خابيتين ، وعاهد الله على ألا يذوقه حتى يعرض على الله عز وجل .

وتوثيق أحمد لخلف شرب أم لم يشرب — قبل متاب خلف أم بعده — مظهر لاحترام الاجتهاد والاختلاف فيما هو محل للخلاف .

يقول حاتم الأصم من فقهاء المعتزلة وزعماء المتصوفين : (حادثت أحمد فيمن شرب النبيذ من أهل الكوفة ؛ فقال : (هذه زلات لا تسقط عدالتهم) . وإنما قصد أحمد أنها زلات رأى لا سقطات فى الدين .

ويقول ابن تيمية : (فأما من فعل محرماً بتأويل فلا ترد روايته فى ظاهر المذهب) .

حرام) وفى مثل ذلك نزلت (ومن الناس من يشترى لهو الحديث . . .)[1] .

وأحمد يرى أن الجارية التى تقرأ القرآن بالألحان إذا بيعت بيعت ساذجة : أى ليس لها هذه الخصيصة .

وسئل عن قراءة القرآن بالألحان فكرهها وقال : « ما يعجبنى . هو محدث » وقال « بدعة » لا يسمع . وأنكر الأحاديث التى يحتج بها فى القراءة بالألحان .

أما حديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) فقيل فى معنى (يتغنى) قول سفيان بن عيينة (يستغنى) وقال الشافعى : (إنما هو يتحزن ويترنم ويقرؤه حدراً (دون تمطيط) ، وتحزينا . وبعض يقول : إن رفع الصوت بالقرآن هو التغنى به .

وأىّ هذا كان يتعين ألا تخرج طريقة الأمر بالمعروف عن المعروف . والله يقول (ولا تجسسوا) .

* * *

فالمحتسبة لا يتسلقون الحيطان ولا يتجسسون مهما عظم المنكر إذا كان خاصا كالزنى والخمر ، فلا يجوز التجسس على ما خفى من هذه القاذورات ، لأن ضررها مقصور على أصحابها . ومن ذلك قول أحمد بن حنبل (ما غاب فلا تفتش) وإنما يجوز التجسس فيما يتصل بحياة المسلمين كغش الدواء والشراب والطعام والتآمر للقتل .

لم يكد الإمام يقضى نحبه حتى أصبحت الحنبلية – شعاراً للتمسك بالدين ومقاومة البدع .

---

(١) سئل أحمد عن حديث عن عائشة فيه جوار يتغنين : إيش هذا الغناء؟ قال : غناء الركب أتيناكم أتيناكم . وهو يروى فى المسند :

– عن عائشة رضى الله عنها : كانت عندنا يتيمة من الأنصار فزوجناها رجلا من الأنصار ، فكنت فيمن أهداها إلى زوجها فقال رسول الله ﷺ : (يا عائشة ، الأنصار فيهم غزل فما قلت ؟) قالت : دعونا بالبركة ، ثم انصرفوا . قال : أفلا قلتم :

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمر ... ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السمراء ... لم تسمن عذاريكم

ولما سئل أحمد عن لعب الحبشة فى المسجد لم يجب (الحديث أخرجه أبو داود) .

ويرى أحمد أن الدف لا يعرض له فى الإملاك والزفاف بالغناء . ويبتسم إذ يعلم أن أبا بكر المروزى ذهب يغسل ميتاً فوجد دفاً فكسره .

قال أحمد : يكسره فى مثل الميت : أى أنه لا يرى للدف محلاً حيث تلتقى الدنيا والآخرة . وهو القائل : إذا ضربتم بالدف فلا تضربوا إلا بتسبيح وتكبير . ويرخص به فى النكاح إعلاماً به ، وهو عليم أن رسول الله ﷺ مر بجوار من بنى النجار وهن يضربن بدف لهن ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار ... يا حبذا محمد من جار

فقال : (الله يعلم أنى أحبكم) .

وشجرت الفتن بين الحنابلة وبين الآخرين ، فشكاهم صاحب الخبر إلى الخليفة . فكتب المتوكل إلى صاحب الخبر : (لا ترفع إلى شيئاً من أخبارهم ، وشد على أيديهم ، فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد ! وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته ، وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين) .

وعمرت المساجد بالجمع والجماعات ، واختفى المفطرون فى رمضان ، وتحجبت السافرات ، وامتنعت نياحة النائحات ، وانقطع مشى الرجال والنساء فى الطرقات . وحمل أصحاب احمد على أصحاب البدع وبخاصة من يدعون دعاوى الصوفية.وشغب علام خليل (٢٧٥) عليهم العامة فاتهمتهم بالزندقة ، وسعى عند والدة الخليفة حتى سجن سبعون رجلاً منهم وهرب بعضهم وحوكم بعض آخر وقضى القاضى ببراءتهم .

وفى القرن التالى كان على بن خلف البربهارى (٣٢٩) شيخ الحنابلة ، ولما مات أمر الخليفة بدفنه إلى جواره .

يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢ (عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان . فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذى معه . من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأرهجوا بغداد) .

والسلطة غيور لا تقبل الشركة ، وواجبها ألا تأخذ الناس بالظنة ، وبهذا وقعت الوقيعة بين الخلافة والحنابلة فأصدر الخليفة الراضى توقيعاً عنيفاً يقرأ عليهم ، وركب صاحب الشرطة ونادى فى الناس : لا يجتمع من الحنابلة اثنان . لكن الحنابلة ظلوا على طريقتهم .

وأمسى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحفاظ على منهج السلف فى التعبد والسلوك ومقاومة البدع تراثاً للمذهب .

وسنرى بعد ، أنهم كانوا على حق فى معاجلة البدع بالردع كى لا يستفحل خطرها فيما بعد . والبدعة جرثومة تتكاثر ، فلا يقتصر أذاها على العامة وإنما يتعداهم إلى الخاصة ، وينتقل من السقطى إلى فضلاء ، ومن الضعفة إلى أقوياء .

الفصل الثانى

من البدع المذمومة إلى البدع المكفرة

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
الذين آمنوا وكانوا يتقون) .
قرآن كريم

تعلم المسلمون أن يتجنبوا محدثات الأمور ، وأن يؤدوا الأمانة فى دينهم . وكل أمانة لا تؤخذ مأخذ الجد مآلها إلى عدم الأداء ، والشرك أخفى من دبيب النمل فى الغافلين ، إن لم تتيقظ له النفس دب إليها من حيث لا تستبين .

لم تكد تنقضى الأجيال الثلاثة المفضلة حتى نجمت البدع فى المجتمع ، ومنها ما تصدى له خلفاء بنى أمية فى أخريات أيامهم وبنو العباس فى مطالع دولتهم .

ولم يسلم التيار الفكرى للأمة من بدع وافدة من الخارج تهاون فى صدها جمهور أهل العلم ، فمكنوا للفكر الباطنى أن تنمو بذوره وأن تمد جذورها من فرقة إلى أخرى : مثل التأويل الباطنى أو الرمزى ، وادعاء العلم اللدنى ، والخوف من غير الله سبحانه وتعالى ، وتقديس رجال زعموا رفع التكليف عنهم ، وإتيانهم بالخوارق ، أو أنهم يعلمون الغيب ولا يمسهم السوء .

وكان كل جيل جديد يشهد جديداً من البدع أو تمكيناً لغيرها حتى حل زمان لم يكن يَيْسر للناظر أن يبصر فيه بأساس دين المسلمين وهو التوحيد الخالص !

وإنما بلغ المسلمون هذا المبلغ دحرجةً ، بعد إذ نسى الناس الله فأنساهم أنفسهم . فأسلموها إلى جنس غالب عليهم بعد جنس آخر ، وسرت كالوباء آراء مفكرين جلهم من غير العرب ، لأن المسلمين لم يقابلوها بالفكر الأصيل الشافى من المرض ، وهو القرآن والسنة . وعلى هذا التراخى أرخى الليل سدوله ، وتباطأ تيار الشرع الدفيق فى جريانه .

والفكر الأصيل لا يتوقف دفعة واحدة ، وإنما يصاب صاحبه بالاختناق ؛ إذ تعجز القنوات الاجتماعية والإنسانية عن تحمله لعوامل قريبة أو بعيدة . منها ضعف الدين أو نقص العلم أو فقدان الأنفس ثقتها بما هى فيه عن يقين أو توهم ، فتستحب الدخيل عليها أو تستنيم له أو تعجز عن

مغالبته ، ويوهى جلدها تعاقبُ الزمان وانقطاع الأمل والعجز عن الجهاد والاجتهاد والرضا بالتقليد والتواكل . فتترك الشر وشأنه .

ولم يك بعيداً عن ذلك أمرالجماعة الإسلامية منذ المائة الثالثة للهجرة ، إذ أتيح للفكر الشعوبى أن يزدهر بأفول نجم العرب ، ثم بحرمانهم من الجهاد ، منذ قصر المعتصم الجندية على الأتراك . وتلاحق الغزاة على المجتمع ، وفى جعبتهم آراء شتى ومتشعبة وبقايا مترسبة من عقائد بالية لم تتطهر بعد بالإيمان الصحيح ، أو حرص عليها أصحابها كشعار عنصرى لمقاومة العرب.ومن ذلك تأليه الملوك وعبادة النار والاعتقاد بوجود إلهين للخير والشر والنور والظلام والامتناع عن الزواج وشيوعية الأموال والأزواج ورجوع الموتى للحياة فى الدنيا !

فمن قبل الإسلام سادت المزدكية فى فارس وخراسان وفيها جماع مبادئ الديانات الفارسية : من أتباع مانى الذين يرون للعالم أصلين هما الظلام والنور ، وأن الحياة على الأرض جناية ، وأن لا داعى للزواج – إلى أتباع زرادشت (٥٨٣ ق . م) الذين يؤمنون بوجود إلهين إله للخير وآخر للشر ، وأضاف مزدك إلى العقيدتين السابقتين مبدأ شيوعية الأموال والأزواج . وعندما قتل مانى (٢٧٦) ومزدك (٥٢٩) شاع بين أتباعهما أنهما لم يقتلا ، وإنما رفعا إلى السماء ، وأن كلاً منهما سيعود ليملأ الدنيا عدلاً !

ولما دخل المسلمون فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان (روسيا السوفيتية الآن) فى القرن الأول للهجرة وجدوا الناس يعبدون النار ، ويعتقدون تعدد الآلهة والاتصال بالعالم الخفى وهبوط المعارف من العالم الإلهى إلى بعض الناس .

ولم يكد يستهل القرن الثانى للهجرة حتى تداول المسلمون ترجمات شتى ، منها ترجمة ابن المقفع لكتاب مزدك المسمى (دستاو) ، وترجمته لكتاب كليلة ودمنة من اللغة الهندية فيها أفكار مزدكية . واشتهرت زندقته حتى كان الخليفة المهدى يقول : (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع) .

وكما نبه البيرونى فيما بعد على ما فى كليلة ودمنة من زندقة ، نبه على أن عبد الكريم بن أبى العوجاء – وهو عربى ملحد قتله المهدى فيمن قتلهم من الزنادقة – كان من المانوية .

ومن قبل المهدى ظهرت هذه العقائد فى أتباع أبى مسلم الخراسانى – قائد الجيش الخراسانى الذى جاء ببنى العباس إلى الخلافة – فألّهه أنصاره قبل أن يقتله عبيد أبى جعفر المنصور فى حضرته ، ثم فى أتباع ابنته وابنها فيروز ، وفى أتباع سنباذ ؛ إذ قام يطالب بدمه . وفى الراوندية الذين هجموا على أبى جعفر ليقتلوه فنجا منهم بشجاعته .

أما يحيى بن خالد – أبو البرامكة وأستاذ الرشيد ومربيه ووزيره الذى فوض إليه وإلى بنيه شئون الدولة – فكان جدوده سدنة بيت التارف بلخ .

وفى يحيى وبنيه يقول الأصمعى :

إذا ذُكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكان جوستنيان إمبراطور الرومان قد أغلق « الأكاديمى » فى أثينا ، فلجأ علماؤها إلى كسرى سنة ٥٢٩ للميلاد ، فمكن لهم فى « مدرسة جنديسابور ».وأحدثت هذه المدرسة من نحو قرن قبل قيام التقويم الهجرى تخليطا إغريقياً فارسيا فى التفكير آل إلى المسلمين بين ما آل إليهم من العلاقات والترجمات ، وقد أخذت سبيلها إلى العرب من عهد بنى أمية ؛ ولهذا لم تبعد من المسلمين آثار مدرسة الإسكندرية وفيها الفكر الإغريقى الوثنى بمثالبه واتجاهاته .

ولمدرسة الإسكندرية شأن من عهد إقليدس وأرشميدس وأفلاطون وفيثاغورث ، وفيها أصداء الفلسفة الكنسية التى تأثرت بها فلسفة أفلاطون فسميت الأفلاطونية المحدثة .

وكان للراهب القبطى المصرى الإخميمى أفلوطين أثر ظاهر فى هذه الفلسفة ذاع به التشبيه والتجسيد والغنوص .

ومن مصر القبطية عرف العالم نظامى الرهبنة التوحدية والديرانية ، وانتقل مثلها إلى فلاسفة المتصوفين المسلمين ، فتأثروا بها بين ما تأثروا به من فكر باطنى وتأويل رمزى وآراء غيبية ونزعات فارسية وهندية وإغريقية وإسكندرانية .

وسنرى بعد ذلك كثيراً من الأفكار الوافدة من الخارج وآثارها لدى غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة فيما أطلق عليه المتأخرون وصف (التصوف الفلسفى) ، وفى كثير منه ما أجمع العلماء على تبديعه ، لأنه يخالف الأصول .

التصوف السلفى

أما التصوف السلفى الذى يجمع عليه المسلمون فهو زهد الصحابة والتابعين أى « السلف الصالح ». والمتصوفة عموما يعتبرون أحمد بن حنبل من أوتادهم : يقول أبو بكر البطائحى : (أوتاد العراق ثمانية : معروف الكرخى وأحمد بن حنبل وبشر الحافى وسرى السقطى . . .).

وأحمد أزهد الناس فى مدخله ومخرجه ومسكنه ومأكله وملبسه .

يقول : (ما أعدل بالفقر شيئا) ويقول : (إنى أفرح إذا لم يكن عندى شيء) ويقول : (ما قل من الدنيا كان أقل للحساب) .

ولما أحاط به الرفاه فى قصر المتوكل تقبّض عنه واستخرج الكِسرَ من زاده ، وجاع حتى خيف عليه التلف .

يشترى بدرهم شحما . فيأكل منه شهرا ؛ فإذا استيسر له الأمر فربما اشترى بطيخة أوعنبا أو تمرا . أو ربما أخذ الكِسَر فصيرها فى قصعة وأضاف إليها الملح وأكل .

وأبو حنيفة ومالك لبّاسان .وفى الطعام يتقشف أبو حنيفة .

والشافعى يأكل ويلبس ما تيسر .

وهدى الرسول ﷺ أَكْلُ ما تيسر ولبس ما تيسر . لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا وما قرب إليه شيء من الطعام إلا أكله إلا أن تعافه نفسه من غير تحريم . ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه . يرى الهلال وراء الهلال وما توقد فى بيته نار !

والفقر زهد فى المال والمظهر والطعام واللباس وخلو القلب من كل ذلك . والغنى سافل وعال : السافل غنى عن الأعراض والعوارى المستردة . والعالى غنى القلب .

يقول عليه الصلاة والسلام : (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) .

وقالت حفصة أم المؤمنين لعمر إذ فتحت الفتوح : البس الثياب ، وإذا وفدت عليك الوفود فمر بصنع طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال لها : هل تعلمين أن رسول الله لم يشبع ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ . إن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية ، فثنيت ليلة أربع طاقات نام عليها ، فلما استيقظ قال : منعتمونى قيام الليل بهذه العباءة اثنوها اثنين كما كنتم تثنونها) .

وهو القائل ﷺ :(طوبى لمن هُدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع) .

وفى زهد الصحابة يقول عبادة بن الصامت للمقوقس : (وما يبالى أحدنا أكان له قناطير مقنطرة من الذهب والفضة أم كان لا يملك إلا درهما ؛ لأن غاية أحدنا أكلة من الدنيا يسد بها جوعه ليله ونهاره) .

وكان منهم الأغنياء من تجاراتهم كعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة رضى الله عنهم .

والهجرة والجهاد والتضحية بالنفس والمال أعظم درجة : روى النعمان بن بشير قال : كنت عند النبى ﷺ فقال رجل : ما أبالى ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ! وقال آخر ما أبالى

بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ! وقال على بن أبى طالب : الجهاد فى سبيل الله أفضل ؛ فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته : فسأله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) .

ولما غاب عمير بن سعد فى ولايته أرسل عمر يستدعيه ، فأقبل وعلى كتفه اليسرى قربة ماء وعلى اليمنى قصعة ، وفى يده عصاه ، فدخل المدينة أشعث أغبر من وعثاء السفر حتى بلغ مجلس عمر ، قال : ما شأنك يا عمير؟

قال : شأنى ما ترى ؟ ألست ترانى صحيح البدن طاهر الدم ، معى الدنيا التى أجرّها بقرنيها .

قال عمر : أجئت ماشيا ، أو لم تجد من يعطيك دابة تركبها ؟

قال : إنهم لم يفعلوا ولم أسألهم .

قال عمر : فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟

قال : أتيت البلد الذى بعثتنى إليه ، فجمعت صلحاء أهله ، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم حتى إذا جمعوها وضعتها فى مواضعها . .

قال عمر : فما جئتنا بشىء ؟ قال لا ، ولو بقى لجئتك به .

قال عمر : جددوا لعمير عهدا !

قال عمير : (تلك أيام قد خلت ، لا عملت لك ولا لأحد بعدك) .

ولم يكن عمر يطيق رجلا قُعدة ، بل كان يسقط من عينه الرجل إذا لم تكن له حرفة . سأل أهل الصفة : مم تعيشون ؟ قالوا : نقيم الصلاة ونتلقى الصدقات ، قال : ليس فى الإسلام سؤلة ؛ وأخذ منهم أموالهم وغنمهم وآتاهم جريداً وعلمهم كيف يصنعون الحصر .

وفى العام التالى قالوا له : إنا نزكى الآن ونتصدق ؛ فلقد صاروا أغنياء بالعمل .

ويسأل عليه الصلاة والسلام عن اللباس الحسن : أيكون من الكبر ؟ فيجيب (لا ، إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس) .

ويقول مالك بن دينار : (أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى ، لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف . ولا صاحب الصوف على صاحب الخز) .

ويضع عبد الله بن عمرو (٦٦) الضوابط بين المسلم العادى الذى أغناه الله عن الناس وبين من عداه يوم سأله سائل : وقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ . قال : نعم ؛ قال : ألك

مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ؛ قال الرجل : فإن لى خادماً ؛ قال : أنت من الملوك !

وكان أحمد بن حنبل يلبس الغليظ لكن ثوبه ليس غليظا ينكر أو رقيقا ينكر وإن كان رخيص الثمن يؤخذ بالدينار ونحوه . ملحفته تساوى خمسة عشر درهما ، ولم يكن لباسه بذاك .

وقد يرقع قميصه برقعة يقتطعها من إزاره .

وسيصبح لباسه أجود قليلا بعد إذ يبلغ السبعين ويستغنى عنه ابناه ، فيومئذ تخلص له أجرة حوانيته التى كان يؤجرها فى الشهر ببضعة عشر درهما .

وهذا الإيراد الذى يكفيه يحدد لنا حدود الزهد عنده ، إذ يسأله سائل عمن يمتلك مائة دينار : أيكون زاهدا ؟ ويجيب الإمام : « نعم على شريطة أنها إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يجزع . « ومائة دينار تربو على مائة ضعف لما يكفى أحمد شهرا » .

وابن مسعود صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عن الغنى والفقر : (هما مطيتان ما أبالى أيهما ركبت ! إن كان الغنى ففيه البذل ، وإن كان الفقر ففيه الصبر) .

وفى هذا الزهد السلفى يتشدد المتصوفة الأول ، فيقولون : إن أصولهم ثلاثة :

١ – ملازمة الكتاب والسنة .

٢ – ترك الأهواء والبدع .

٣ – ترك الرخص والتأويلات : أى الأخذ بالعزائم .

يقولون : كان النبى ينهى عن وصل الصيام ، ومع ذلك كان يواصل الصوم ويسرده حتى يقال لا يفطر . ويفطر حتى يقال لا يصوم ! ولذلك واصل بعض الصحابة الصوم مع نهى النبى عنه ، لأنهم فهموا أن النهى للرفق ولم يروا أن يرفقوا بأنفسهم ؛ لأن ترك النفس على هواها خطر ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (حفت النار بالشهوات) .

ومن الثابت أن الصحابة تورعوا عن كثير من المباحات : كأم المؤمنين عائشة . فكثيراً ما تصدقت بالمال العظيم ، وأفطرت على أقل شىء ! .

* * *

ومع أن النهى عن التشديد صريح فى الشريعة فى كل مجال حتى صار أمرا قطعياً ، فإن بعضاً كانوا يستحبون المشقة وهم العليمون أن الله يحب أن تتعاطى رخصه . ومع أن إيذاء النفس منهى عنه فالبعض يقارنون بين عمار حين استعمل التقية ، والكفار يعذبونه بالنار لينجو بحشاشته ، وبين خبيب بن عدى إذ رفض استعمال التقية فقتل .

وكان إبراهيم التيمى (الذى مات فى سجن الحجاج سنة ٩٢) يقول : إذا أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله .

وأحمد يروى عن محمد بن يحيى القطان : لو أن رجلا عمل بكل رخصة : بقول أهل الكوفة فى النبيذ وأهل المدينة فى السماع (يعنى الغناء) وأهل مكة فى المتعة - أوكما قال - لكان فاسقا .

ولما سئل أحمد عن الأسير يخير بين القتل وبين شرب الخمر أجاب : إن صبر فله الشرف وإن لم يصبر فله الرخصة .

فأحمد يرى الصبر شرفا والرخصة حقا .

وأقوال الصوفية متواترة على أنهم لا يخرجون على السنة : فالجنيد (٢٩٧) يقول : (علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة) . ويقول : (الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبى ﷺ فإن الله عز وجل يقول فى حديث قدسى : وعــزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك) .

ويقول : (أخذت عن أبى الحسن السرى بن المغلس السقطى (٢٥٣) [1]، وأخذ السرى عن معروف الكرخى (٢٠٠) ، وأخذ معروف عن فرقد السنجى ، وأخذ فرقد عن الحسن البصرى [2](١١٠) ، ولقى الحسن سبعين من البدريين) .

ومن مشيخة الصوفية الشبلى أبو بكر بن جحدر (٣٢٧) ، وكان فقيها على مذهب مالك ، يسأل عن الزكاة فى خمسين من الإبل فيجيب : فى الشرع شاة . وفيما يلزم أمثالنا كلها . قال السائل : هل لك فى هذا إمام ؟ فأجاب : أبو بكر الصديق ، حيث أخرج ماله كله فقال النبى ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ! وفى رواية أخرى أنه أجاب « أما الواجب فشاة . وأما عندنا فكلها لله » . قيل وما دليلك ؟ فأجاب : أبو بكر حيث خرج عن ماله كله لله . فمن خرج عن ماله كله فدليله أبو بكر . ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فدليله عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله فدليله عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه على »

* * *

---

(١) خال الجنيد ومعلمه وكان زميلاً لأحمد بن حنبل فى عهد الطلب ، وكان من أوائل المتكلمين فى التوحيد على طريقة الصوفية . وهو التاجر الصدوق والزاهد الأمثل . وكان يعمل وينفق أمواله على الزهاد .

(٢) يقول فيه أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى (٤٣٠) فى حلية الأولياء : (حليف الخوف والحزن والهم والشجن عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن الحسن ، الفقيه الزاهد المتشمر العابد) .

قال له رجل من عظم مهابته أنت متكبر ، قال : (لست بمتكبر ولكنى عزيز) وهو قاضى عمر بن عبد العزيز .

الصوفى :

والصوفية لا ينتسبون لأهل الصفة أو إلى الصفاء كما يدعى بعضهم[١] بل هم منسوبون إما إلى لبس الصوف وإما إلى كلمة (صوفى) Sophia الإغريقية .

أما النسب الأول فعربى مرده إلى أن بعض الحنفاء فى الجاهلية كأمية بن الصلت قد ارتدوا الصوف ، أو كزيد بن عمرو وقد ارتدى ملابس من شعر .

وفى الإسلام لبس الصوف سلمان الفارسى وأبو ذر وأبو عبيدة . وقال أبو موسى الأشعرى : يا بنى ، لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لبسنا الصوف .

ثم مضى قرن ظهر لبس الصوف فيه على بعض الزاهدين ، ومنهم من تظاهر بالتقشف ، إذ لبسه ، فأصبح سفيان الثورى (١٦١) يرى لباس الصوف علامة رياء . فيقول : (لولا أبو هاشم الكوفى (١٥٠) ما عرفت دقيق الريــاء) وأبو هاشم أول من أطلق عليه وصف « الصوفى » وكان يلبس الصوف . ثم لبسه الكثيرون فى القرون التالية ، كما لبسوا الخرقة علامة على التصوف .

وفى محاربة التظاهر بالملبس يقول الجنيد منذ القرن الثالث : (إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب : ليس التصوف بالخرقة ولكن الاعتبار بالحرقة) .

وفى القرن الخامس كان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله يلبس الصوف أحياناً ، ويفتك بالأمة !

وأما النسب الثانى فإغريقى صراح يتزعم القول به منذ القرن الرابع أعظم عقلية فى التاريخ — كما يقول المؤرخ الأوربى سخاو — البيرونى (٣٥١ — ٤٤٠) .

والبيرونى منذ ئذ يرى أن (صوفيا) اليونانية . ومعناها « الحكمة » أصل وصف (الصوفى) فى المسلمين .

ومن المستشرقين كثيرون[٢] يرون أن قرب خراسان من الهند ومن بلاد فارس ومن العرب ييسر فهم الأصل المجوسى للتصوف . والبيرونى يرى التشابه قويا بين اليوجا الهندية وبين كثير من تصرفات المتصوفة ويوازن بين أنظار اليونان ومذاهبهم وبين أذواق المتصوفة ومقولاتهم ورياضاتهم ، وينتهى إلى تشابه حكماء الهند واليونان وصوفية المسلمين ؛ إذ يشترك التصوف والديانة البرهمية فى عقيدة وحدة الوجود التى تجلت فى مقولات المتفلسفين من المتصوفة فى أواخر القرن الرابع للهجرة .

---

(١) البيرونى منذ القرن الرابع يروى قول أبى الفتح البستى (٤٠٠) :

تنازع الناس فى الصوفىّ واختلفوا ... قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

(٢) منهم هورتين وتوليك وبلوشيه وماسنيون وبراون وأوليرى وجولدتسيهر .

والبعض يرى آثارا من المسيحية وانتشار الرهبنة فيها والقول بالحب الإلهى قد انتقل إلى المتصوفة المسلمين من القساوسة . بل يروى المبرد فى الكامل أن راهبين قدما من الشام لزيارة الحسن البصرى (فإن صفاته كحياة المسيح) كما عبر واحد منهما عن شعوره .

ومن قبل الإسلام غلا أقباط مصر فى رهبانهم ، وازدادوا غلوا فى الذين يموتون منهم ، فاتخذوا قبورهم أوثانا تعبد أو مناسبات لشد الرحال فى الأعياد والموالد . وكانت تحدث فيها انحرافات نهى عنها صلحاء المسيحية ، ستراها تنحدر إلى أجيال لاحقة فى مجتمع المسلمين .

كما قدست أجيال لاحقة الأولياء كهيئة تقديس القدماء للقساوسة ، فى حياتهم وبعد موتهم ، وأقامت التكايا كهيئة الأديرة التى أقامها أقباط مصر القدماء ، ونقلها عنهم المسيحيون فى أرجاء العالم[١] .

التصوف الفلسفى

الحق أن القرون الأولى من عمر الإسلام لم تعرف التصوف إلا على أنه الزهد والتقشف ، وإن بدأت تستمع إلى أقوال فى الحب والأذواق والمواجيد والأحوال والمقامات فى المائة الثانية ثم الثالثة .

والحق كذلك أن التصوف – كالتشيع – وجد مثابة له فى كثير من أنحاء فارس وخراسان وفيها تعاقبت دول الشيعة .

فنى القرن الثانى (المائة الثانية) توفى أربعة من أشياخ التصوف هم داود بن نصير الطائى والفضل بن عياض وإبراهيم بن أدهم[٢] وتلميذه شقيق البلخى (١٩٤) وأولهم عربى والثلاثة الآخرون من بلخ ومرو أو سمرقند .

ثم وجد فى القرن الثالث متصوفة عراقيون وشاميون ومصريون كأبى حمزة (٢٦٩) – تلميذ أحمد بن حنبل – والحارث المحاسبى وأبى سليمان الدارانى وأحمد بن أبى الحوارى (٢٩٥)

---

(١) جاء فى كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) أن القديس باخميوس (٢٩٠–٣٤٨م) وضع مجموعات قوانين للرهبان الذين يعيشون فى دير واحد حياة فقر اختيارى وتبتل وطاعة للمرشد . وأن الأنبا شنودة (٣٣٣–٣٥٠م) أقام للرهبان الديرين الأبيض والأحمر قريباً من أخميم وسوهاج وأخذهم بالنظم القاسية . ونادى بإصلاح حال الموالد حيث يقيم القبط أعياداً للقديسين تقام الصلوات فيها وتؤدى النذور ، وتنحر الذبائح ، وكانت تحتوى على فضائح فى الخيام والأسواق لا تقرها الكنيسة ، وفى صددها ألقى الأنبا شنودة موعظته الشهيرة عند أقباط مصر وفيها يقول : (جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلى وينشد المزامير ويطهر نفسه ، ويتناول الأسرار المقدسة ، أما من ذهب ليتكلم ويأكل ويشرب الخمر ويزنى ويرتكب الجرائم فهذا الكافر بعينه) .
وكما حارب القس القبطى الموالد حارب التدجيل الطبى والسحر وبناء الهياكل على أجساد الشهداء باعتبار ذلك كله وثنية آثمة .

(٢) كان أبو حنيفة يقول إذ يغشى حلقته إبراهيم بن أدهم (١٦٠) : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم .

وذى النون (٢٤٥) ، لكن الذين نبه ذكرهم من خارج جزيرة العرب كانوا أكثر عددا كمصور ابن عمار وبشر الحافى (٢٢٧) وحاتم الأصم تلميذ شقيق وأحمد بن خضرويه (٢٤٠) وأبى تراب النخشبى (٢٤٥) - والسرى السقطى (٢٥٣) والجنيد ويحيى بن معاذ الرازى (٢٥٨) وأبى يزيد البسطامى (٢٦١)[١] .

وفى خواتيم القرن الثالث مات منهم محمد بن على الحكيم الترمذى (٢٩٦)[٢] الذى نجمت فى مؤلفاته نظرية الولاية وخاتم الأولياء ، فدار حولها فلاسفة التصوف .

وفى الحكيم الترمذى يتمثل ميلاد فكر هجين فى المتصوفة المسلمين ، وفى ذلك قول المستشرق ماسنيون إنه (كان أول مسلم صوفى ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانية) .

ولم تذع مؤلفاته بعد وفاته إما لإخفائها وإما لرفضها . فأبوبكر الكلاباذى (٣٨٠) لا يذكره فى كتابه مع أنه عقد فصلا خاصا عن النبوة والولاية وفى القرن التالى ذكره القشيرى ولم ينبه على أفكاره . ويقول : (آربرى وحسن عبد القادر) : (وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب فى إهمال هؤلاء الكتاب الذين كتبوا عن الصوفية فى القرنين الرابع والخامس لم يقتنعوا بحال الترمذى ؛ ليتخذوا منه دليلا على خطتهم فى الدفاع عن الصوفية ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة) .

ولقد كان الحكيم الترمذى يقول : (ما صنعت حرفا عن تدبر ولا لينسب إلى شىء منه ، ولكن كان إذا اشتد على وقتى أتسلى به) .

لكن الهجويرى (٤٦٥) يتكلم عنه[٣] فيطيل الكلام .

---

(١) أبويزيد البسطامى أول من استحدث كلمة السكر تعبيراً عن الحب وانتهاء إلى الفناء والتحقق بالاتحاد مع الذات الإلهية ومثله يحيى بن معاذ .

(٢) ولد فى أوائل القرن الثالث بترمذ . والمؤرخون يروون أنها كانت مركزاً للبوذية فيها اثنا عشر ديراً وألف راهب ، نفى أهل ترمذ الحكيم الترمذى من بلدهم ، فخرج إلى نيسابور. والسلمى يذكر أنه خرج إلى بلخ ، ويقول تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية : (ولعل الأمر كما زعم السلمى وإلا فما تظن بمسلم أنه يفضل بشراً على الأنبياء عليهم السلام) .

(٣) يقول الهجويرى ما تعريبه : (فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ . وإن اختلفت عباراتهم فى ذلك . وكان محمد بن على الحكيم الترمذى هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف . . وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفى حتى تنتفع بهذه الآراء ، وكذلك من يقع هذا الكتاب فى يده : فاعلم أن « الولى » هو لفظ جار على ألسنة الناس ، وجاء فى القرآن وحديث الرسول ؛ فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته ، واختارهم حكاماً لملكه ، ومنحهم أنواع الكرامات . . ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين إنما هى عند العلماء فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هى عند الأولياء . . والله جعل دلائل النبوة باقية إلى وقتنا الحاضر ، وجعل الأولياء مظهراً لهذا المعنى علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد : فجعل الأولياء حكام هذا العالم ، واختارهم لهذا العمل ، وجعلهم لا يتبعون آثار حواسهم ، فببركة حلولهم تمطر السماء ، وبنقاء حياتهم ينبت الزرع ، وبدعائهم ينتصر المسلمون على الكفار ، وهم ليسوا معصومين من الذنب لأن ذلك للأنبياء خاصة ، ولكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية .

هذه هى أصول مذهب محمد بن على الحكيم الترمذى .

=

أما محيى الدين بن عربى فى القرن السابع فسينقل كلامه كله ثم يطوره أطوارا أبعد ما تكون عن نهج آباء الصوفية الصلحاء : كإبراهيم بن أدهم والجنيد والشبلى والسقطى وأمثالهم .

والحسين الحلاج مولود بمدينة بيضاء بفارس سنة ٢٤٤ من السابقين إلى القول بالحلول والاتحاد وفى ذلك شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدَنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وافتتن الناس بالحلاج ، فنسبوا إليه القدرة على معرفة الغيب وإحياء الموتى ، واتصلت أسبابه بالقرامطة ، وصدرت ضده الفتوى من محمد بن داود الأصفهانى – الظاهرى – فسجن وهربَ ثم قبض عليه وحوكم وأعدم سنة ٣٠٩ .

لكن التيار العام للتصوف ظل يجرى فى القرن الرابع ين ضفاف الفكر الإسلامى ، مثلما شهدنا ابن حنبل فى القرن الثالث يشهد جلسة الحارث المحاسبى فيتأثر كجلاسه ويكتفى بأن ينهى صاحبه عن مجالسهم دون أن يفسقهم .

وفى أواخر القرن الرابع ظهرت مؤلفات أبى نصر السراج (٣٧٨) صاحب اللمع ، والكلاباذى (٣٨٠) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف وأبى طالب المكى (٣٨٦) صاحب قوت القلوب .

وفى منتصف القرن الخامس ألف الهجويرى كتابه كشف المحجوب فعد للمتصوفة اثنى عشر فرقة هى المحاسبة نسبة للحارث بن أسد المحاسبى والقصارية نسبة لحمدون القصار والطيفورية نسبة لابن يزيد طيفور البسطامى والجنيدية نسبة للجنيد والنورية لأبى الحسين النورى والسهلية نسبة لسهل التسترى والحكيمية نسبة للحكيم الترمذى والخرازية نسبة لأبى سعيد الخراز والخفيفية نسبة لمحمد بن الخفيف والسيارية نسبة لأبى العباس السيارى والحلولية للقائلين بالحلول . ولم يذكر الفرقة الثانية عشرة فلعلها سائر المتصوفة .

والقشيرى – وهو من كبار كتاب المتصوفة ، ومعاصر للهجويرى – لا يحتفل إلا قليلا بالحكيم

= واعلم أن شيوخ الصوفية بوجه عام يقولون : إن الأولياء فى كل وقت وحال أقل رتبة من الأنبياء ، وإن الأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بدء النبوة ، وكل نبى ولى ، وبعض الأنبياء ليسوا أولياء ؛ فالأنبياء خالون دائماً من الصفات الإنسانية والأولياء كذلك فى بعض الأوقات . والحال عند الولى مقام عند النبى ، وما هو عند الأولياء مقام – هو عند الأنبياء حجاب ، هذه هى أصول أهل السنة والمتصوفة) .

ويرى الحكيم الترمذى أن الولاية وهى القربة إلى الله تعالى تعم كل المؤمنين وهناك ولاية خاصة عبر عنها الرسول إذ قال : (إن فيكم محدثين وإن منهم عمر) ، وهم الذين اختصهم الله بالاسم الخفى وجعل لهم التصرف فى الخلق بالحق . وقد يخص الله ولياً من أوليائه بشىء ليس عند النبى . وخاتم الأولياء هو الإنسان الكامل.وهو الآخر فى الأولياء .

الترمذى ، فلو احتفل به لما أعلن انقراض التصوف السابق عليه حيث يقول : (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم . حصلت الفترة فى هذه الطريقة لا بل اندرست بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء . وقل الشباب الذين كان لهم بها اقتداء) .

* * *

ولعل القشيرى كتب ذلك قبل أن يذيع خبر أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ – ٤٤٠) بنيسابور ، بل لعله كان يعلن ميلاد عصر جديد لطُرز فارسية مستحدثة فى ممارسة التصوف حين قال : (عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية . ولو لم نره لقرأنا التصوف فى الكتب) .

وآثار أبى سعيد فى تاريخ التصوف خطيرة .

فلقد تلمذ للقفال العالم الشافعى الكبير ، ثم لبس خرقة التصوف على يد أبى عبد الرحمن السلمى (٤١٢) ، ثم اعتنق مبدأ وحدة الوجود واستكثر من البدع .

فأبو سعيد أول من استعمل اللسان المرموز الذى أكثر من استعماله الفرس ، ومنهم شعراء التصوف كالعطار وجلال الدين الرومى والسنائى .

وأبو سعيد مولع بالسماع والإنشاد ، مولع بالرقص ، يراه رياضة تساعد المريد على التخلص من شهوة الجسد ! وبالإنشاد والرقص اختصت فرقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومى والتى خصها المستشرقون باسم «الدراويش الراقصين» .

وأبو سعيد أول من أقام عددا من التكايا أو الخانقاهات أو الزوايا ، لينقطع فيها رجال للذكر والعبادة والزهد على طريقته ، واستكثر منها فى فارس وخراسان ، وكان يشرف عليها ويعلم المنقطعين إليها .

وأصبحت التكايا[1] منذئذ ظاهرة اجتماعية فى بلدان المسلمين .

---

(١) وليس نظام التكايا إلا نسخة طبق أصل مسيحى بملأ أقطار آسيا وأوربة وأفريقية من قرون قبل الإسلام ، وبعده ، منذ قدمه أقباط مصر للعالم المسيحى فى شكليه التوحدى والديرانى فى أواخر القرن الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع : فالقديس أنطونيوس رائد الرهبة التوحدية والقديس باخميوس رائد المجتمع الديرانى ، ومن بعدهما ظهرت الرهبنة التوحدية فى جبل أتوس بسالونيك ، واشتهرت الرهبنة الديرانية فى دير ستودبوس بالقسطنطينية .

والرهبنة التوحدية تصوف انفرادى كمن يعيش حياته على عمود أو داخل كهف أو تجويف شجرة !

والرهبنة الديرانية تصوف جماعة لقراءة الأناجيل والعبادة .

يقول الدكتور رأفت عبد الحميد الأستاذ بجامعة عين شمس فى تقديمه لكتاب العالم البيزنطى : (قام الرهبان بدور كبير فى الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ، ولذلك فلا غرابة فى أن يصبح الرهبان عمد العالم البيزنطى الذين تعلقت بهم أفئدة الجمع ، =

وذاع عن أبى سعيد أنه يقول بسقوط التكليف عن بعض القوم ، بل إنه لا يلتزم فرائض الإسلام ؛ فهذه انحرافات كثيرة بدأت على يد رجل واحد فى منتصف القرن الخامس بخراسان فى الوقت الذى أعلن فيه القشيرى انقراض التصوف السابق ، وأنه لم ير قبله تصوفاً .

وجرت الرسائل بين أبى سعيد وبين ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨)[1] .

وذاع أمره بين الفقهاء فندد به ابن حزم (٤٥٦) قال : (إن من الصوفية من يقول : إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى.وبلغنا أن بنيسابور اليوم رجلا يدعى أبا سعيد بن أبى الخير من الصوفية ،مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة . وهذا كفر محض) .

من غلاة الشيعة إلى التصوف الفلسفى

غلاة الشيعة :

كان لأمير المؤمنين على وشيعته شأن كبير فى فجر الإسلام . فهو بطل حروب الإسلام غير منازع . وصهر النبى الذى نشأ فى بيته ، وله الأنصار فى حياة النبى وفى عهد الخلفاء الراشدين قبله . ولما بويع له بعد مقتل عثمان خاض المسلمون معه الحروب مستبسلين فى الجمل وصفين والنهروان ، فلما استشهد التفت شيعته حول بنيه ثم تفرقت فرقا ترى كثرتها إمامة أبناء على من فاطمة الزهراء : أى بيت الحسن والحسين باعتبارهم (أهل البيت) ؛ والقلة رأت إمامة محمد بن الحنفية بن على من زوجته من بنى حنيفة.ونقلت إمامته إلى ابنه أبى هاشم . واستغل بنو العباس تلك الفرقة ، واحتجوا

= وراحوا يطلبون إليهم قضاء حاجاتهم وتحقيق الآمال وهذا أحل الرهبان مكانة فريدة فى الشرق الرومانى) وينقل الأستاذ عن كتاب المؤرخ جيبون (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) قوله :

(وقد سلم جيل متخنث ذليل فى ورع وتقوى بحياة الكسل التى يحياها الرهبان ، ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر إلى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلى عن علم الدولة) .

(١) من ردود ابن سينا عليه مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية ١ - عن الغرض من القياس وتبعية العلم له ٢ - تعلق النفس بالبدن ٣ - سبب إجابة الدعاء ٤ - الدخول فى الكفر الحقيقى والخروج من الإسلام المجازى . ويطلق على الرسالة الأخيرة اسم الرسالة الإرشادية وهى رد من ابن سينا على كتاب لأبى سعيد فى نفس الموضوع .

وكان أبو سعيد يعقد المجالس ويخطب على المنابر ويجادل الفقهاء مما عرض حياته أحياناً للخطر ولم يبرح بلدته (ميهنة) طوال نصف قرن إلا إلى طوس أو مرو قصبة خراسان أو إلى خرقان .

بما قيل : إنه وصية من أبى هاشم لواحد منهم ، وأرجعوا حقهم فى الخلافة إلى أنهم أهل النبى أو أهل « بيت النبى »

وعلا شأن التشيع لعلى فى أهل خراسان كراهة منهم لبنى أمية فى الشام وإيثارهم العرب على الموالى ، وأملا فى أن يتساوى الموالى والعرب . وزاد غضبهم تصالح الحسن بن على مع معاوية ثم استشهاد الحسين وأهله فى كربلاء سنة ٦٣ . وكان الحسين قد تزوج شاه زنان إحدى بنات يزد جرد عاهل الفرس ، فولدت زين العابدين فصار للشيعة رحم فى الفرس . وفى أوائل القرن الثانى نجحت الدعوة للرضا من آل محمد ، وجاء جندها ببنى العباس للحكم .

وفتك بنو العباس بأبناء على فتكا لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد ! وسلم الإمام جعفر الصادق بإمامته العلمية المسلّمة وانصرافه عن الإمامة السياسية كأبيه الباقر (١١٤) وجده زين العابدين (٩٤) .

وزين العابدين هو الوحيد من نسل الحسين الذى حيى بعد مذبحة كربلاء .

وعلم الإمام جعفر المسلمين من كل مذهب فهو شيخ مالك وأبى حنيفة . وأثرهما ظاهر فى جميع المذاهب . وهو شيخ جابر بن حيان أول كيمياوى فى التاريخ ، ومنه انتقل إلى العالم المعاصر منهج المسلمين فى التجربة والاستخلاص .

لكن أثر جعفر الضخم كان فى قيام شيعته بعد موته سنة ١٤٨ . بتشكيل مذهب متكامل فى فقه العبادات والمعاملات ، وطريقة الحياة والسعى للرزق ، وفى نظام الحكم ، سمى الجعفرى — نسبة إليه — أو الإمامى أو « الاثنا عشرى » نسبة إلى قول أصحابه إن الأئمة اثنا عشرة أولهم على فالحسن فالحسين فزين العابدين فالباقر فجعفر فابنه موسى الكاظم فخمسة متسلسلون من حفدته . وهو مذهب فى الفقه الإسلامى يتجارى هـو ومذاهب أهل السنة ، تعمل به الآن دولة إيران وأقليات كبيرة فى دول الإسلام أو غيرها [1].

وكذلك تعمل أقليات أخرى من الشيعة بمذهب عمه زيد بن على زين العابدين ، وهو مذهب قاعدته السياسية أن يجاهد الإمام للمطالبة بحقه . وأما فى الفقه فهو أقرب مذاهب الشيعة إلى فقه أبى حنيفة إمام أهل الرأى من أهل السنة ، مما يشير إلى تأثير زيد فى علم أبى حنيفة وانتفاع المذاهب كافة به عن هذه الطريق .

ومن الشيعة من قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه وإن أباه أخفاه فى حياته خوفاً عليه من السلطة وإن محمد بن إسماعيل صار إماماً .

(١) راجع كتابنا : الإمام جعفر الصادق طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وبهذا نشأت الفرقة الإسماعيلية . ثم صارت أفراقا : منها الغلاة ، ومنها المعتدلون لكن ديدنها كلها الخفاء ، اتقاء (تقيةً) للخطر ، وهى مجمعة على أن الإمام معصوم يمتاز ممن عداه ، ومنهم من يؤولون القرآن والسنة لتجارى النصوص سياسة المذهب . ومن يزعمون قدرا إلاهياً فى الإمام ، وهى أفكار سبق بها مغالون آخرون ممن ألّهوا أمير المؤمنين علياً فى حياته فخدّ الأخاديد وحرقهم فيها بالنار .

ومنهم الكريبية قالوا : إن محمد بن الحنفية لم يمت ! وقال آخرون — من القرن الأول — إنه سيرجع ؛ ومنهم حمزة بن عمارة ادعى النبوة وكان يقول : (من عرف الإمامة فليصنع ما يشاء) ، ولهذا أحل المحارم لجميع العارفين .

ومنهم الذين أولوا الجنة والنار والصلاة والصوم وغيرها على أنها أسماء رجال أمروا بمعاداتهم أو موالاتهم ، كاتباع أبى منصور العجلى الذى زعم أنه خليفة الإمام الباقر ، وقد صلبه يوسف بن عمر الثقفى حوالى سنة ١٢٥ [1] .

ومنهم فرقة القرامطة التى استغلظ أمرها سنة ٢٧٨ . يقولون بوجود أئمة سبعة بعد النبى عليه الصلاة والسلام أولهم على ثم الخمسة الذى أسلفناهم والسابع محمد بن إسماعيل . وهو «القائم» و «المهدى المنتظر» وهو «غائب مستتر» وهو «خاتم النبيين» وأبعدوا فى «التأويل» ليقيموا بنيانا خصوصياً لنحلتهم .

وفى حياة زعيمهم حمدان بن الأشعث (المسمى قرمط) — وقد مات سنة ٢٨٦ — قامت فتنة القرامطة انتفاضا على الدولة والأمة ، فاستولوا على «البحرين» ، وتوجهوا إلى مكة ، فنزعوا الحجر الأسود من الكعبة واحتجزوه على مدى اثنين وعشرين عاما ثم أعادوه إلى الكوفة ومعه ورقة جاء فيها (نزعناه بأمر وأعدناه بأمر) .

* * *

أرسل القرامطة داعيةً لليمن يلقب (ابن حوشب) وأرسل داعى اليمن داعياً بالمغرب أظهر المذهب الإسماعيلى ، فاستولوا على بلاد المغرب وأنشئوا مدينة المهدية فى أرض القيروان بتونس ، وأقاموا الدولة العبيدية سنة ٢٩٨ . ثم سموها «الفاطمية» نسبة إلى فاطمة الزهراء باعتبارهم

---

(١) وزعم الناورسية أن «جعفر الصادق» حىّ لايموت حتى يظهر باعتباره «المهدى» المنتظر .

وزعم الخطابية — فى حياة جعفر — أنه نبى مرسل ، وأن النبوة نور فى الإمامة ، وأولوا الكتاب والسنة وأحلوا المحارم ، وتبرأ منهم الإمام جعفر ، وفتك بهم عيسى بن موسى والى أبى جعفر المنصور على الكوفة وقتل أبا الخطاب .

ثم انقسم الأحياء من أصحاب هذه النحلة فصاروا نحلا تعمل فى الخفاء منها البزيغية والمفضلية والمعمرية والعميرية قال بعضهم بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو حجر الأساس فى الفرقة الإسماعيلية .

حفدتها[1]، وفتحت الدولة الفاطمية مصر فى سنة ٣٥٨ ودُعِيَ لها فى بغداد سنة ٤٥٠ .

وفى مصر ازدادوا حضارة والتزامًا بتراث العالم الإسلامى كافة فطرأ عليهم الاعتدال المذهبى ، وقاوم المصريون تقديس المغالين منهم لأئمتهم . وفى سنة ٤٠٨ أخرجوا من غَلَوا فى الحاكم بأمر الله إلى لبنان ، فنشأت فرقة الدروز ، ثم شاركت فى قتل الحاكم أخته (ست الملك) ، وكانت أمها جاريةً رومية نصرانية من سرارى الخليفة العزيز بالله .

وتعاظم نفوذ النصارى واليهود فى دولتهم : فخالا (ست الملك) يعينان بطريقين للإسكندرية ، حيث الكنيسة القبطية ، ولبيت المقدس ؛ ويعقوب بن كلس ذمّى أسلم وهو الوزير الذى نظم التدريس بالأزهر . ووكل الخليفة العزيز إدارة مصر إلى نصرانى اسمه عيسى بن نسطورس . أما إدارة الشام فعهد فيها ليهودى اسمه منشا .

وأصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) إلى قائده الأرمنى الأصل بدر الجمالى فولدت له بنت بدر (المستعلى) ، فولاه بدر الخلافة وحبس أخاه نزارا صاحب الحق فى الخلافة ، ثم قتل نزارا ، فدعا لإمامته الحسن بن الصباح فى إيران .

والفاطميون أجمع يخلعون على أئمتهم بعض صفات الله سبحانه :

يقول ابن هانئ للمعز لدين الله وهو خليفة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　　فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول المعز لدين الله إذ مات ابن هانئ سنة ٣٦٣ : (هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق) .

ويقول آخر عن الخليفة :

بشر فى العين إلا أنه　　　عن طريق العقل نورٌ وهدى
جل أن تدركه أعيننا　　　وتعالى أن نراه جسداً

ويشير ثالث إلى الخليفة فيقول :

هذا أمير المؤمنين بمجلس　　　أبصرت فيه العقل والتنزيلا
وإذا تمثل راكباً فى مجلس　　　عاينت تحت ركابه جبريلا

ويمدح الأمير تميم بن معد أخاه الخليفة العزيز فيقول فيه :

مضى من العلة الأولى التى سبقت　　　خلق الهيولى وبسط الأرض والمطر

---

(١) المؤرخون مختلفون فى صحة نسب الفاطميين وفى سنة ٤٠٦ حرر صاحب الموصل – وكان تابعا للخلافة العباسية – محضراً ببطلان نسبهم وقع عليهم جماعة من أهل البيت يتصدرهم الشريفان الرضى والمرتضى وهما من نسل الإمام الكاظم ، وعظماء من علماء الإمامية وقاضى القضاة ابن الأكفانى، وفقهاء عظماء من جميع المذاهب فيهم الإسفرايينى والقدورى وأبو عبد الله البيضاوى.

دعا الحسن بن الصباح لنزار واستقل بفرقته عن الفاطميين بمصر ، وأقام مجتمعاً إسماعيليًّا فى شمالىّ إيران ، وفرقة إرهابية سرية أفزعت الخلفاء والأمراء ، وروعت العلماء ، فمن قتلاها فى القرن الخامس الوزير السلجوقى الكبير « نظام الملك » وعلماء المدرسة النظامية .

وفى القرن السادس ولّى بعضهم فراراً من السلاجقة إلى الشام ، وشادوا قلاعاً لهم فى حماة وطرابلس . وحالفوا الصليبيين على المسلمين ، والمسلمين على الصليبيين . فقتلوا فى سنة ٥١٩ أمير طرابلس الصليبى Raymond ، ودخلوا معسكر صلاح الدين وهو يعد للمعركة مع الصليبيين ، فطعنوه بخناجرهم .

وفى القرن السابع اكتسح هولاكو معاقلهم فى إيران فتشتتوا .

والمؤرخون الفرنجة يطلقون عليهم لفظ الحشاشين Assassins من تعاطى الحشيش المخدر أو من لفظ القتلة الذى تعنيه الكلمة باللغة الفرنسية .

أما أوصاف أهل السنة لهم فهى : الملحدة والمزدكية أو التعليمية أو الباطنية .

وفيهم يقول الغزالى (٥٠٥) فى كتابه (فضائح الباطنية) :

(مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر لمدارك العلوم فى الإمام المعصوم . وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات . . . هذا مبتدأ دعوتهم ؛ ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع . والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها واستنكار الشرائع إلا أنهم أجمع ينكرون ذلك إذا نسب إليهم) .

ولو امتدت به العمر لرأى آثارهم فى فكر المتصوفة الفلاسفة أبلج كأضواء النهار .

فمن بعد موت الحسن بن الصباح استحدث واحد ممن خلفوه فى القرن السادس (الحسن بن محمد بن بزرك) ما سماه « عيد القيام » [(١)] – وعيد القيامة من أعياد المسيحية – وغير أتباع الحسن الأصول الشرعية والعقائد الدينية . وقرروا تحليل المحارم ونفى الفرائض تأويلا منهم للشريعة فى خدمة الإمام (السلطان) :

فشهادة التوحيد – وهى أساس الدين – معناها – عندهم معرفة الله عن طريق الإمام ! أما الصلاة فمعناها ألا يغفل المرء أبداً عن طاعة الله ورسوله وخليفته (أى الإمام) . وأما الصوم فهو أن ينذر أعضاء جسده فى الظاهر والباطن لأمر الله الذى يمثله الإمام !

وأما الزكاة فهى أن يعطى المرء كل ما وهب الله له من مال لبيت مال الإمام ، أو يهبه – بأمر

---

(١) أقام الحسن فى ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ قبلة مغايرة لقبلة المسلمين ، ونصب إليها أعلاما أربعة لكل منها لون أبيض أو أصفر أو أحمر أو أخضر ، وأعلن أن رسولا جاءه من عند الإمام المستتر يخبره أن الإمام رفع عنهم إصر الشريعة ورسومها ، فصار اليوم عندهم يوم عيد سموه « عيد القيام » وسكروا وتهتكوا وأعلنوه ممثلا للإمام .

الإمام– لأخ مؤمن !

وأما الجهاد فهو جهاد النفس والقضاء على هواها !

وأما الحج عندهم فأن تحفظ يدك عن الدنيا الفانية وتطلب الدار الباقية !

وأخيرًا فالطهارة التى تسبق الصلاة هى التطهر من فعل أهل الظاهر : أى التجاوز عن قواعد أهل السنة . والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام ؛ لأن الماء هو الحقيقة !

وعلى الجملة جعلوا الإمام هو الوسيلة بين الله والبشر وجعلوه لازمة من لوازم الوجود ، ووضعوا أركان الدين كلها فى قبضته بالتأويل الرمزى .

وقد قتل الحسن سنة ٥٥٩ وخلفه ابنه محمد ، فتابع أباه حتى مات سنة ٦٠٧ .

ثم خلفه ابنه جلال الدين حسن ، فأعاد الناس إلى الجادة . وأبى جيرانه أهل قزوين أن يعترفوا بإسلامه إلا أن يلعن صنيع أبيه وجده . فكتب ورقة جاء فيها : (ملأ الله قبورهم نارًا) وأراد أن يصهر إلى أهل أذربيجان فأبوا إلا أن يشهد خليفة بغداد بإسلامه . فشهد ، واشتهر جلال الدين فى قومه بأنه المسلم الجديد (نيو مسلمان) وخلفه ابنه علاء الدين سنة ٦١٨ ، وخلفه خلف من أهله حتى دمر هولاكو دولتهم سنة ٦٥٤ .

التصوف الفلسفى :

فإذا انتقلنا من عالم الشيعة الغلاة إلى عالم التصوف الفلسفى فنحن لا نبعد ، فالولى عند هؤلاء الصوفية يقابل الإمام عند الشيعة . وللولى العصمة ، ولكل ظاهر باطن . وبالباطن يستأثر الولى ، بل قد يزداد الصوفية فى الغلواء ، فيرفعون الولى على الرسول فى الدرجة زاعمين أنه يتصل بالله بغير وسيلة الملائكة أو لحلول ذات الله فيه ، وقد يرفعون عنه التكليف وينسبون إليه علم الغيب ! ولا يقفون فى التأويل عند حدود .

يروى الشهرستانى عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إمام الشيعة : (إن لكل ظاهر باطناً ولكل شخص روحاً ولكل تنزيل (تأويلا) ، ولكل مقال فى العالم حقيقة . والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى . وهو العلم الذى استأثر به على عليه السلام ، ثم ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السر إلى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقًّا) .

ويقول ابن عربى : (٦٣٨) : إن النبى ليس أعلى من الولى إلا فى نظر أهل الظاهر– أهل الشريعة– أما من اقترنت عنده حالة أخرى تقتضيها مرتبة النبوة فيعلم أن الولاية هى (علو رتبة باقية – وهى المرتبة الباقية على الأنبياء والرسل التى ليست بمحل للشرع) فالرسول جاءنا بالشرع

أما علم الأولياء فيجيئهم من الله مباشرة بالتجلى والمشاهدة وما فى النبى من ولاية يرجع فقط إلى قدر نصيبه من هذا العلم . والولاية يتعلق حكمها بالله تعالى ولها الدوام فى الدنيا والآخرة ، والرسالة يتعلق حكمها بالخلق وينقطع بزوال التكليف .

والفناء هو إهلاك النفس ليصعد الفانى إلى الملأ الأعلى ويلحق بالعقول المجردة . وهـذا هو طريق إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه لم يذبح شاة ، وإنما ذبح بشرية نفسه وحيوانيتها ؛ فالأولياء – بتعبير ابن عربى – هم (المستغرقون فى عين الهوية الأحدية بفناء الأنية) وهم (متصلون بالمبادئ الروحانية كالعقل وما يليه) وهم (الذين آمنوا الإيمان البقينى ، وكانوا يتقون حجب صفات النفس ومواقع الكشف) .

وعندما يفنى الولى فى الله (لا يكون تصرفه صادرًا عن عقل واع ، وإنما هى النفس الكلية المتحدة تتصرف وتصدر عن المثل الأعلى) .

والعارف إذا بلغ مقام الولاية فليس تصرفه إلا جبرًا واضطرارًا ، لأن الفناء فى (هوية الأحدية) قد سلبه حرية الاختيار والتصرف .

وكانت كتب الحكيم الترمذى عن الولاية وخاتم الأولياء بين يدى ابن عربى وهو يكتب ماكتبه ، وإن كان قد تمادى فجمع لنفسه (كادر) الأولياء كله .

وهو القائل : إنه اجتمع هو (ورجل من المغرب فيه خاتم الولاية بمدينة فاس ، وإنه التقى هو والأبدال السبعة فى مكان خلف حطيم الحنابلة بمكة ، وإنه شهد الأقطاب وعددهم ٢٥ قطباً فى مشهد أقدس فى حضرة برزخية بمدينة قرطبة) .

ثم تمادى فرأى نفسه خاتم الأولياء :

قال : (أما الولاية المحمدية وختمها فلرجل من العرب) وقال فى (الفتوحات) المكية : (وهو فى زماننا اليوم موجود ورأيت العلامة التى قد أخفاها الحق عن عيون عباده) ثم قال فى عنقاء مغرب : (فإنى أنا الختم . لا ولى بعدى . ولا حامل لعهدى . بفقدى تذهب الدول وتلتحق الأخريات بالأول) [1].

---

(١) ولد محمد بن على بن أحمد بن عبد الله (ابن عربى) بمرسية سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق سنة ٥٩٨ واستقر بالشام ومكن له الأسباب اتصاله بالملوك . فملك قونية فى الأناضول وهو مسلم يلقبه بالوالد . وملك الروم كيكاءوس (٦٠٩) يكتب إليه يستنصحه . ويزور الملك فيقول الملك لجلسائه : هذا رجل تذل له الأسود ، وأمر له الملك بمائة ألف درهم ، فتركها ورحل عائداً إلى دمشق حيث مات ودفن .

وعندما غزا الأتراك الشام بنى له السلطان سليم قبة وقد همّ المصريون بقتله عندما زار مصر .

ومن العلماء من يكفرونه كالسخاوى والسعد التفتازانى ومثلاً على القارى وابن دقيق العيد وأبى حيان وابن حجر العسقلانى (٨٥٢) وابن تيمية (٧٢٨) وابن خلدون (٨٠٩) .

وأصحاب الطرق الصوفية بغير استثناء يضعون عليا رضى الله عنه فى قمة النظام الصوفى وهم فى التعلق به أو التشيع سواء :

الحسن البصرى (١١٠) يسمى عليا (ربانىّ هذه الأمة) ومعروف الكرخى (٢٠٢) نصرانى أسلم على يد الإمام على الرضا إمام الشيعة . والحكيم الترمذى (٢٩٦) يكتب مائة وخمساً وخمسين مسألة تنبئ عن تشيعه : فالمسألة الخمسون هى (أهل بيتى أمان لأمتى) والواحدة والخمسون بعد المائة (آل محمد) ولما كبست أوراق الحلاج (٣٠٩) وجدت عنده صورة فيها اسم الله وفى داخل الكتابة تعويج مكتوب فيه (على عليه السلام) . والجيلى (٥٦٠) صاحب الطريقة من نسل الإمام على والرفاعى [1] (٥٧٠) علوى .

وابن عربى يقول عن تفسير قوله تعالى (عن النبأ العظيم) (إنه هو القيامة الكبرى ؛ ولذلك قيل عن أمير المؤمنين على هو النبأ العظيم) . .

وأحمد البدوى (٦٣٨) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦) وإبراهيم الدسوقى (٦٧٦) كمثلهم فى التعلق ، والشعرانى (٩٧٣) كذلك ، وهو يروى عن (الولى على وفا) قوله : (إن على بن أبى طالب رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما ينزل عيسى) !

* * *

ولئن رأى المستشرقون تشابهًا بين غلواء الاتجاهات الشيعية والصوفية وبين بعض العقائد أو النظريات أو طريقة الحياة فى المجتمع الفارسى ، أو بين بعض ضروب التزهد أو التعبد الهندى — إن كثيرين يرون وشيجة جامعة بين استمداد العلم من الله مباشرة كما يزعم الشيعة للإمام والصوفية

= وكتب إبراهيم البقاعى كتابين ضده أحدهما (تنبيه الغبى على كفر ابن عربى) والآخر (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإلحاد) .

أما السيوطى فكتب دفاعا عنه (تنبيه الغبى فى تبرئة ابن عربى) .

وكتب عبد الوهاب الشعرانى كتابا فى الدفاع عنه أسماه (الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر) و (كتاب اليواقيت والجواهر فى بيان عقيدة الأكابر) دار أكبر اهتمامه فيه حول ابن عربى .

أما الفخر الرازى والقاشانى وغيرهم كثيرون فلم يكفروه . وآخرون كالحصكفى من كبار الفقهاء يرون أنه كان يتعاطى الحشيش المخدر فأثر عليه .

وبعض يرى التجاوز عما يقوله لأنه يقوله وهو فى حالات غيبوبة عن الواقع . وهو نفسه يقول عن تأليفه (إن تأليفنا هذا وغيره لايجرى مجرى التأليف ، ولانجرى فيه مجرى المؤلفين ، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره . . . ونحن فى تأليفنا هذا لسنا كذلك . إنما هى قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية ، مراقبة لمايفتح لها الباب . فقيرة خالية من كل علم لوسئلت فى ذلك المقام عن شىء ماسمعت لفقدها إحساسها ، مهما برز لها من وراء ذلك الستر بادرت لامتثاله وألفته على حسب ماحُدّ لها فى الأمر) .

(١) إليه تنسب الطريقة الرفاعية . وهم قوم يذكرون الله لكن فيهم منحرفين يطعنون أنفسهم بالمدى ، ويأكلون النار والأفاعى . ليبرهنوا للناس على أن النفس بيد الله تصبح فى غيبة تفارق البدن فلا يمسها الألم .

للولى ، وبين مزج الإلهام الروحى بالنظر العقلى عند الإغريق . وهى الأفلاطونية المحدثة كما صاغها أفلوطين . وقد عرفها المسلمون من ترجمة قام بها عبد المسيح بن ناعمة الحمصى وسموا أصحابها مدرسة الإسكندرانيين. كما سمى الشهرستانى أفلوطين (الشيخ اليونانى) ، ونقلها المتصوفة حيث قالوا : إن الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر ولكن بالمشاهدة فى حالة الغيبة عن النفس وعن العالم الأرضى .

وما هى إلا كلمات (الشيخ اليونانى) :

(لنعتزل العالم الخارجى ، ونتوجه إلى داخل أنفسنا ونجهل كل شىء حتى كوننا نحن الذين نتأمل ؛ فمن داخل النفس واتصالها بالملأ الأعلى تكتسب المعارف الحق) .

والمعرفة باليونانية Gnosis غنوص ، وهى كلمة تطلق منذ القدم على المعارف التى تكتشف بالحدس الناشئ عن اتصال العارف بالمعروف عن غير طريق البرهنة والاستدلال أى الطريق العلمى . والعرب يستعملون لفظ الغنوص ليعبروا عن المعنى اليونانى .

يقول ابن عربى : (إن للعلم الإلهى ثلاث طرق هى الذوق والكشف وهى طريق العلم الكامل ، ثم البحث والنظر ، ثم الإخبار الذى خص به الأنبياء) ثم يقول : (والإخبار أيضًا يقصر عن إدراك ما لا ينال إلا بالذوق) .

والسهروردى صاحب عوارف المعارف يعترف بأن بعض نظريات المتصوفة وهى الصفاء للوصول إلى الله مأخوذة من الفلسفة الإغريقية وبأن الوحدة والحلول لها جذور فى المجتمع الفارسى قبل ظهور الإسلام .

يقول : (خميرة الفيثاغوريين وقعت إلى أخى أخميم[1]، ومنه نزلت إلى سيار تستر وشيعته . أمّا خميرة الخسروانيين فهى نازلة إلى سيار بسطام. ومن بعده إلى فتى بيضاء. ومن بعده إلى سيار آمل) .

وأخو أخميم هو ذو النون المصرى ، وسيار بسطام هو أبو يزيد . وفتى بيضاء هو الحلاج . وسيار آمل هو أبو الحسن الخراقانى (٤٢٩) .

---

(١) كانت فى دير أخميم من صعيد مصر (محافظة سوهاج الآن) مدرسة عظيمة نبه فيها أفلوطين وزوسيموس والأخير قد ذكره الرازى الطبيب فى القرنين الرابع والخامس الهجريين مما يشير إلى انتفاع العلماء الإسلاميين بكتب هذه المدرسة التى تحويها الأديرة المصرية وتيارها يصب فى مدرسة الإسكندرية. وذو النون من أوائل الذين فلسفوا الصوفية ، وله نظريتان فى المعرفة والمحبة تضاهئان نظريات الأقدمين ، فالمعرفة عنده معرفة عامة المؤمنين أو معرفة الخاصة من المتكلمين والحكماء ، ثم معرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم ، وهى أرقاها وأوفرها حظا من اليقين .

ولما سئل عن كيفية معرفته بربه قال : (عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى) والمحبة عنده تيار متبادل بين العبد وربه يشعر فيه العبد باستغراق ذاته فى ذات الله . وهذا هو الحب الإلهى الذى يجب على من تحقق به ألا يتحدث عنه .

وأثر النظريتين ظاهر فى التسترى والنخشبى وأبى عبد الله الجلاء وأبى سعيد الخراز (٢٧٧) وآخرين .

والباطنية من الشيعة يوسعون مدى الغنوصية لتشمل الأئمة وكبار الدعاة .
والمتصوفة أمثالهم يجعلون الأولياء مجعل الأئمة ويرتبونهم رتباً وأنساقاً ، من أدنى لأعلى :
« فالصالحون » كثيرون ليخالطوا العوام . و« النجباء » قليل ثم « الأبدال » أقل .
وكل من الأبدال منفرد بقطر من الأقطار وقد يوجد اثنان فى قطر .
وأما « الأوتاد » فواحد فى اليمن وثان فى الشام وثالث فى المشرق والرابع فى المغرب .
وأما « القطب » فواحد يديره الله دوران الفلك فى السماء وهو « الغوث » : « يُرى عالماً كجاهل ، أبله كفطن ، تاركاً آخذاً ، قريباً بعيداً ، سهلاً عسراً ، آمناً حذراً ! » .

وما دام الغوث عالماً كجاهل ، أبله كفطن – فلا بدع أن يكون لسائر الصوفية شطحات أوهمهات ، وأن يعيرها أتباعهم أسماعهم . يستقصون فى كل هينمة معنى ، وفى كل همهمةٍ مضموناً ؛ فلعل ثمة العلم اللدنى !

وفى القرن الرابع يحدد الكتانى (٣٢٢) العدد فيستكثر ، ويستحدث درجات أخَر . ويعين مقار العمل ويعين العمل : (فالغوث واحد ، والعمد أربعة ، والأحبار سبعة ، والأبدال أربعون ، والنجباء سبعون ، والنقباء ثلثمائة ، والنقباء بالمغرب ، والنجباء بمصر ، والأبدال بالشام ، والأحبار سيّاحون فى الأرض . والعمد فى زوايا الأرض . والغوث بمكة . فلا يتم الغوث الدعاء حتى تجاب الدعوة) .

* * *

ولئن نجح غلاة الشيعة هنا أوهناك زماناً ، أو أفلح المعتدلون منهم فى نشر المذاهب العلمية وإقامة دول حملت رايات الإسلام فى أرجاء العالم ، إن أثر الغلو الصوفى فى سلوك الجماعات كان مثبطاً ، بما فيه من تخليط يؤثر السلبية على الإيجابية ، أى العمل ؛ والمجهول على المعلوم ، والباطن على الظاهر ، والإدهان للحكام على النصح لهم ، أوتحمل تبعات الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإذا كان من صلحاء الصوفية من عرفهم سهل بن عبد الله التسترى (الصوفى من صفا من ضغائن الكدر وخلا من الفكر ، وانقطع عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر) فيجعلون الاعتزال والانقطاع عن العمل منتهى همتهم ، إن العامة عظم الأمة لا تقدر على أن تنقطع عن العمل أو يستوى عندها الذهب والحصى . أما الخاصة فأعجل إلى الدنيا من العامة ، ومن نصحاء المتصوفة ومن واجب الجميع عمارة الدنيا .

هكذا تخلف من التراث الصوفى طقوس عزلة وانقطاع وتسلب ، ومقولات أغرقت الأتباع فى بحار غريبة الأغوار من عليم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وسال مداد كثير من الكلام عن

علم القلوب فى مقابل علم الفقه ، والباطن فى مقابل الظاهر ، أو الحقيقة فى مقابل الشريعة ، فجعلوا القلوب والبواطن والحقائق خصيصتهم ، أما علم الفقه الذى يتداول أحكام الشريعة فهو علم أهل الظاهر .

الأولياء :

وبعد : لمن هم « الأولياء » الذين ورد فيهم قول الله جل ثناؤه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) ؟

لقد ورد لفظ الولى فى تسعين موضعاً بالقرآن ومنها أولياء الله وأولياء الشيطان . وكذلك ورد اللفظ فى السنة . وما دام قد ورد النص فى الكتاب والسنة فيتعين البحث عن معناه فيهما ، والحق أن المنقول والمعقول قد وضحا المعنى كل توضيح .

أما المنقول :

فالإمام الطبرى (٣١٠) – كبير المفسرين بالمأثور – يفسر الأولياء بأنهم أنصار الله الذين وصفهم بقوله : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

والفخر الرازى (٦٠٦) – كبير المتكلمين – يرى أن القرآن والسنة والآثار قد حددت التعريف بهم . ففى القرآن أنهم هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ، وفى السنة رواية عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : (إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله خبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم لذلك ؛ قال : هم قوم تحابوا فى الله بروح الله ، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وأما المعقول :

فالولى معناه القريب بالاستغراق فى معرفة الله والإيمان بقدرته والثناء عليه وطاعته .

وليس القرب قرب مكان ؛ فهذا تجسيد .

وهو يحصل من الجانبين . والله يقول : (الله ولى الذين آمنوا) .

والمتكلمون يقولون : إن « ولى الله من أتى بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، بالعمل الصحيح ، الموافق للشريعة .

فهذه كل طرائق العلم مجمعة على أن الأولياء كما قال تعالى هم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

لكن الصوفية يعلقون كثيراً على حديث الولى :

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : (قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال من عادى لى وليًّا

فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنّه) .

والمتفلسفون منهم يرتبون على الحديث اتحاد ذات الله تبارك وتعالى مع ذات الولىّ . والحشويون يتصورون ذات الله كذوات الناس لها عين وأذن ويد ورجل : والحشويون يعيشون بين الجماهير ، والمتفلسفون يسقون الناس شراب الكفر فى آنية الأنبياء كما يقول ابن تيمية .

ولو استعمل الفريقان فى التفسير منهج السلف لفهموا المقصود كما فهمه رسول الله وصحبه وتابعوهم بإحسان . وهى الأجيال الثلاثة التى فضلها رسول الله واختارها الله تعالى ليبذر بها وتنمو فيها بذرة التوحيد فى الوجود .

ولو استعملوا منهج الآخرين لأيقنوا أن المقصود رحمة الله وتأييده .

ولو استعملوا فقه المسلمين فى الإيمان لرأوا أن أداء الفريضة هو المؤهل للقرب ، وأن إضافة النوافل درجة فضل .

فالحديث بنصه وفحواه يهدم كل تفسير باطنى يغاير المعنى الجلى للسان العربى الذى ورد به النص .

الكرامات :

يقول القشيرى (٣٧٦ – ٤٦٥) : إنه ما دامت الولاية مرتبطة بفضل الله وتوفيقه فالأصل أن الولاية لله (يورد الأرواح مورد المكاشفة بأنوار المشاهدة فيفنون عن الإحساس بالنفس ، ويورد الأسرار ساحات التوحيد ، وعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس ولا قلب ولا أنس بل استهلاك فى الصمدية وفناء بالكلية) .

ويرى القشيرى جواز أن تكون للولى كرامات. وهو القائل «قبر معروف (الكرخى) ترياق مجرب» .

وابن حزم إمام أهل الظاهر (٣٨٤ – ٤٥٦) باقِعَةُ عصره فى الفقه والأدب ولغة العرب ، معاصر للقشيرى ، ينكر أن تكون للأولياء كرامات بمعنى الخوارق وكمثله الإسفراييني (٤١٨ هـ – ١٠٢٧ م) معلم القشيرى فى الفقه [1] يقول :

(المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد لغير نبى ، وللأولياء كرامات شبه

---

(١) الإسفراييني هو أحد الذين بنى لهم الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التى تعلم فيها القشيرى والغزالى وإمام الحرمين وغيرهم من عظماء العلماء .

إجابة الدعاء ، أما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا) .

وابن فورك أستاذ آخر للقشيرى يقول : (المعجزات يؤمر الأنبياء بإظهارها ، أما الكرامات فالأنبياء مأمورون بسترها وإخفائها) .

وجملة الأمر عند أهل السنة أن (كل خارقة تحدث يتعين عرضها على الشريعة : فإن ساغت قبلت) .

فالكرامة الحقيقية للولى ليست فى الفناء فى ذات الله وحلول الله فى الولى ؛ فهذا يناقض أصل الإسلام وهو التوحيد الخالص ؛ وإنما الكرامة هى الكرامة المعنوية وحدها ، وقد لا يدركها من وقعت له وإنما (تظهر فى رقيه الروحى فى مدارج السلوك إلى الله) .

وإبراهيم بن أدهم (١٦١) يقول : (الأخيار الأبرار يغضب الله لغضبهم ويرضى لرضائهم) .

وسهل التسترى (٢٨٣) يقول : (أكبرالكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك) .

ولما قال له قائل صوفى : ربما أتوضأ فيسيل الماء بين يدىّ قضبان ذهب وفضة أجاب سهل : (أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة لينشغلوا بها ؟) .

وقيل لأبى محمد عبد الله المرتعش (٣٢٨) : إن فلاناً يمشى فى الهواء فأجاب : (عندى : إن مكنه الله تعالى من مخالفة هواه أعظم من المشى فى الهواء) .

الإسلام إيجابى :

والولى فى نصوص القرآن والحديث شخصية إيجابية كما يتجلى من أحاديث عمر والنعمان بن بشير وغيرهما . ولا مراء فى أن من كبار الأولياء صحابة النبى . ومنهم الذين هاجروا والذين نصروا والذين جاهدوا والذين بشرهم الله ورسوله بأن لهم الجنة . لم يتماوت واحد منهم تماوت المتصوفين أو الحشويين ولم « يفن » واحد منهم عن نفسه فناء المتفلسفين أو يدع الغيب أو يزعمه له المرجفون . أو يلبس خرقة المتصوفة أو يرتفع له صوت عند الذكر بالغناء أو« بالتغبير» أو اصطناع الهيئات أو الانطواء فى تكية .

شتان ما حال الصحابة ومقامهم وأحوال غلاة الصوفية !

الأولون فى جهاد واجتهاد والآخرون مبدّعون أو متقعدون أو مغربون . ومنهم من يصف أمرهم صوفىّ سئل عن مشايخه كيف كان يجدهم وقت السماع ؟ فأجاب : (مثل قطيع الغنم إذا وقع فى وسطه الذئاب !) .

وشتان بين ما جوع النبى وصحبه إذا لم يجدوا طعامهم ، والتجويع والتعرية اللذين يقول عنهما أبويزيد البسطامى (٢٦١) : إنه وجد المعرفة (ببطن جائع وبدن عريان) ، ويقول آخر : (أكل

درهم من اللحم يقسّى القلب أربعين صباحاً) .

ورسول الله ﷺ يقول : (من أصابه جهد فى رمضان فلم يفطر فمات دخل النار) ويقول : (إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده فى مأكله ومشربه) وكان عليه الصلاة والسلام يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة . وهو القائل : (نفسك راحلتك فارفق بها حتى تبلغ الثرى) .

والقائل : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

وكان الحسن البصرى يشترى كل يوم لحماً .

ويضيف ابن الجوزى حكم الفقه إذ يعوّق التجويع العبادة فيتساءل : (أى قربة فى هذا الجوع المعطل للعبادة ؟ فالمرء إذا كان يتقوى على الصلاة بالطعام يلحق الطعام بالعبادة لأنه يعين عليها) .

يروى السهروردى (٦٣٨) أن التزويج عند الصوفية انحطاط من العزيمة إلى الرخصة . وأبو سليمان الدارانى يقول : (ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته) ، والشعرانى يروى قولاً لرباح بن عمرو القيسى (لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، وأولاده كأنهم أيتام ؛ ويأوى إلى منازل الكلاب) .

شتان ما هذه الأقوال وقول رسول الله ﷺ : (أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأصلى ، وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

والزواج يحتمل الأحكام الخمسة [1] . والرهبنة من طقوس المسيحية ، وتعطيل للمسلمين ، وتقليل للصالحين ، ومنع للإحصان ، وتعذيب للفطرة ، وإضعاف عن العمل فى الدنيا للآخرة .

وابن عطاء السكندرى (٧٠٧) صاحب الحكم يرى الخلوة من المجاهدات التى تهيئ النفس (لأحوال الوجد والفناء والمعرفة) ، وذو النون يقول : (لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من العزلة) ، والقشيرى يقول : (لا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق) .

وفى هؤلاء يقول ابن الجوزى (٥٩٧) : إن ذلك المعتزل (لا يتعدى نفعه عتبة بابه والعالم نفعه متعد . وكم قد رد إلى الصواب من متعبد) .

شتان ما يدعو هؤلاء له الأمة وما يدعوله رسول الله أمته .

قال أبو أمامة (خرجنا مع رسول الله ﷺ فمر رجل بغار فيه شىء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا ، وذكر ذلك للنبى ﷺ فقال

---

(١) الزواج فرض إذا قدر الرجل على المهر والنفقة وواجبات الزوجة عليه وتيقن أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو واجب إذا قدر على كل ذلك وخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مندوب إذا قدر على كل ذلك وكان فى حالة اعتدال لا يخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مكروه تحريما إذا خاف ولم يتيقن أنه يظلم زوجته إذا تزوج ، وهو محرم إذا تيقن أنه إذا تزوج يظلم زوجته ولا يقوم بواجبات الزوجية .

له : (إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ، والذى نفس محمد بيده لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها. ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة) .

والاعتزال وعدم العمل وعيش المرء من كسب غيره وانتظار رزق لا يسعى المرء له – كفر لنعمة العافية وللخلافة الإنسان فى أرض الله .

وشتان ما هؤلاء الذين يتراصفون فى التكايا نياماً وقعوداً والذين يتراصون فى الصفوف للزحوف .

* * *

وابن خلدون (٨٠٨) قاض يقدر على الفصل فى النزاع. ومؤرخ يدرك روح التاريخ ، فيعلن حاجة القرن التاسع الذى عاش فيه ، بل حاجة كل القرون ، إلى العودة إلى الأمر الأول بمزيد من الدراسة للرسالة والسيرة والسنة . ويكرر وصية أشياخه له لتكون وصية للأمة منه بالترياق الحقيقى الذى يفلح به كل مصلح . وهو فهم سنة الرسول والعمل بها . فيقول :

(ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون : « شرح كتاب البخارى دين على الأمة » يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار)[1] .

ويقول عن علم الحقائق : (إن هذا العلم – كما رأيته – غير واف بمقاصدهم التى حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها) . ثم يقول عن الصوفية الفلسفية : (أما علومها الطبيعية وما يستعمله أصحابها من البراهين فليكن الناظر فيها متحرزاً من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبنَّ أحد عليها وهو خال من علوم الله) .

أما آراء المحدِّثين والفقهاء فقد سبق بها ابن الصلاح (٥٧٧ – ٦٤٣ هـ) – (١١٨٩ – ١٢٤٥ م) حيث قال : (الفلسفة أساس السفه والانحلال) .

ولم ترع الجماهير سمعها فى حياة ابن الصلاح لمن أنبهوها على الانحلال ، بل أتاحت للمتفلسفين المتصوفين البحبحة والتمكن بذيوع مقولات ابن عربى (٦٣٨) وعبد الحق بن سبعين (٦٦٧) وعمر بن الفارض (٦٣٢) وكان به سكر من الحب الإلهى . وشتان ما شعره وشعر رابعة العدوية ؛ فهذا شعر القرن الثانى للهجرة وذاك شعر عصر ابن عربى .

---

(١) إذا عرفنا أن للبخارى اثنين وثمانين شرحا ولمسلم خمسة عشر (وهذان هما الصحيحان) بخلاف سائر شروح كتب السنن الكثيرة أمكننا أن نقرر أن المطلوب مزيد من الشروح فى كل عصر ، ليفهم الناس خلود الشريعة وسموها وليدركوا مبلغ ماتسعفهم فى دنياهم فى كل عصر ومصر.

وعصر ابن عربى هو الذى نزل فيه الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ وردهم المصريون سنة ٦١٨ ، فكروا كرة أخرى فى سنة ٦٤٧ فأسر الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) ثم أفرج عنه بفدية .

وعصر ابن عربى هو الذى دخل فيه هولاكو بغداد فى صفر سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) واحتل الشام بعدها بأشهر . ولم يرد جيوشه عن سائر بلاد الإسلام إلا هزيمته فى عين جالوت فى رمضان سنة ٦٥٨ = سبتمبر سنة ١٢٦٠ .

* * *

فى عصور التخلف هذه يقتصر الفقهاء على التقليد ، وينتقل تقليدهم إلى العامة فيصير إيماناً بهم ، وطاعةً كلها العبادة لهم . ويخضع الجهلاء لأضاليل المتفلسفين فى أى فن فيعبدون أشخاصهم وأفكارهم .

ويوم يعبد الناس غيرهم يكونون عباد أصنام ، وعبدة الأصنام أدنى من معبوداتهم .

والناس أعجل فى الخضوع فى أيام المقاحط والمحن العامة والخاصة ، كمثل تعلق المرضى بوهم والغرقى بقشة . والغرقى بسراب .

وكلما طالت عصور التخلف والضعف استحكمت البدع ونفقت سوق الدجاجلة بدعوى العلم اللدنى لديهم أو لدى غيرهم ، يحشدون لها الأدوات من الأشخاص والأشياء لتصديقهم .

وكثيراً ما استرعت عبادة بعض الناس أنظار العامة فنسبت إليهم ما لا يدعونه . ومن فلاسفة التصوف أنضاء عبادة نسب إليهم الناس أكثر مما تصوروه : أو تجاوزوا عن غلوائهم من أجل تقواهم .

والناس من شهواتهم الدنية أو حاجاتهم الدنيوية أو حالاتهم المرضية يستبدلون الأمانى بالحقائق والأخيلة بالواقع . فيكفرون وفق شهواتهم .

وليس عجيباً أن ينعكس سلوك الرعية على أفهام أولى الأمر ، علماء وحكاماً ، إذ تصبح البدع تقاليد للجماعة يعز الخروج عليها إلا من المقتدر . والحكام أحوج إلى الجماهير ومجاراتها إذا لم يكونوا منها ، ليبسر عليهم أن يستسخروها ، أو يسخروا منها .

* * *

هكذا تمسى الجماعة صورة مهزوزة أو خيال ظل شائه الأصل ، تكتنفه الأوهام من كل جانب ، فتمشى مشى المسحور فى برزخ لا هو الخيال ولا هو الحقيقة . وتزداد الفرجة بين عقيدة الأمة وسلوكها ، فلا يكاد يصلها بالعقيدة إلا الاسم ، أو يبقى من العمل بالدين إلا التزام الطقوس . ومن السعى الواجب للحياة الكريمة إلا القناعة بأدنى الجهد . ثم لا تجد الجماعة فى علمائها غنية ، أن

لم يبق فيهم قدوة ، فتؤثر الحياة المتاحة لها من الحرام أو الحلال . وتنكبّ على وجهها فى تراث الوثنية ، تدليها الغرائز ، وحاجات العيش من يوم ليوم ، وتتعاورها الرذائل ، وتسرى المعاصى سريان النار فى أمتعة بالية .

والمعصية شجرة تنبت حولها أمثالها ، ومن عقوبة السيئة ما تنبته من سيئة مثلها . فتشيع الفاحشة . ولا تقتصر الفتنة على الذين ظلموا خاصة .

وهذه حال نبه عليها رسول الله ﷺ :

قالت عائشة : دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفَس ، فعرفت فى وجهه أن قد حفزه شىء . فما تكلم حتى توضأ وخرج ، فلصقت بالحجرة . وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعونى فلا أجيبكم وتستنصرونى فلا أنصركم وتسألونى فلا أعطيكم) .

ولم يشارف جيل الصحابة ختامه حتى سمعنا أنس بن مالك يقول للتابعين : «إنكم تعملون أعمالاً هى فى أعينكم أدق من الشعر ، وإن كنا نعدها فى عهد رسول الله من الموبقات» . وسمعنا الحسن البصرى (١١٠) يقول عن الرافهين المتجبرين : (إنهم — وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين — إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه) .

وفى عصر الحسن كان الناس يستمعون للنصحاء ويتذاكرون الواجب . حتى حكام بنى أمية روى عنهم الإمام أحمد فى المسند «وجد فى خزائن بنى أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة وهى فى صرة مكتوب عليها : (هذا كان ينبت فى زمن العدل) .

ثم تلاحقت أجيال من البدع تلاحق أجيال الناس فى نسيان الله . وهو القائل لهم سبحانه : (يأيها الّذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ؛ أولئك هم الفاسقون) .

وأول عقوبة للعصاة فساد أنفسهم وزوال نعم الله عليهم : يقول على بن أبى طالب : (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة) .

وفى المسند من حديث ثوبان قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) . ومن ثم يجوع الناس بذنوبهم ويأخذ الفساد فى الازدياد على حسب ما يُبعد الزمان من القرون الأولى :

لقد لعن الرسول الواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة . ولعن الخمر وشاربها وساقيها والمخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء

واللابسات لبسة الرجال ، والسحرة – والولاة الظلمة وآكل الربا والراشي والمرتشي والرائش [1] والمحلل والمحلل له وزوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

وأصبحت اللعنة عامة منذ أصبحت الجماعة تقبل ذلك كله ، ويعمل بعضها كثيراً منه ، دون إنكار عليه وربما مع الرضا عنه .

بل أصبح من الناس من يسجدون لغير الله سبحانه . ويطوفون بغير بيته المبارك . ويقبلون أحجاراً وقبوراً . ويستلمون أركانها ويحلفون بغير خالقهم ويمجدون صفاته . وغيرت البدع – مكفرات أو مضلّلات – وجه المجتمع فوجد فيه من يدعى ولاية الله ورفع التكليف عنه ومن تنسب إليه الكرامات وتطلب منه الشفاعات .

على هذا التيه الكريه من المعاصي ثار ابن تيمية . وقضى عليه الجهلاء – فى ثياب علماء – بالسجن مرة بعد أخرى ، من أجل إيمانه الصحيح ، لأنهم كانوا فى موضع الخصم والحكم .

(١) الرائش : السفير بين الراشي والمرتشي .

الفصل الثالث

العودة إلى المنهج السلفى

(المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح) .
ابن تيمية

ابن تيمية

فى تاريخ العظماء وحدة تتجلى فى الأشباه والنظائر من آثار العمل العظيم كلما تكرر. ومن هنا تشاكل ابن حنبل وابن تيمية وتشابه ابن تيمية وابن عبد الوهاب .

ومن الوحدة كانت كل كلمة تقال فى واحد من الثلاثة مقولة صالحة فى الآخرين . ولئن امتاز ابن عبد الوهاب بأنه أعاد الناس إلى «التوحيد» بالحرب . . إن ابن تيمية كان نخبة مدرسة ابن حنبل ، والقدوة لابن عبد الوهاب فى كل ما عمله أو علمه . جاء مجىء همسة من السماء فى أسماع أمة قال عنها شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق فى كتابه (فيلسوف العرب أو المعلم الثانى) : (كانت الدولة الإسلامية فى هم مما أصابها من أثر الخراب المغولى ، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب إلى إصلاح إسلامى بالرجوع إلى السنة التى كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله) .

ولد أحمد تقى الدين أبو العباس بن شهاب الدين عبد الحليم بحران وهاجر به أبوه أمام زحوف التتار إلى دمشق حيث صار أبوه شيخ المدرسة السكرية فى الحديث ، وبها كان سكنه حتى مات سنة ٦٨٢ ، وفى المدرسة تربى أحمد وأصبحت دمشق موطنه . فعاش فيها حتى مات سجيناً فى قلعتها سنة ٧٢٨ من أجل آرائه .

أما جده فالشيخ مجد الدين أبو البركات (٦٥٢) صاحب المؤلفات فى المذهب . ومنها كتاب «مسودة الأصول» التى زاد فيها ابنه ثم حفيده . فهى أول مؤلف جماعى فى الفقه الإسلامى لأسرة ألف فيها الجد والأب والحفيد – وهى – بعد – مدرسة زهد .

والورع معلم من معالم مذهب ابن حنبل . يقول ابن عقيل : (. . . فأما أصحاب أحمد فإنه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم إلا يخرجه ذلك إلى التعبد والنزاهة لغلبة الخير على القوم) .

وكان فى دمشق مدارس أخرى للحنابلة منها المدرسة العمرية التى أنشأها أبو عمر بن قدامة الأخ الأكبر لموفق الدين (صاحب المغنى والمقنع) وقد لازم عمر صلاح الدين فى حروبه .

ولموفق الدين أثر كبير فى فقه ابن تيمية .

وكان العصر عصر غارات التتار والصليبيين – والمسلمون بحاجة إلى شجاعة النفس بالجهاد ، وإعمال الفكر بالاجتهاد .

أما شجاعة النفس ففيها يقول أمير من أمراء دمشق :

قال لى الشيخ ابن تيمية يوم اللقاء وقد تراءى الجمعان : يا فلان ، أوقفنى موقف الموت ! قال فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم ، ثم قلت له : يا سيدى ، هذا موقف الموت وهذا هو العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة فدونك وما تريده . فرفع طرفه وشخص ببصره إلى السماء وحرك شفتيه طويلاً ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، ثم طال القتال والالتحام بيننا وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا أنفسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة ، وكان آخر النهار – فإذا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوت تحريضاً على القتال وتخويفاً للناس من الفرار ، فقلت يا سيدى قد فتح الله ونصر وهاهم أولاء التتار محصورون بهذا السفح ، وفى الغداة إن شاء الله يؤخذون عن آخرهم ؛ فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وحاربهم كذلك بالجبل حتى جلوا عنه وتم الفتح المبين .

وأما عن الفكر والاجتهاد فربما أحسن إجمال أمره قوله عن نفسه :

(ربما طالعت فى الآية نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم) . فبين هاتين النهايتين من البطولة والورع تمت واكتملت عقلية «مجاهد» . فى كل ميدان للإسلام فيه شأن ، وطريقة عالم يعمل قدر ما يعلم ، وما كان أعظم ما علم وأجل ما عمل .

* * *

يقول ابن دقيق العيد : إنه كان (رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء) ويقول ابن سيد الناس : (لم تَرعين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه) يخرج عن مذهبه الحنبلى ، ويخرج عند اللزوم على جميع المذاهب مادام يؤيده القرآن والسنة ، فإذا الأمة الإسلامية التى قاومه جهالها فى حياته من أجل بعض فتاواه – تهرع فى القرن الرابع عشر إلى هذه الفتاوى ذاتها لإصلاح حالها . فهو قد سبقها إلى العلم الصحيح والمصلحة الشرعية بقرون سبعة .

أما جهاده للنهى عن المنكر فكان مثلاً فريداً فى البأس ، يضربه عالم يسير إلى السجن باختياره مثنى وثلاث .

وأما عن العقيدة والفقه فقد أعاد إلى المذهب السلفى صولجانه . وأمست مؤلفاته – وهى نحو

خمسمائة – منهلاً للمجددين فى الفقه والإصلاح الدينى والاجتماعى فى كل عصر جاء بعده.

وكان كثير من فساد العقائد ناجماً عن ألاعيب أدعياء التصوف فى عصره وأضاليل الباطنية وعباد الأصنام و «هيئة المنتفعين» بها ، ممن يمدون بالأسباب إلى السلطان .

وهو عالم سلفى لا يرضى الدنية فى دينه . وعلى هذا طالت حربه لأصحاب البدع طول حياته .

وشجع شجاعة العالم الذى ترتجيه أمته فى محنتها .

شكا إليه رجل من ظلم الأمير له فنهد إلى الأمير مع المظلوم يطلب حقه .

قال الأمير متهكماً : كنت أريد أن أجىء إليك لأنك عابد زاهد .

قال ابن تيمية : (موسى كان خيراً منى وفرعون كان خيراً منك ، وكان موسى يجىء كل يوم إلى باب فرعون ثلاث مرات يعرض عليه الإيمان) .

وفى سنة ٦٩٩ والتتار يحيطون بدمشق دار على الخمارات مع أصحابه يغلقونها ويريقون محتوياتها ويعزرون أصحابها ، ويذكرون الناس أنهم فى حرب .

وفى سنة ٧٠٠ خف إلى مصر يستحث السلطان لإنقاذ الشام ، وخرج من دمشق إلى الجبال يحارب أعوان التتار على أبناء جنسهم .

وفى سنة ٧٠٢ كان فارس الحرب فى موقعة شقحب . وفى سنة ٧٠٤ خرج مع صحبه فأزالوا صخرةً كان الناس يقدمون لها النذور ، وفى سنة ٧٠٥ خرج مع السلطان يبددون الفرق الإسلامية التى كانت تتربص بالمسلمين الدوائر ، وحارب أكلة الثعابين ومقتحمى النيران من أصحاب الطرق . وراسل القساوسة يهدى للإسلام .

وفى سنة ٦٩٨ أصدر فتواه لأهل حماه فى الصفات التى وصف الله تعالى بها نفسه : إن علينا أن نؤمن بها كما نزلت بها عبارات القرآن والسنة دون تأويلها ، مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

والله تعالى يقول (ليس كمثله شىء) فإذا قال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) – فمعناها هو الذى أراده الله من صريح النص دون تجسيد لذاته . ولا تشبيه لها بخلقه . ولا للخلق بها ؛ ولهذا لم تحتج الصحابة إلى تأويل النص ؛ لأنهم فهموه مع رسول الله ﷺ كما يفهم القرآن . وفى ذلك قول مالك فى معنى (الرحمن على العرش استوى) «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة» وأمر من سأله من أحاديث الصفات بقوله :

(أمضِ الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار) .

وطالبه القضاة بالدفاع عن فتاواه فحضر ودافع .

ثم أعادوا الكرة فى سنة ٧٠٥ فاتهموه بأنه يقول : إن الله يجلس على العرش ويشار إليه بالإشارات الحسية : يقصدون أن الله يجلس كما يجلس الناس ، وأنه يتكلم بحرف وصوت .

وطلبه السلطان من دمشق إلى القاهرة فحضر ، ولم يأذن له القضاة بالدفاع . وسجنوه عاماً وبعض العام .

فلما خرج رفض العودة إلى دمشق ، وبقى فى القاهرة يعلم الناس ، ويكذب الحشوية المشبهين والمجسدين ، ويفند أكاذيب الكاذبين من أتباع بعض الطرق كمن يأكلون الثعابين ويدعون أن سمها لا يصيبهم ، أو يدخلون ناراً ويخرجون منها بسلام . واشتد على المتصوفة المتفلسفين كابن عربى وأقوالهم فى الوحدة مع الله وحلوله فيهم وفنائهم فيه ! وله فى ذلك رسالة مشهورة إلى النصر المنبجى– كما أفتى بتحريم زيارة القبور والتوجه للأولياء بالدعاء والتوسل .

واسودت الدنيا فى وجوه المنتفعين بهذه الأعمال . فشكوه إلى السلطان ، فخيره بين أن يقيم بمصر أو بالإسكندرية بشرط (السكوت) وبين الحبس فاختار الحبس على الحرية المشروطة ، فحبس بالإسكندرية عامين حتى سنة ٧٠٩ .

ثم أطلق سراحه سلطان جديد . وحكّمه فيمن حكموا عليه ، فأعلن عفوه عنهم وفيهم قاضى القضاة . فكان إصلاحاً من عالم لجاهل ومن مظلوم لظالم .

وفى سنة ٧١٢ برح مصر إلى دمشق يعلم الناس ويفتيهم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

* * *

كشفت فضائح العصر للفقيه الفحل عن «مهمة حياته» فلم يذهب بددا تناوش الحشويين والباطنيين معه ، وانطلق يعلن فى كل مقام أنه ليس بين الله وبين عباده وسائط إلا الرسل ، ومن قال بغير ذلك مشرك كافر يستتاب وإلا قتل ، لأنه يجعل لله ندا ، ونصوص القرآن تكفر من يتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فكيف بغيرهم ؟ وإذا كان لرجل أن يقول لآخر : ادع لى – فهذا مشروع ، أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول : ادع لنا أو اسأل لنا ربك .

ولا تشد الرحال إلى الموالد أو زيارة الأضرحة أو تقام القباب الضخمة على رفات الموتى وتتخذ مساجد ، ومن جهل ما أمره الله به لم يكن من أوليائه وإن كان صاحب عبادة كالرهبان وغيرهم .

وكذلك من علم ولم يعمل بعلمه . بل هو قد يكون فاسقا أو فاجراً ، ومن تعبد بالصمت الطويل الذى يترك الواجب أو بالقيام فى الشمس أو العرى أو الجوع والعطش فهو ضال مبتدع .

وعرف بالأولياء تعريف المفسرين بأنهم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وقال : إن (أهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون تارة أخرى كأهل النظر والاستدلال فى مدار الاجتهاد . ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول فى بعض دينه وهذا من أقوال المارقين) .

أما ادعاء العصمة للأولياء فأصدق قول فيه قوله (ذلك الخليط من الحكمة الذى يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل) .

وأما إظهار الصوفية أنفسهم فى لباس خاص (فمجاراة لمسوح الرهبان) .

(وهدى نبينا أحب إلينا . وكان ﷺ يلبس القطن وغيره) .

وتظهر زراية ابن تيمية على الإفراط فى الحساسية التى تعترى بعضاً عند سماع القرآن فى قوله : لم يكن فى الصحابة من هذا حاله وليس بيننا وبين هؤلاء الذين يصفقون عند سماع القرآن إلا أن يُقرأ على أحدهم وهو على حائط . فإن خر فهو ساقط .

أما عن الأبدال والنجباء والنقباء أو «الكادر» الذى يصطنعه المتصوفة فقال : (هذه الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من العامة والنساك مثل الغوث الذى بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلثمائة — فهى ليست فى كتاب الله ولا هى مأثورة عن النبى ﷺ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف يحتمل إلا لفظ الأبدال فقد روى فيهم حديث شامى منقطع الإسناد عن على كرم الله وجهه . . .) .

* * *

أما فقهه ففيه يقول الحافظ الذهبى : (فاق الناس فى معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم مذهباً بل ما يقوم دليله عنده) .

والمذهب عند ابن تيمية أن (قول القائل — لا أتقيد بواحد بعينه دون الباقين — أحسن ، بل هو الصواب من القولين . وإن أراد أنى لا أتقيد بها كلها بل أخالفها فهو مخطئ فى الغالب قطعاً ، ولكن تنازع الناس : هل يخرج عنها فى بعض المسائل ؟ على قولين . .) .

لهذا ينفرد ابن تيمية بآراء فيها رحمة بالناس . . . مثل قوله : إن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال فى البيت أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرره — لها أن تتيمم وتصلى .

وقوله : إن من أكل فى رمضان معتقداً أنه فى ليل فبان أنه فى نهار فلا قضاء عليه .

وقوله : إن تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه ، بل عليه الإكثار من النوافل رجاء غفران الله له : أى القيام بالتوبة الصحيحة .

وقوله : إن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق ، وإنما تجب به كفارة يمين .

وقوله : إن الطلاق الثلاث بفم واحد يقع طلقة واحدة رجعية ، فصدر مرسوم فى سنة ٧١٨ بمنعه من الإفتاء فقال : لا يسعنى كتمان العلم ، فحبس فى القلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وعاد يفتى ، وأعيد استجوابه وحبس فى القلعة فظل على رأيه .

وهذان القولان الأخيران إصلاحان تاريخيان أصلحت بهما مصر قوانينها فى النصف الأول من

القرن الحالى .

وهو يفرع على أن شروط الزواج أحق الشروط بالوفاء : أن للزوجة أن تشترط على زوجها فى عقد الزواج شروطها . وينفسخ الزواج إذا أخل بشروطها . وأن الوفاء لها بشروطها أولى من الوفاء بشروطه ؛ لأنه يملك أن يحل عقد الزواج بالطلاق .

وهذا الرأى الأخير صيحة من صيحات إصلاح جديد تتردد الآن .

ويفرع على أن المسلمين عند شروطهم إلا ما أحل حراماً أوحرم حلالاً ، حرية الشروط ؛ لأن (مقاصد العقلاء إذا دخلت فى العقد وكانت من الصلاح الذى هو المقصود لم تذهب عفواً ولم تهدر رأساً) وأنه (قد تفيد الشروط مالا يفيده الإطلاق بل ما يخالف الإطلاق) .

وكل مشتغل بتقنين الفقه الإسلامى فى العصر الحالى يجد كفايته فى النصوص ، مفردة أو مجتمعة ، وفى المعانى الكلية المستنبطة من مجموع النصوص ، ويعتمد على أن «المسلمين عند شروطهم» .

أو كما قال ابن تيمية : (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض ، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساده مغموراً بالمصلحة لا يحظره أبداً) .

ويضع ابن تيمية الأساس للأخذ بالنصوص وهو :

١ – أن المعقول الصريح لا يناقض المنقول الصحيح ، فالنقل والعقل لا يتعارضان بحال ؛ وإنما العيب عيب الذين يقل إلمامهم بالمنقول أو يخطئون فى المعقول .

٢ – عند مظنة التعارض يتهم العقل بالتقصير ؛ لأن العقل ليس معصوماً ؛ وإنما الشارع معصوم .

يقول : (إن من كان متبحراً فى الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص والأقيسة) .

ويقول : (وبالجملة فما عرفت حديثاً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح ، بل متى رأيت قياساً يخالف أثرا فلابد من ضعف أحدهما ، لكن التمييز بين صحيح القياس وفاسده مما يخفى الكثير منه على أفاضل العلماء فضلاً على من هو دونهم)[1].

---

(١) يقول الشافعى فى الرسالة : (. . . لم نجد عنه « صلى الله عليه وسلم شيئا مختلفا » فكشفناه إلا وجدنا له وجها يحتمل أن يكون مختلفا وأن يكون داخلا فى الوجوه التى وصفت لك أو نجد الدلالة على الثابت منه دون غيره بثبوت الحديث ، فلايكون الحديثان اللذان نسبا إلى الخلاف متكافيين فنصير إلى الأثبت من الحديثين أويكون على الأثبت منهما دلالة من كتاب الله وسنة نبيه . ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولهما مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ماوصفت . . .)

ويقول : (وقد تأملت من هذا الباب ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمة وأعلمها وقد بينت فيما كتبت أن المنقول فيها عن الصحابة – هو أصح الأقوال قضاء وقياساً وعليه يدل الكتاب والسنة ، وعليه يدل القياس الجلي . وكل قول سوى ذلك تناقض فى القياس مخالف للنصوص ، وما شاء الله من المسائل لم أجد أجود الأقوال فيها إلا الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . وإلى ساعتى هذه ما علمت قولاً قاله الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا كان القياس معه . لكن العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم ؛ وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشرع ومقاصده .

وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن يفوق التعداد . . .)

ذلك تفسير قول الشافعى فى رسالة الأصول (وأما أن نخالف حديثاً عن رسول الله ثابتاً عنه فأرجو ألا يؤخذ علينا ذلك إن شاء الله . وليس ذلك لأحد ، ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل الرجل ويخطئ فى التأويل) .

* * *

اشتهر عند المستشرقين كتاب ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية »[1] لمعالجة هذا الكتاب لأنظمة الإدارة والحكم وندرة التأليف فيها .

والكتاب من أصغر الكتب حجماً وأكبرها وفاء بأكبر الموضوعات فى أوضح عبارة أو إشارة .

يقول فى أول فصل من الكتاب :

(دخل أبو مسلم الخولانى على معاوية بن أبى سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأجير . . . قال معاوية دعوا أبا مسلم ؛ فإنه أعلم بما يقول . قال أبو مسلم : « إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها . . .) .

ويختم بفصلين فى المشورة ووجوب اتخاذ الإمارة .

يقول عن المشورة : قال الله تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) وقد أثنى على المؤمنين بذلك فى قوله : (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) .

---

(١) وفى هذا الكتاب حقه وبين قيمته فى الإصلاح السياسى والاجتماعى الإسلامى المستشرق المعاصر لاوست فى كتابه رسالة فى النظريات الاجتماعية والسياسية لتقى الدين بن تيمية طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٣٥ .

La oust : Essai sur Les Doctrines Sociales et Politiques de Takei el Din Ahmad Ibn Taymia Institut Francais d'Archéologie Orientale.

Le Caire 1935.

ويقول ابن تيمية . فى الإمارة (وأولو الأمر صنفان الأمراء والعلماء ، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس) .

وفى وجوب اتخاذها يقول : (روى الإمام أحمد فى المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم) فأوجب تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ؛ لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم . ويقال : (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان) والتجربة تبين ذلك ؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان) وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (الدين النصيحة . . . الدين النصيحة . . . الدين النصيحة ، قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً ؛ وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . . .

ويختتم بقوله : (فعلى كل واحد الاجتهاد فى إيثار القرآن والحديث . . . مستعيناً بالله فى ذلك ثم الدنيا تخدم الدين كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه (يا ابن آدم ، أنت محتاج لنصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة فر بنصيبك من الدنيا فانتظمها انتظاماً ، وإن بدأت بنصيبك من الدنيا فاتك نصيبك من الآخرة وأنت من الدنيا على خطر) . ودليل ذلك ما رواه الترمذى عن النبى ﷺ أنه قال : (من أصبح والآخرة أكبر همه جمع له شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . . .) .

ابن قيم الجوزية (٧٥١)

تحمل المدرسة الجوزية لقب أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (٥٩٧) . بناها ابنه محيى الدين لتدريس مذهب الإمام أحمد ، فخلدت المذهب وصاحبه ومنشئها ومن تحمل اسمه . وخلد الجميع (ابن القيم) ؛ إذ كان أبوه (قيم المدرسة الجوزية) فلقبه المسلمون «ابن قيم الجوزية» أو «ابن القيم» وكانت عبادته وزهادته جواز المرور لمتابعة منهج أستاذه ابن تيمية .

وكما يقول الحافظ بن حجر (٨٥٢) : (هو الذى هذب كتبه (كتب ابن تيمية) ، ونشر علمه ، وكان ينتصر له فى أغلب أقواله) .

يقول عنه ابن رحب : (وافتن فى علوم الإسلام ، فكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط لا يلحق فى ذلك ، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام ونظير ذلك ، وعالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم له فى كل هذه الفنون اليد الطولى) .

بهذه القدم الراسخة فى العلم والورع يتصدى ابن القيم لشرح المنهج السلفى فى العقيدة فهو : الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وكل ما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون شيئاً من ذلك . وإن الساعة آتية لا ريب فيها . وإن الله يبعث من فى القبور . وإن الجنة والنار موجودتان الآن . وباقيتان لا تفنيان . وإن الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وإن له يدين بلا كيف كما قال (لما خلقت بيدى) وقال (يداه مبسوطتان) وإن له عينين بلا كيف . كما قال (تجرى بأعيننا) وإن له وجهاً كما قال (وجه ربك) إلى غير ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة . كما أثبت السلف لله العلم والسمع والبصر والإرادة والقوة وغيرها كما قال تعالى : (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وأن الخير والشر لا يكونان إلا بمشيئة الله تعالى ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ومن زعم أن الله شاء لعباده الذين عصوه الخير والطاعة ، وأنهم شاءوا الشر والمعصية ، وعملوا على مشيئتهم — فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئته تعالى .

ولا يشهد السلف على أهل القبلة أن أحداً فى النار لذنب عمله إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يقرون لأحد أنه فى الجنة إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يكفرون أحدا بذنب ولا يخرجونه من الإسلام إلا أن يكون فى ذلك حديث . ويفهمون صفات الله تعالى من غير تأويل أو صرف لها عن ظاهرها ولو لم يفهموا معناها لسألوا الرسول عنها كما كانوا يسألونه) .

ويقول : (والعصمة النافعة فى هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير كيف ولا تمثيل . بل تثبت له الأسماء والصفات وتنفى عنه مشابهة المخلوق ، فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه ونفيك منزهاً عن التعطيل ، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو تعطيل ، ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو تمثيل) .

فالله تعالى يقول : (ليس كمثله شىء) ، ويقول : (هل تعلم له سميا) وابن عباس يفسر السمى بأنه المثل فهاتان آيتان محكمتان تقطعان فى عدم المماثلة والتشبيه والتجسيم وتغنيان العقل عن أى تأويل .

ويقول فى أعلام الموقعين : (وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل ، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل)[١].

ويرى ابن القيم أن أسماء الله هى صفاته ؛ لأنها تدل على معنى زائد على الذات . فهو تعالى عليم سميع بصير قادر : أى له هذه الصفات . ويذكرنا (أن الناس تنازعوا فى كثير من الأحكام ولم يتنازعوا فى آيات الصفات وأخبارها فى موضع واحد ، بل اتفق الصحابة على كثرتهم والتابعون على ضخامة عداد علمائهم على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها . وإثبات حقائقها . وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً وأن العناية بها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد) .

وكتب ابن القيم الكثير فى الزهد والتوكل وإخلاص العبادة لله ليقدم للناس مسلكاً يساير مسلك السلف ، ويواجه مقولات المتصوفين . ودافع عن الاجتهاد والقياس وحمل على التقليد وابتكر الكثير . وما تزال كتبه مراجع أساسية لكل مجتهد عصرى يفكر على أساس الكتاب والسنة .

* * *

ثم حمل أبو القاسم الشاطبى (٧٩٠) مصابيح الفقه الإسلامى فى النصف الأخير من القرن . والفقيه رقيب العصر وطبيبه . فكان لزاماً أن يلقى الأضواء على آفاته ، فذم البدع التى أفسدت العقائد وخص منها إقامة الزوايا والأربطة للمتصوفة .

فالسلف لم يقيموا رباطاً إلا لمحاربة العدو ، ولم يتعبدوا فى الزوايا ، بل عبدوا الله فى كل مكان . ولم ينقطعوا عن العمل فى الدنيا للآخرة ، ولم يؤثر عن زعماء المتصوفة شيء من ذلك لا الفضيل بن عياض ولا إبراهيم بن أدهم ولا الجنيد أو الخواص أو الحارث المحاسبى أو الشبلى ، وليست الأفكار والأدعية المأثورة التى «يجتمع عليها» البعض بعد الصلاة ، وصارت كالشعائر الدينية ، إلا بدع .

ولم تنقطع البدع بل كانت تتفاقم . واستحب البعض الإخلاد إليها ككل طقس يتجسد فيه معنى فيستغنى عنه بشكله . وتنشأ الشحناء بين المصدقين والمكذبين والجاهلين والمتعالين والمتعلمين . ثم يألف الناس الشذوذ . وللشذوذ عدوى كعدوى المرض .

وعندما يمسى الشذاذ كثرة يفرض الشذوذ نفسه ، وينصب اللؤم شراكه ، ويهتبل النهّازون والمنافقون فرص الجهالة والسذاجة والشهوة ، والتعصب والفهم الضيق واستعلاء الطواغيت على جماعة تعمى عن حقائق الدين ، وتنصرف عن الجد والدأب إلى الرضا بالنصيب الأدنى والانحناء أمام

---

(١) والفخر الرازى . . من زعماء المفسرين بالتأويل – غير الرمزى والباطنى – يقول فى خواتيم حياته فى كتاب أقسام اللذات : (اعلم أنه بعد التوغل فى هذه المضايق والتعمق فى الكشف عن أسرار هذه الحقائق رأيت أن الأصوب الأصلح فى هذا الباب طريقة القرآن الكريم والفرقان العظيم وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام السموات والأرض على وجود رب العالمين ثم المبالغة فى التعظيم من غير مبالغة فى التفاصيل) .

الأقوياء . وبذر قرن الشيطان بين العلماء ، فيصيب عملهم أو خلائقهم أو طرائقهم فيشاكلون الدهماء . . ومن ذلك شكا الحشويون شيخ الإسلام العز بن عبد السلام (٦٦٠) فى القرن السابع وشكوا التاج السبكى (٧٧٠) فى القرن الثامن وشكا ابن عطاء ابن تيمية .

ودارت كل الشكاوى على مدار هذه القرون البئيسة حول صحة العقيدة أو زيفها حتى كان الشيخ علاء الدين العطار من علماء الأزهر وتلميذ محيى الدين النووى (٦٧٦) يسير متأبطًا وثيقة صادرة من القاضى تعلن صحة إيمانه مخافة أن يغتاله الخراصون بتهمة ! وعندما يكفِّر الجاهلون رجلا صالحاً ففى مقابله آلاف أو ملايين من الضلال يعتبرونهم صالحين !

وذات يوم فى القرن التاسع وقع شخص فى عبارة موهمة وأفتى العلماء بتكفيره لولا أن السلطان طلب إجماعهم لتوقيع العقوبة . فتفاتوا إلى جلال الدين المحلى فجاءوا بالرجل فى الحديد وسأل الجلال : ما مستند التكفير؟ قال صالح البلقينى : قد أفتى أبى شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى (٨٠٥) فى مثل هذا بالتكفير. قال الجلال – شارح المنهاج – تريد أن نقتل رجلا مسلماً موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أبيك ! حلوا عنه الحديد .

وأخذ الرجل ومضى به إلى العافية !

أما السيوطى (٩١١) فعين قيماً لتكية سعيد السعداء ، فرأى فيها رجالاً فاكهين رافهين لا قضافا عجافا زاهدين ، فهمّ بتطبيق شرط الواقف عليهم ، وهو الفقيه الحافظ الذى يزهو به القرن العاشر ، فألقوا به – وهو فى كامل ثيابه – فى الميضأة .

وكان طبيعياً أن يغزو الصليبيون أرض المسلمين فى هذه القرون[1] وأن تنداح موجات التتار فى

---

(١) فى سنة ٤٥٣ انتهز روجار النورماندى فرصة ضعف الفاطميين فاستولى على صقلية ، وفى سنة ٤٨٥ هـ –(١٠٩٢ م) دعا بطرس الناسك أهل أوربة جميعا لاقتحام أرض الإسلام ، وانعقدت المجامع الكنسية (١٨/١١/ ١٠٩٥) وقامت الحرب الصليبية سنة ١٠٩٧ ولما دخلوا بيت المقدس قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين .

ولما استردها صلاح الدين بانتصار حطين (٥٨٣) أعطى أهلها الأمان الذى أعطاه عمر أهلها عند فتحها سنة ١٥ ونصه يضع العدالة العالمية فى الإسلام موضع التطبيق :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من حليهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥) .

أرض المسلمين إلى بغداد فدمشق(١) وأن يبعث سلطانهم إلى القاهرة يقول لأهلها :

(فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم فإنها لا تحميكم فما لكم من سيوفنا خلاص) .

ورد المصريون التتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨ فحموا الغرب من الشرق كما ردوا الصليبيين فى المنصورة فحموا الشرق من الغرب . وفى سنة ٦٩٠ أجلت جيوشهم الصليبيين من أرض العرب إلى الأبد ، وانقضى قرن ليغير تيمور لنك فى إحدى صواعقه على بغداد سنة ٧٩٥ ، ثم يتغلب عليها التركمان ، ثم تحل محلهم الدولة الصفوية فى بغداد سنة ٩٠٥ ، وفى سنة ٩٢٣ (١٥١٧) دخل الأتراك العثمانيون مصر وأرخى الظلام التركى سدوله على أرض العرب .

* * *

فى هذا القرن العاشر وفيما بعده بلغت دعاوى الأولياء وكراماتهم منتهاها . وظهرت فى مؤلفات متعددة للشيخ عبد الوهاب الشعرانى (٩٧٣) – وكان عالماً يدرس الفقه الشافعى بالأزهر – روايات يرفضها العلم ، ويستخرج منها السذج دلالات على الكرامات تمهد الذهن لرفع التكليف عن بعض البشر واقتدارهم على الإتيان بالخوارق لفنائهم عن أنفسهم واتحادهم بالذات الإلهية أو حلولها فيهم .

وعندما يعلّم العلماء مالا يسيغه العقل أويشكك فى العقيدة ينزلون بعقول المتعلمين وغير المتعلمين إلى ضروب شرك لا تحصر :

فعلى مقربة من الجامع الأزهر أطلق العامة اسم «شجرة الحنفى» على شجرة فى فناء مسجد الحنفى يطوف بها الناس لينالوا حظوظهم من الدنيا .

ومن التكايا واحدة فيها نعل قديمة يتداوى بشرب مائها العشاق ليظفروا بهواهم .

أما دراويشها فكثر . تطول قلانسهم أو تقصر قدر ما يتصدرون أو يتأخرون فى درجات التكية !

---

(١) يتحدث ابن الأثير فى تاريخه عن سفك التتار وفتكهم فيقول :

(ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا ، إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ! فإن قوما خرجوا من أطراف الصين إلى حدود العراق فى أقل من سنة . هذا مالم يسمع بمثله . ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة ومايجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء أو أشد . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا ، وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة . ولم يبت أحد من البلاد التى يطرقونها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم .

أما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولايحرمون شيئا . فهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها لايعرفون نكاحا . بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد فإنه لايعرف أباه) .

ومن بوابات القاهرة بوابة المتولى دقت بها مسامير يعلق عليها أصحاب الأمانى شعرات أو خيوطاً تصل أمانيهم وحاجاتهم بعالم الغيب .

وفى طنطا ودسوق وقنا ، وغيرها من أقاليم مصر – كما فى غير مصر – أضرحة توقد عليها السرج . وتشد إليها الرحال . وتقدم إليها النذور ، وتنحر الذبائح ، وتولم الولائم ، وتقام الحفلات للمغنين والمغنيات ، والمنشدين والمنشدات . ويسمى السامر «مولدا» للولى الميت يعيد فيه التاريخ فساد الموالد حول أضرحة القديسين من قبل الإسلام ، لكنه لا يعيد نهى العلماء والصلحاء عن ذلك الفساد ! [١] .

ومن الناس من يمسه مسيس من الشيطان أو تكون به جِنة ، فينسب إليه بعض العلم الخفى أو يكون خفيف الهامة فينسب إلى همهمته أو هينمته مالا يعنيه !

ومن الناس من يخرجون الأرواح الشريرة بمؤاخاة أرواح أمثالها فى العالم الآخر أو العالم السفلى .

ومن الناس سحرة يكيدون للآخرين ، ومنهم من يبطلون سحر الساحر وكيد الكائد ، ويمكنون من الإنجاب أو الإخصاب ، أو دفع الشر أو إيقاعه بغيرهم .

ومن الناس من نلتمس لديهم الشفاعة أحياء كانوا أم أمواتاً .

ومن الناس من يجيئون بالغائب إلى حضرة الطالب .

ومن الناس باعة الأحجار والأوراق والخرز والخرق البالية للرقى والتمائم والأحجبة – والوصفات الكاذبة .

ومن الناس من لا تحرقهم النار فيخترقوها ولا تلدغهم الثعابين فيأكلوها – وكثر من يدعى رفع التكليف أو يظلمه غيره فيدعى ذلك له فإذا ارتكب فاحشة فلا بأس عليه !

أما الأذكار فأفانين : فيها الراقصون والصائحون والمنشدون والدفوف والمرتزقة من الضلاّل أو الجهال .

– ومن الناس من يرزقون بغير سعى ، بل إن من الناس من يَرْزقون غيرهم .

* * *

وعم الأمر الجلل وطمّ ، فنزل العلماء ونزلوا حتى أصبحوا عامة . تنفق فيهم هذه الدعاوى ويندر فيهم من يدركون أن الكرامة درجة فضل فى العبادة والسلوك وما عدا ذلك غير إسلامى .

وعندما يفسد العلم والمعلمون تصبح المفسدة هى القاعدة ، ويتسع الخرق على الراقع اتساع الفرجة بين الحق والضلال ، وتنبت النابتة فى أرض سبخة لا تتغيا غير أن ترتزق ، فتفوق فى ميلها إلى الدنيا عن الدين ما قاله ابن الجوزى من قرون :

(إن المتقدمين من الصوفية كانوا يخرجون عن أموالهم زهداً فيها فيقصدون الخير وإن غلطوا فى

الفعل ، أما المتأخرون منهم فقد مالوا إلى الدنيا . وقد دخل أحد الصوفية على أمير فوعظه فوصله بصلة قبلها فقال الأمير : كلنا صيادون وإنما الشباك تختلف) .

وازدادت الأجيال دحرجة نحو الحضيض وأصبح الأدعياء أولياء ، والمرتزقة علماء يستعين السلطان بهم فيمكن لهم ليمكنوا له ! ولكل أمة الحكومة التى تستحقها ، ووسائل العيش التى تستطعمها ، فلا عجب إذا قرأنا من الكلام عن ذلك العصر .

(كان التصوف حالاً فصار كاراً (حرفة) ، وكان احتساباً فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاراً ، وكان اتباعاً للسلف فصار ابتياعاً للعلف . وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعبداً فصار تكلفاً ، وكان تخلقاً فصار تملقاً ، وكان سقماً فصار لُقماً ، وكان قناعة فصار فجاعة ، وكأن تجريداً فصار ثريداً) .

قبس من النور

وفى القرن الثانى عشر أضاء التفكير العلمى بقبس فيه هدى ، فعاجله الجهال بالإطفاء :

قص الجبرتى فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار قصصاً يوضح حقائق العصر فى مصر من حوادث رمضان سنة ١١٢٣ = ١٧٤٤ : (أن واعظاً تركيا وفد من بلاد الروم (تركيا) إلى مصر جلس يعظ فى جامع المؤيد (بالقرب من الأزهر) وكثر عليه الناس . فذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم ، وأن فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه . وقد ذكر قول الشعرانى فى كتابه (الطبقات الكبرى) أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فقال : إنه لا يجوز ذلك ولا تطلع عليه الأنبياء فضلاً على الأولياء . وكان فيما قال : إنه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء كما لا يجوز بناء التكايا ويجب هدم ذلك جميعه) .

وألقت إليه الجماهير صغوها وتدخلت الدولة وطرده الوالى بعد أن أفتى بزجره اثنان من العلماء [1] .

(١) وتفصيل ذلك فيما رواه الجبرتى : (فقامت لهذا قيامة العلماء وأدعياء العلم فدسوا عليه من يشوش ويخفت صوته ، ولكن الواعظ مضى فى طريقه وانتقل هو وأتباعه من القول إلى العمل ، وبدأ الصدام بأن خرج الواعظ وأتباعه بعد صلاة التراويح ، ووقفوا بالنبابيت والأسلحة على (باب زويلة) فهرب الذين يقفون به . ثم قطعوا ماعلق من جوخ وأكر وهم يقولون أين الأولياء ؟ وهنا أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم فى قول هذا الواعظ . فكتب شيخان من شيوخ الأزهر هما الشيخ أحمد النفراوى والشيخ أحمد الخليفى ينقضان قول هذا الواعظ ويطلبان من الحاكم زجره . وأخذ بعض الناس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ فى =

ويبده القارئ من هذا النبأ أمور :

الأول : أن الجماهير كانت أبصر بحقيقة التوحيد من الشيخين اللذين تفاتى المسلمون إليهما فأفتيا بزجر مسلم يدافع عن التوحيد وهو أصل الإسلام . وأين من خطيئتهما ما أوخذ عليه ابن البلقينى من نحو قرنين ! ليدلنا الجمع بين الخطأين على مقدار تتابع الانحدار .

الثانى : أن الوالى التركى كان حريصاً على مرضاة المفتيين الجاهليْن لجهالته أو فساد نيته لييسر للأتراك أمر السيطرة على الأمة .

الثالث : أن ذلك الوالى أنجى الواعظ الوافد من أرض الروم من عالمين رسميين مع أن هواه معهما ضد الواعظ ؛ لأن الوالى كان تركيا مثله .

لكن السماء لا تترك الدين لولاة أميين أو علماء معممين . لقد قدرت للإسلام أن ينتصر وأن تتراءى بشائر النصر فى جزيرة العرب ، ليستهل عصر جديد بدعوة جديدة ، فى القرن ذاته ، على يد محمد بن عبد الوهاب .

* * *

وحقيق علينا فى ختام هذا الباب أن نستصحب بعض مسلّمات هى :

١ — إن إسلام الوجه لله لا يكون إلا له وحده ؛ ولذلك كان النطق بالشهادة مدخله ، وكان شعار المسلم بعد الشهادة : « الله أكبر » لما فى الشهادة من إثبات العبادة لله ونفيها عن غيره ، وما فى الشعار من اعتزاز المسلم بقوة الخالق الكبرى لا الحكام ولا الأموال ولا الأقوياء ، ولا صوارف الحوادث ، ولا شياطين الوهم أو العجز أو سواها ، لتصيب المسلم بما لا يريده الله . ولأن الناس كلهم تحت سلطانه نظراء ، وأن الفضل للتقوى والعمل الصالح .

=مجلس وعظه فقال :) . . . أنا أريد أن أجادلهم فى مجلس القاضى ، واجتمع عليه من الناس قريب من ألف فسار بهم وسط القاهرة إلى أن دخل بهم بيت القاضى . قال القاضى : اصرفوا هذه الجموع ثم نحضرهما ونستمع إلى مجادلتكم معهما ، ولكن أحدا من الجموع لم ينصرف وقالوا له : ماتقول أنت فى هذه الفتوى ؟ فقال : هى باطلة . فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك فقال : إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلنترك ذلك إلى الغد فلما سمع الناس من ترجمان القاضى هذا الكلام ضربوه واختفى القاضى ومعه حريمه . ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضى حتى كتب لهم الحجة بصواب رأى الواعظ وخطأ رأى الشيخين . . وقصد الناس بعد ذلك يوما مسجد المؤيد لسماع واعظهم ، فلم يجدوه ثم قال قائل منهم : إن القاضى منعه من الوعظ فقام رجل منهم فتبعه الجمع الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضى وقالوا له : أين شيخنا ؟ فقال لاأدرى ! فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان لتُكلم الباشا فى هذا الأمر وتسأله أن يحضر أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معا : فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم ، فركب القاضى معهم مكرها ، فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ أعطاهم أمرا بان يحضر الشيخان النفراوى والخليفى لمجادلة الواعظ ، ولكن أمر الباشا كان لتسكين الفتنة وصرْف الناس ، فإنه بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا مايريدون من أمر أصدر الباشا أمراً بإخراج الواعظ من مصر وإسكات هذه الفتنة) .

ومن ثمة قوة المسلم وشجاعته وازدهار جماعته إذا أدركت معنى التوحيد ورفعت شعاره .

٢ - إن الإسلام دين علمى ، كتابه ثابت ونصوص سنته مسندة لا خرص فيها ولا تخمين : فإذا أصبح المسلمون ضحايا الباطنيات والخرافات خرجوا على قانونهم وحق العقاب عليهم .

٣ - إن المجتمع الإسلامى لم يتدهور إلى منحدر الخرافات إلا بعد قرنين أو نحوهما من إقفال باب الاجتهاد . والقرآن والسنة ينهيان عن التقليد واتباع رأى إلا بدليله . وينفيان قداسة الأشياء والآراء والأشخاص[1]. وإذا جاز تقليد جاهل لعالم فى أى تعامل لم يجز ذلك فى أمور العقيدة فإنما يجب الإيمان بالتوحيد والرسالة عن فهم لا مجرد تقليد (للغير) فيها .

٤ - إن القرون الخمسة من الخامس الهجرى حتى العاشر شهدت تقهقر المجتمع الإسلامى وازدهار الفكر الباطنى وخرافات ليس لها ضابط ، فى حين شهدت أوربة عصر الإحياء والإعداد للنهضة العلمية والصناعية وكشف العالم الجديد .

٥ - إن أمم الغرب فى هذه الحقبة لم تأخذ من العالم الإسلامى إلا العلوم ، ولم تلتفت إلى أساطير المتصوفة .

ومن العلوم أخذت المنهج الإسلامى فى التجربة والاستخلاص ، فخرجت على منهج الكنيسة الذى يُخضع الكشوف الفكرية والحرية العلمية لمقررات الكنيسة ونظرياتها ، فكان ما اطرحته أمم الغرب من أفكار باطنية للصوفية معادلاً لما اطرحته من أوامر كنسية فيها تعطيل للفكر والعلم .

٦ - إن المستشرقين مبشرون فى ثياب علماء ، ومن ذلك دَأْبُ المحدثين منهم على الإذاعة بفرق المتصوفة الفلاسفة وإدبارهم عن الإذاعة بالفقه وأصوله . والفقه أعظم ممثل للإسلام وحضارته ، ففى حين أكثروا الكلام عن الجماعة التى يمثلها «ابن عربى» - لم يكن لأئمة الفقه وعظماء الفقهاء كبير أهمية لديهم ، مع أن الحضارة الغربية حضارة تسوّد القانون ، وأن هؤلاء الفقهاء فى سماء ما طاولتها سماء .

إنما أراد هؤلاء المستشرقون أن يعرضوا وجه التصوف الفلسفى ، بما فيه من محاربة للعقل الإنسانى ؛ ليعرضوا صورة مرفوضة مكذوبة على أنها صورة عظماء المفكرين فى الإسلام ، وليطمسوا

---

(١) وتقديس الأشياء والأشخاص تراث كنسى : فالبابوات منذ القرن الثامن الميلادى فى بيزنطة يعلنون أن (الأيقونة إنجيل العامى يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس) وفى آخر المجامع المسكونية (نيقية ٧٨٧) أعلنت الإمبراطورة إيرين تقديس الأيقونات .

ومن قبلها اعتبر (يوساب القيسارى) قسطنطين منشئ القسطنطينية هو الحوارىّ الثالث عشر .

والفرس أسوأ : لقد كتب كسرى إلى هرقل لما غلب الروم (من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى عبده الفاجر عديم الإحساس . . . إنك تقول : إنك تثق فى إلهك فلماذا إذن لم تخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية) .

ووعد القرآن بنصر الروم فانتصروا فى بضع سنين على «سيد الآلهة» .

أو يبخسوا شأن الحقيقة التى أجمع عليها المعاصرون من علماء الجامعات والتى يعلنها برنارد لويس – بين عشرات – حيث يقول عن المنهج العلمى المعاصر فى العالم العلمى :

(إن أوربة فى القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجاً لمعاصريها العرب ، فهم الوسيلة التى انتقل بها إلى أوربة هذا التراث الثمين ، كما تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل فوق السلطة ، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة . وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة) .

الباب الثانى

الدعوة إلى التوحيد

(طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يترك ،
ويعملون بالسنة حين تطفأ) .

حديث شريف

إذا كانت الأرض الطيبة تنتج حاجة أهلها من الغذاء ، ويمتد عطاء الله فيها إلى أبعد من حدودها – فكذلك الأمة العظيمة تنتج حاجاتها من العظماء مصلحين أو ولاة أو علماء . ولما أحوج الفساد المسلمين إلى دليل يأخذ بيدهم فى التيه الذى أُركسوا فيه – كان محمد بن عبد الوهاب جواب السماء لتعيد الجزيرة العربية إلى سيرتها الأولى مصدراً للنور حيث ارتفعت قواعد البيت العتيق ، ونزلت آخرة الرسالات بلسان عربى على نبى عربى .

وما كان أعجب أرض نجد فى جدوبتها ، وقبائل بنى حنيفة وبنى تميم فى خشونتها ، منذ ظهر الإسلام ودارت فيها حروب الردة الضروس حتى استهلت دعوة ابن عبد الوهاب ، لتبدد فيها مرة أخرى ظلمات شرك ران على القلوب ، وزلزل قواعد الجماعة ، ورحض مواهب العلماء ، وأيْئس دعاة الإصلاح !

وفى اختيار السماء أرض نجد بذاتها منطلقاً للدعوة الإسلامية من جديد آية من الآيات ، كثيرة العبر والعظات :

ومن أهمها فى هذا المقام ثبوت اقتدار الحنيفية السمحة على أن تقود أقدام السائرين على المحجة الواضحة ، وأن تحتشد فى الصدع بالدعوة أجيال متلاحقة تصنع بها السماء انتصاره فى حياته ، وتصقل سيوف الشجعان فى سواعد صُدُقٍ فى اللقاء صُبُر فى الشدائد ؛ لتزدهر الشجرة ، وتنبت الحبة الواحدة مائة حبة فى غير من واد من وديان النماء والارتقاء ، وأن يعيد التاريخ نفسه فيتيح « للمنهج السلفى » أن يهدى الناس للحق ويفتح أرض الله لعباده : بالفهم الصحيح للدين والجهاد الصادق فى سبيله .

وظهور ابن عبد الوهاب وازدهار فكره فى مجالسه وانتشاره فيما عداها ، وديمومة تطبيقه فى

حياته نصف قرن أو يزيد شيئاً من حريملا إلى العيينة إلى الدرعية فأصقاع نجد ، ومنها إلى الأقطار المتنازحة الديار فى جزيرة العرب – هى مواضع الفصل الأول من هذا الباب .

والفصل الثانى فصل فى الأصول التى قامت عليها الدعوة وتبادَر إلى العمل بفحواها أتباعها واستحبوا الموت فى سبيلها ؛ لتكتب لأمتهم الحياة بإخلاص التوحيد من شوائب شرك عنيد زعزع العقيدة ، فصير الرجال أمساخاً يعبدون مالا يملك لهم النفع أو الضرر . فلما تحررت نفوسهم من الخرافات والانحرافات كانوا حقاً مسلمين ، فقدروا على أن يحملوا تبعاتهم وأن يحدثوا الإصلاح الذى تتنادى به الأمة فى كل مكان .

وإذْ كان الإمام إمام فقه فى المقام الأول ، والفقه قوام الشريعة – فقد أوردنا فى الفصل الثالث فرعين : أولها عن (الاجتهاد) وهو أساس الدعوة وعرضنا نماذج من فقه الإمام فى العبادات والمعاملات تتجلى فيها طريقة الإمام فى بسط آرائه والدفاع عن الحرية القانونية فى إنشاء العقود وأنواع الشروط ليكون الإنسان جديراً بالخلافة عن الخالق جل ثناؤه فى الدنيا التى سخرها له ، ولتتضافر حرية السعى فى الحياة مع عبادة الله وحده فى فتح الأبواب للمسلم ، ليتخذ الدنيا طريقاً للآخرة ، فيعمر العالم بالعمل الصالح .

أما الفرع الآخر فخاص بالتأويل «الباطنى» أو «الرمزى» المعطل للنصوص القطعية الورود والدلالة فى العبادات والمعاملات ، وهى قوام الدين ، من يخرج عليها يتجاوز الإسلام إلى عالم الخيال ، ويعمل بتشريع من صنع الناس .

والباطنية هى العدو التقليدى للمنهج السلفى الذى رفع أعلامه عالية محمد بن عبد الوهاب .

الفصل الأول

الداعى إلى الله

(كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها
فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً واتقوا الله يا معشر القراء
وخذوا طريق من قبلكم) . حذيفة

نحن الآن فى نجد حيث انتشر المذهب الحنبلى بعد موت الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى فى سنة ٢٤١ . وبنو شيبان منتشرون فى كل مكان بالخليج العربى من اليمامة (نجد) حتى البحرين .

وفى النصف الأخير من القرن الثالث مكن للمذهب بالعراق تلاميذ الإمام وتلاميذهم ، وتقلبوا به فى بقاع الإسلام ، حتى بلغ الأندلس على يد بقىّ بن مخلد (٢٧٦) .

وفى القرن الرابع مكن له أبو بكر الخلال (٣١١) بالعراق وأبو القاسم الخرقى (٣٣٤) بالشام . ودرج الأتباع على المنهج السلفى للإمام كأسلوب فكر وطريقة حياة . يقول فى منهجهم الذاتى والعلمى واحد من أعيانهم[1] :

(هم قوم خشن تقلّصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا من الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل . غلبت عليهم الأعمال الصالحة ، فلم يوفقوا فى العلوم الغامضة ، بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية بارئها ، ولم أحفظ عليهم تشبيها ، والله أعلم أنى لا أعلم فى الإسلام طائفة محققة خالية من البدع سوى من سلك هذا الطريق) .

وفى القرن الخامس برز من حنابلة نجد عالمان من «بنى تميم» هما :

عبد الواحد بن عبد العزيز التميمى (٤١٠) وعبد الوهاب بن عبد العزيز التيمى (٤٨٨) .

وفى القرن العاشر تعاقب حنابلة مشهورون فى نجد . منهم أحمد بن يحيى بن عطوة التميمى (٩٤٨) = (١٤٤١) فى بلدة الجبيلة الخالدة بذكرى شهداء حروب الردة وتلمذ له شهاب الدين أحمد بن عبد الله .

---

(١) أبو الوفاء بن عقيل (٤٣٠ – ٥١٣)

كما ظهر فيهم شرف الدين أبو النجا موسى ، وأحمد بن موسى ، وأحمد بن محمد بن مشرف ثم مرعى بن يوسف الحنبلى النجدى (١٠٣٣ – ١٦٢٣)[١] وعبد الله آل عبد الوهاب (١٠١٠ – ١٦٤٦) وقد ولى قضاء العيينة . فابنه عبد الوهاب (١٧١٢) .

وعاصر عبدَ الوهاب فقيهٌ كبير من «آل مشرف» هو صديقه سليمان بن على بن مشرف وقد صار أشهر الحنابلة فى عصره حتى مات سنة ١٦٦٨ م عن مؤلفات معروفة منها كتاب (فقه الناسك فى أحكام المناسك) .

وولى سليمان قضاء حريملا ثم العيينة ، وولد له ابن أسماه عبد الوهاب .

وضرب عبد الوهاب بن سليمان فى العلم بسهم ؛ وولى قضاء حريملا .

وفى سنة ١١١٥ للهجرة ، ١٧٠٣ للميلاد ، ولد له ابن أسماه «محمداً» .

وآل مشرف بطن من بطون حنظلة بن مالك بن زيد مناة تميم . وتميم من أكبر القبائل العربية عدداً ، وأوسعها انتشاراً فى إقليم نجد . وبهم تمتزج القبائل . ومنها «بنو حنيفة» .

قالوا لو تأخر الإسلام لأكلت تميم العرب !

وإلى نجد كان خلفاء بنى أمية يبعثون أبناءهم ليحتفظوا بالفصحى ؛ إذ يُنجِدون ، فلا تخالط ألسنتهم تطرية المدائن أو عجمة الهجناء ، ويعودوا من البادية عرباً خلص اللسان صحاح الأبدان .

ومن نجد اشتهر شعراء العرب منذ الجاهلية : فلهم فى أصحاب المعلقات أربعة من عشرة : زهير بن أبى سلمى ، وعبيد بن الأبرص ، وامرؤ القيس ، وعنترة .

ومنهم فى المائة الأولى من عُمر الإسلام – أشهر وأشعر شعرائها : الفرزدق وجرير والحطيئة والخنساء .

وبميلاد «محمد بن عبد الوهاب» فى هذه البقعة من جزيرة العرب كُتبت لنجد وللمذهب الحنبلى والعالم الإسلامى صفحات جديدة .

* * *

نشأ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على التميمى فى «العيينة» بوادى حنيفة – وهى قرية باليمامة غرب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية الحالية – وتلمذ من حداثته الباكرة لأبيه ، وكان أبوه مثابة للوافدين من قريب وبعيد ، يطلبون التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد .

---

(١) وهو القائل :

إذ قلد الناس الأئمة إننى ... لفى مذهب الحبر ابن حنبل راغب

أقلد فتواه وأعشق قوله ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

حفظ الصبى القرآن قبل العاشرة . وأحاط فى حلقة أبيه بكتب السلف ، ثم انطلق فى العلم ما وسعه ، فلما وقع على مؤلفات ابن تيمية ملكت عليه لبه .

وفى المتحف البريطانى فى لندن بعض رسائل ابن تيمية نسخها محمد بن عبد الوهاب بخط يده ؛ مما يشير إلى أنه يستقصى فكره ، ويقتفى أثره بيده وعقله ، وسنراه فيما بعد يصنع صنيعه .

وذات يوم قدمه أبوه ليؤم المصلين وهو فى فتاء السن . بل إن الأب ليقول عن الابن ما يرويه حسين بن غنام – مؤرخ الأيام العظيمة بتكليف من محمد بن عبد الوهاب – « لقد استفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام » .

ثم حج عالم العيينة الجديد واعتمر ، فشهد من بدع الحجيج ومراسم تعظيم القبـــور والاستغاثة بالموتى ما حزّنه ، وعرف أن فساد الفكر والفعل فى أهل نجد ليس إلا بعض الفساد الذى يعرضه – مركزاً فى الزمان والمكان – حجاجُ بيت الله الحرام من كل فج .

ثم اجتذبه جلال المكان وعِلْم علمائه ، فرجع إلى الحجاز يتلقى الفقه والحديث على يد الشيخ محمد حياة السندى (١١٦٥) ، ثم لزم عالماً من أهل نجد من آل سيف رؤساء بلدة المجمعة ، هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف (١١٨٣) فتذاكرا حالة الأمة بعامة ، وحالة نجد بخاصة للإصلاح .

وتحدثا عن استعمال السلاح ، والشباب يغرى بالقوة ؛ فهى أعجل إلى الغرض ، وهى بعض الجهاد الذى سيستطرد إليه التلميذ فيما بعد ، أما الشيوخ فيؤثرون استعمال العلم ، فهو سلاحهم ومألف لهم ، وهو أنجح على المدى الطويل وأفلح فى النهوض بمجموع الأمة .

قال الشيخ يوماً لتلميذه :

تريد أن ترى ما أعددنا من سلاح للمجمعة ؟

قال : بلى :

فقاده إلى قاعة كتبه وأظهره على ما فيها من مؤلفات ثم قال : هذا ما أعددناه من سلاح !

وفى مجلس من المجالس سأل الطالب شيخه عن الأدعية والنداءات التى ينادى بها الناس ، إذ يذكرون الأولياء ويزورون – وكأنهم يحجون – الأضرحة فأجاب بقوله تعالى :

(إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

وسنرى بعد أن السؤال والجواب هما مهمة حياة ابن عبد الوهاب وطريقته ؛ فهذا فكر فتىً أصيل نبت فى بكور الشباب . تزيده السنون قوةً بالمعرفة ، والتجربةُ حكمةً بالرأى النضيج ، ويهيئ له الصدام طاقة الانفجار .

وبشرية الرسول الخالصة لا تأذن لأحد أن يرفع إلى مقام العبادة أحدا إلا الخالق جل شأنه ،

لكن (الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء فى ظلمة الليل) . كما يقول ﷺ .

فصل الطالب عن شيخه وقد اهتدى إلى طريقته فى الإصلاح وهى تعليم دين الله الخالص ، فرجع من الحجاز إلى نجد ، ليلبث قليلاً . ثم يرحل إلى بغداد ثم إلى البصرة . والبلدان من أسبق مراكز العلم فى الإسلام .

* * *

أقام العالم الناشئ فى البصرة سنوات أربعاً درس فيها على عالمها الشيخ محمد المجموعى علوم الحديث واللغة ، ورأى من تقديس الشيعة فيها للمزارات والأضرحة والأئمة ما أربى على ما شهده فى الحجاز ، فاستنكره فى مجالسه فكان يبهت سائليه فيبلسون .

قال فيما بعد : (كان أناس من مشركى البصرة يأتون إلىّ بشبهات يلقونها علىّ ، فأقول وهم قعود لدى : لا تصلح العبادة كلها إلا لله ؛ ويبهت كل منهم فلا ينطق) .

وضاقت به صدور الناس ، واعتدوا عليه وعلى شيخه المجموعى . فخرج فى حمارة القيظ من البصرة إلى بلدة الزبير ، فبقى فيها أياماً يفكر فى الذهاب إلى الشام ، ومنعته الضيقة . فرجع إلى الأحساء ، فأقام زماناً فى ضيافة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى ، ثم قفل راجعاً إلى حريملا [1] وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان أبوه قد انتقل إليها من العيينة لخلاف مع أميرها .

وفى الحريملا استقر فكره على إعادة الناس إلى التوحيد ، والقضاء على مظاهر الشرك ، فوضع كتابه (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) .

واختلفت آراؤه فى مؤلفه عن آراء أبيه ، فصاحب أباه بالمعروف حتى توفى فى سنة ١١٥٣ هـ .

عندئذ أعلن دعوته ونشر كتابه . وتناقلت آراءه بلدان العارض ، من حريملا إلى العيينة

---

(١) ورد فى بعض الكتب أن الشيخ ذهب من بغداد إلى كردستان وإيران ، ودرس التصوف ثم عاد عن طريق بيت المقدس . وكرر ذلك بعض المستشرقين وهو غير صحيح ، إذ لايذكره علماء نجد ممن ألفوا فى سيرة الشيخ . ولم يورد آل الشيخ فيما يكتبونه أنه خرج إلى خارج جزيرة العرب . وقد ناقشنا فى هذه الواقعة الشيخ عبد العزيز بن باز كبير علماء السعودية فى الرياض مساء يوم ١٤/١/١٩٧٦ فأنكر ما أورده المؤلفون من رحلة الشيخ إلى كردستان وإيران ، وقرر أنه تلقى هذا عن أشياخه ومنهم حفدة الشيخ وبخاصة شيخه الذى تلقى العلم عليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

وثابت أن الشيخ (ابن عبد الوهاب) لم يعرف اللغة الفارسية ، ولا أثر فى فقهه أوكتبه لذلك .

وهو قد أعلن فى بعض رسائله أنه لايدعو إلى مذهب صوفى أوفلسفى .

إنما وردت هذه الشبهة فى كتاب لمؤلف غير معروف (لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب) ، ولم ترد فى كتب من عاصروا الشيخ كتلميذه حسين بن غنام ، أوبعده بسنوات كابن بشر .

والشيخ قد ذكر رحلاته ، وليس فيها رحلة إلى فارس أوخارج البلدان العربية . فعقل الشيخ وعلمه عربى خالص ، ومن أصالته العربية كان تلقى العقول له بالقبول .

فالدرعية . ذلك المحور الذى كان يتحرك فيه ليحرك جزيرة العرب حوله .

واستنسخ بعضٌ كتابه ، فذاع بين المتفقهة من أهل نجد ، وظهر تأثيره فى كيد الكائدين له ، فحرضوا بعض العبيد ليقتلوه ، فكمنوا له فى جوف الليل ليتسوروا داره لولا أن مر بهم بعض السيارة من البدو ، فانفض الكمين ونجا الشيخ .

ولم يكن صدفة أن تسوق السماء هؤلاء ، وإنما سهرت عين السماء على حياة رجل أعدته ليحدث الإصلاح المنتظر .

* * *

هجر الشيخ حريملا إلى العيينة كمثل ما هجر البصرة – فالعيينة مألف له ، والهجرة سنة الرسل – والشيخ عليم بتاريخ الجهل فى بلدان نجد . لقد قتل جهال بلدة الجناح فى ذات يوم علماءها كلهم !

وسيرى قبل أن يموت بعشر سنين بلدة الخبراء تقتل عالمها (منصور أبا الخيل) وأخاه وهما فى طريقهما للمسجد ليؤم المصلين منهم .

وفى العيينة أصهر إلى أميرها (عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر) ثم صار الأمير من أتباعه ، وعلا نجم الشيخ بعد إذ جاهر الأمير بدعوته وازداد أتباعه ، وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، والسلطة معه .

وتأييد السلطة للمذاهب عظيم الأثر فى انتشارها محلية كانت أم عالمية ، علمية كانت أم اجتماعية :

فالأفكار إذا أيدتها السلطة تأخذ سبيلها إلى الناس فى يسر وقصير أجل .

وإذا عارضتها فقد تفسد عليها أمرها إذا كانت غير قادرة على البقاء ، لكنها إذا عارضت الفكر الصحيح هيأت له الأسباب : فإما أتاحت له الانتشار الذى يشبه الانفجار ، وإما أخرته زمانا أو أخسرته معركة ، لكنه لا يموت .

ولقد كان ذلك دأب الإسلام من يوم ظهر : قاومته مكة فانتشر . وعملت المدينة فى كلاءته – إذ صار دولة – فبلغ حيث أراد الله فى مهاب الرياح الأربعة . ولما عوقت الدولة – بجهل أولى الأمر – فكر ابن تيمية ، حبس ومعه تلميذه ابن القيم ، لكن الفكر ملك أفئدة العلماء فى انتظار ابن عبد الوهاب ، ليفجر ينابيعه ، ويستخدم السلطان فى نشره .

والخرافات بضاعة مزجاة فى كل مكان ، وبنجد خاصة ، لقلة العلماء والمتعلمين وفساد آراء الكثيرين :

فهذا « فحل النخل » فى بلدة منفوحة يشد إليه العوانس رحالهن فيدعونه مبتهلات : (يا فحل

ارزقني زوجا قبل الحول) .

وهذه شجرة الذيب تؤمها النساء ، ويعلقن عليها خرقا بالية لعل العوانس منهن يرزقن الأزواج والعواقر يرزقن الأولاد والوالدات يبقى لهن ذكورهن .

وهذا قبر زيد بن الخطاب في « الجبيلة »[1] يحج إليه الناس ملتمسين تفريج كروبهم .

وهذا غار (بنت الأمير) في أسفل (الدرعية) يهدى إليه الخبز واللحم .

وهذا رجل في « الخرج » اسمه (تاج) يقدمون النذور له في انتظار نفعه واتقاء ضره .

حتى الفلوات كانت تقدم فيها القرابين إلى الشياطين لترضى !

وصاحب النذر يذبح ذِبحًا ويلطخ جسمه بدمه ليقبل نذره .

والمدين يذرف الدمع عند قبر الولى ليعينه صاحب القبر على سداد دينه .

والراعى يضع قلائد فى أعناق غنمه لتعيش . والتاجر يضع ظلف الحيوان على باب متجره .

والناس يحملون الرقى والتمائم والأحجبة والخرز ، والنساء يلطمن الخدود وراء الجنازات ، ويولولن كأنهن الشياطين الفزعة .

وهناك أولياء أحياء وقبور موتى يقدسها ويقدسهم الناس . وفى كل مكان أصحاب بدع وتجارات بها كالتى أسلفنا فى غير موضع .

* * *

استفتح الشيخ جهاده ببيان منهاجه فقال : إنه لا يدعو إلى طريقة جديدة وإنما يحيى الدين ، ويدافع عن السنة ويبدّع الخارجين عليها ، ويجتهد رأيه ، ولا يقلد أحدا .

وإذا وجد فى غير المذهب الحنبلى ما هو أصلح للناس – فهو يذهب إليه باجتهاده : قال فى إحدى رسائله : (إنى لم آت بجهالة ، بل أقولها ولله الحمد : إن ربى هدانى إلى الصراط المستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أدعو الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التى أوصى بها أول أمته وآخرهم) .

وانطلق يتلقى بيعة الجمهور له (على دين الله ورسوله وعداء أهل الباطل ، كما تابع على عداء كل من عادى الشيخ وموالاة كل من والاه ولو أنه أميرنا عثمان بن معمر) . فالشيخ يحتاط للدين من فلتات الأمراء وانحرافاتهم . ويرفع شأن الدعوة على الولاء للحكام لتكون كلمة الله هى العليا .

وستسلك الدعوة هذه السبيل على الدوام ، فنسمع قول ابنه عبد الله إذ حمل رسالة أبيه بعد

---

(١) الجبيلة قرية دارت فيها سنة ١٣ المعركة الكبيرة بين المسلمين والمرتدين من أهل اليمامة ، واستشهد فيها عدد من الصحابة ودفنوا فى ثراها ، وقيل : بنيت قبة على قبر زيد بن الخطاب ، فكان العامة يعظمونها .

وفاته فى إحدى مناقشات عبد الله لأهل مكة سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣ :

(مذهبنا فى الأصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقنا طريق السلف) .

فلا جديد فى المذهب أو الطريقة ، وإنما الجديد فى العزم والتصميم وفى اتخاذ الجهاد وسيلة له دون الاكتفاء باستنكار المنكر بالقلب أو بالكلام .

وأطلق أتباع الشيخ على أنفسهم (الحنابلة) أو (السلفيين) أو (الموحدين) .

وأطلق خصومه على دعوته وصف الوهابية على اعتبار أنها بدعة . وتمادى الأتراك فى الأضاليل ، وقالوا عن أصحابه : إنهم (الخوارج) أو (الروافض) والطائفتان نقيضان للدعوة . وهما فيما بينهما خصمان لدودان ، فإنما خرج الخوارج على على وشيعته والأمة التى بايعت له ، والشيخ يدعو دعوة الأمة وأهل السنة ، ولا يذهب مذاهب الشيعة .

وفى أوائل القرن الهجرى الحالى كتب مؤلف من أصل تركى هو إسماعيل سرهنك باشا يقول : إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (. . . . . . . أتى بعبارات مزورة ولبّس بها على العوام حتى يتبعوه ، وألف لهم فى ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد . وألف العلماء رسائل فى الرد عليه ، حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه) .

ولا ينقض الفكر إلا فكر أعلى منه حجة . ولو كانت مخالفة الأخ لأخيه حجة لحججنا المؤلف بكتاب (عنوان المجد فى تاريخ نجد) حيث تقرأ قول ابن بشر : (كان للشيخ محمد أخ هو سليمان ابن عبد الوهاب كان مناوئاً لأخيه . ألف رسالة يعترض فيها على دعوته اسمها (الصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية) ، وفى سنة ١١٩٠ قدم الدرعية تائبا ، وبقى فيها حتى وفاة أخيه الإمام) .

ولا على الإمام لو خالفه واحد ، فلقد خالفه مالا عدد له ممن جروا وراء الشهوة أو السلطة أو غلبت عليهم الغفلة .

وأكثر الذين يخالفون الشيخ ممن لهم وزن لا يخرجونه على الحق . بل يختلفون فى التقدير فلا يوافقون على تكفير الرجال من جراء مايقارفونه عن جهالة ويبدعون البدع ذاتها ومن قارفوها . ويرونهم يعملون أعمال الكافرين عن غير فهم أو عن تقليد . والتقليد بذاته إحدى الكبر ، إذ لا يقبل تقليد فى العبادات ، لأن الإيمان لا يحتمل التقليد ، بل يجب له الإدراك الذاتى .

* * *

والمعنى الأساسى للشهادة أن الأمر كله لله سبحانه . وليس فى الوجود ما يعظمه الناس سواه وهو القائل جل جلاله : (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا تشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ولكن الناس يلغون ذواتهم

وكراماتهم ويمجدون الملوك والأمراء والأقوياء والقوى المجهولة بالفعل أو بالفكر ، ويحجون إلى مقابر الأولياء ، ويقدمون لها النذور ، ويذبحون الذبائح ، ويقيمون القباب الشامخة للموتى ، ويشدون الرحال إلى القبور فى مظاهرات كأنها أداء الشعائر ! ويطوفون بمقابرهم طواف الطقوس التى يمجدها اليهود والنصارى . بل إن من الناس من يحلفون بالله ، فيكذبون ، فإذا حلفوا بالأولياء لم يحلفوا إلا صادقين !

ومن الردة عن الدين ما هو فعلىّ ، ومنها ماهو رسمى : ومن الفعلى أن يقارف الناس أعمال الكفار أو يعطلوا حدود الله وإن كانوا ينطقون بالشهادة ، أما الكفر الرسمى فهو المجاهرة بالإلحاد الصراح . وقل أن يقع .

والفرق بين العرب فى الجاهلية والعرب فى الإسلام أنهم لما وحدوا الله واتحدوا على دينه خلصت عقيدتهم وسمت نفوسهم وجاهدوا للدين فسادوا العالم فى سنين بعد أن كانوا مسودين من شمال ويمين ، من الروم والفرس !

والفرق بين الأجيال الثلاثة المفضلة (جيل الصحابة ، والتابعين ، وتابعى التابعين) وبين ما أعقبها من أجيال يظهر جلياً فى ظهور الإسلام وازدهاره فى القرون الأولى ، فى حين كانت القرون الأخرى قرون انكماش فى الفكر وحرمان من الابتكار وازدياد للتخلف ، كلما تتابع عصر بعد عصروبأقدار متناسبة مع ظهور البدع .

وطلب الخير من غير الله تعويل على قوى مجهلة ومضللة وإهدار لإنسانية الناس وتعطيل لسعيهم وتخريب لمرافق الدنيا !

وحذر البطش من السلاطين والشياطين والمجهولين وغضب الموتى — يورث الجبن والقلق والوهم فتنسل الأنفس وتصاب قرائح الناس بالشلل .

لذلك كان الإسلام حربا على الأصنام أيا كانت : دمى أو أشياء أو أشخاصا أو أفكارا — تحول دون توحيد الواحد القهار .

كان للعرب فى الجاهلية شجرة (ذات أنواط) يعلقون عليها سلاحهم ، فنهاهم عنها النبى عليه الصلاة والسلام .

وتبع عمر هدى النبى فى شأن الشجرة التى بايع تحتها المسلمون (بيعة الرضوان) ، فأمر بها فقطعت ، لأنه عرف أن العرب يحنون إليها ، مجرد الحنين .

ونهى النبى عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ القبور مساجد قال : (إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك) فانتهى الناس زمانا ثم عادوا .

ولما نهى ابن تيمية عن هذه البدع وأمثالها وعذب وسجن ازداد فكره ذيوعا فى الأمة ، لأنه ثبت ولم يتراجع . ولما مات فى سجنه زاد علوا فى ضمير الأمة وتأثيرا فى فكرها : فمحمد بن عبد الوهاب يجيء على موعد مع الزمن . ولما ساقت السماء إليه تأييدا من أمير العيينة كان الله يزع بالسلطان إذا عمل بالقرآن .

وشق الشيخ طريق ابن تيمية من جديد دون أن يقف عند النصح أو التدريس – أن قد واتاه الزمان ليترقى من تدريس الفقه إلى تطبيقه فى الأمة والدولة ، وهى فرصة لم يتحها الزمان لابن تيمية .

١ – هدم قبورا كان يستغاث بأصحابها ، وفى طليعتها قبة (زيد بن الخطاب) فى الجبيلة .

٢ – قطع الشجرات التى كان الضلال ينسبون إليها الكرامات . فلم تعد الشجرة الملعونة (الذيب) ترزق العوانس رجالا أو العواقر بنين .

٣ – وجلس مجلس التدريس المنظم لمنهج متكامل يحمل مسئولية تنفيذه حاكم يقدر على تطبيقه فى جماعة تتبادر به إلى نصرة دينها وصلاح دنياها ، فيسر الإصلاح فى كل وجه .

٤ – وبعث رسالاته للعلماء فى سائر أرجاء الإسلام .

٥ – وأقام الحدود : ففى ذات يوم جيء بامرأة تزنى متلبسة . وشهد عليها الشهود وأقرت ، وثبت أنها صحيحة العقل ، وكانت تمت إلى أمير الأحساء بنسب ، فحُسبت أنه سيعصمها من الرجم ، لكن الشيخ أمر بحدّها ، فرجمت . وكان أمير العيينة أول من نفذوا الحد فيها .

وقامت قيامة أمير الأحساء سليمان بن محمد بن عزيز . وبصبص إليه الأدعياء من العلماء بالأذناب . قال قائل منهم : إن حد الرجم لا يوقع إلا بعد استئذان ولى الأمر ، واحتج الشيخ عليهم بصحيح الفقه أن من تغلب على بلد أو بلدان كان له حكم الإمام فى جميع الأشياء ، والناس من قبل الإمام أحمد حتى أيام الإمام محمد بن عبد الوهاب لم يجتمعوا على إمام واحد .

وطلب أمير الأحساء إخراجه من العيينة مستندا إلى فتيا هؤلاء العلماء ، وكتب إلى أمير العيينة يتهدده بأنه سيمنع إرسال حقوق الأمير لديه ، على نخل تحت يديه ، وبأنه سيمنع خراجا كان له فى الأحساء مقداره اثنا عشر ألف دينار .

وأبلغ أمير العيينة الشيخ بما جاء من وعيد .

وفى رواية أخرى أن أمير الأحساء كتب إلى أمير العيينة : (اقتله فإن لم تقتله قطعنا – خراجك) .

وكان قلب الأمير أضعف من أن يصبر فى الشدة ، ومن أن يجاهد فى الله ، فاكتفى بأن يطلب إلى الشيخ الخروج عن دياره .

قال الشيخ : إن الذى أدعو إليه هو دين الله ، وإن صبرت واستقمت وقبلت هذا الخير فأبشر بأن الله سينصرك ويحميك من هذا البدوى وغيره ، وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته . .

قال الأمير : إنا لا نستطيع محاربته ولا صبر لنا على مخالفته .

هكذا كان فزع أمير العيينة من أمير الأحساء أكبر من خشية الله أو فهمه لمصلحته ، فخرج الشيخ من العيينة إلى مهاجره الثانى فى الدرعية حيث أراد الله أن يبلغ أوجه .

إلى الدرعية

خرج الشيخ على قدميه سنة ١١٥٨ لم يعطه أمير العيينة راحلة ، وسار طول النهار راجلا إلى الدرعية حتى دخلها بليل . فقصد واحدا من أتباعه ، وخاف الرجل أمير الدرعية (محمد بن سعود) فأنزل الشيخ على قلبه الطمأنينة .

وكان من أتباعه بالدرعية أخوان للأمير هما مشارى وثنيان ابنا سعود [١]

لجأ مشارى وثنيان إلى زوج الأمير « فحدثاها حديث الشيخ وما يدعو إليه ، فقالت للأمير : (إن هذا الرجل ساقه الله إليك ، وهذا غنيمة فاغتنم ما خصك الله به) ، وقال قائل من الأخوين : (سر إليـه بنفسك وأظهر تعظيمه– يسلم من أذى الناس) . فسار إليه .

قال له الأمير إذ لقيه : (أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة)

قال الشيخ : (وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهى كلمة « لا إله إلا الله » من تمسك بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد . وهى كلمة التوحيد . وأول ما دعا إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم)

قال الأمير : (يا شيخ ، إن هذا دين الله ورسوله الذى لا شك فيه ، وأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به ، الجهاد لمن خالف التوحيد . ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين :

الأولى : نحن إذا قمنا فى نصرتك والجهاد فى سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا .

والأخرى : أن لى على الدرعية قانونا (فريضة) آخذه منهم فى وقت الثمار وأخاف أن تقول : لا تأخذ منهم شيئا) .

---

(١) آل سعود من عشيرة عنزة ، ومن قبائل ربيعة من حفدة بكر بن وائل ولربيعة فروعها فى نجد والعراق والشام وكان جدهم مانع بن المسب المريدى يقطن بلدة القطيف وتربطه لحمة نسب بابن درع صاحب حجر اليمامة والجزعة المعروفتين قرب الرياض . فقصـد إلى ابن درع سنة ٨٥٠ هـ – ١٤٤٦ م فأقطعه قطيعة استقر بها على مقربة من الدرعية ، فاستعمرها وتناسل فيها حفدته وزادوا رقعتها ، وجعلوا الدرعية عاصمة لها .

قال الشيخ : (أيها الأمير) ، أما الأولى فابسط يدك أبايعْك : الدم الدم والهدم الهدم ، وأما الأخرى فلعل الله أن يفتح لك الفتوح فيعوضك الله عن الغنائم ما هو خير منها) .

ويسط الأمير يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد فى سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ودخل الشيخ المدينة واستقر عند الأمير .

ولئن كان محمد بن عبد الوهاب هو الذى يفرض على محمد بن سعود شروطه بعدم اقتضاء الضريبة ، إن الملاحظة الأساس التى يتمثل فيها طابع الدعوة منذ برزت إلى الوجود – هى العمل بكل سنة الرسول ، لذلك ترى المحمدين (ابن سعود وابن عبد الوهاب) يستعملان فى البيعة صيغة الرسول فيستحضران ما صنعه الرسول وأنصاره والمهاجرون ليصنعاه من جديد ، وأن البيعة كانت على الجهاد ، فلم تعد المرحلة المقبلة مرحلة هداية مجردة أو إرشاد ، فلقد تطورت طريقة الشيخ بعد نجاحه فى العيينة وفشل أميرها وجبنه ، وأمسى لزاما أن تتغير الطريقة لتصبح الدم الدم والهدم الهدم .

ولئن لوحظ أن السلطان رجا الإمام ليبقى له دخله المفروض على الناس لينفق منه على دولته – إن الإمام سما بالدولة وحمى الناس ، فألغى الضريبة على الناس ودعا للأمير بالنصر الذى يعوضه ما فاته . ونصر الله أكبر ، وعوضه أكثر ، وكل أولئك كان ، فلقد صدق المحمدان ، والله مع الصادقين .

* * *

ذاعت أنباء هجرة الشيخ من العيينة إلى الدرعية فأدت أعظم الخدمات للدعوة بنشر تعاليمها وأخبار ما حققته فى العيينة ، وهلع أميرها وبطش أمير الأحساء . وتعاظم الرجاء فى الدرعية ومن فيها . والفكر يخدمه الأصدقاء والأعداء على السواء .

وتوالت وفود نجد وما جاورها يعتنقون الدعوة ، ويعودون إلى بلدانهم مبشرين ومنذرين ومعلمين .

وطالت سنوات التدريس ، فصارت بشريات الوفود من كثرتها وتلاحقها طنيناً فى كل سمع ، وحديثا فى كل مجتمع !

ومنهاج الشيخ فى الدرس –كمنهاجه فى الحياة قاصد صريح وكمنهاجه فى التأليف – لا يزخرف القول ولا يرقِّش الحجج ، بل يجىء بها من مصادرها : (القرآن والسنة وعمل السلف) . وهوعربى يفاقه العرب بآيات كتاب لسانه عربى وسنن نبى من العرب .

وهوالقادم من ميادين التجارب . ونضوالعبادة الذى هزل التقشف قوامه . ناصح الجيب نقى

القلب محبب إلى الناس . يحمل هموم تبعاته . لا يهيش أحد فى مجلسه ولا يُثْلَب غائب . وهـو فياض السخاء ممسك بالزمام . لا يفتات الأمير عليه . وإنما ينطلق فى خدمة الدعوة من غزاة إلى غزاة . إن مهاجماً وإن مدافعاً . ويطبق أحكام الإسلام ويلزم كل قبيلة أن تتبع قانون المنتصر وما هو إلا عبادة الله وحده والزراية بالتماثيل والأصنام والخرافات الفعلية والفكرية ليعيد إلى القوم كرامة المسلم .

وأشرفت على جزيرة العرب أيام عظيمة كأنها من جلال صنيعها وبهائه تقدم العذر للتاريخ عن سابقة قبائل نجد أيام ردة العرب .

بل جاء عثمان بن معمر يسعى على استحياء ، ويلتمس أن يرجع الشيخ إلى العيينة ، فلم يتقبض عنه ولكنه وعظه ، فهو قد بايع على ألا يترك ابن سعود وعلى أن يكتب الله لها النصر . وإنهما لمنتصران .

وفى سنة ١١٦٣ كان الشيخ فى قمة السلطة ، وقتل عثمان بن معمر فى العيينة ، فقصد الشيخ إليها . وأمر عليها ابنه مشارى بن عثمان ، وبعد عشر سنين عزل مشارى لفساده . وهدم قصر آل معمر ، وهم أخوال آل سعود .

ولما انتشرت الدعوة فى بلدان نجد اشتد عليها الأمراء الذين يترك أتباعهم أقاليمهم إلى الدرعية ، إذ أصبحت دار هجرة يؤمها الناس . أو يتجهون تلقاءها بقلوبهم ، ويصدر منها المجاهدون والدعاة والآراء إلى غير مكان . وتنشأ فيها الأجيال على العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله ، ومحبة الجهاد فى سبيله ، والزهد فى زخرف الحياة ومتاعها الكاذب ، والسعى لكل ما هو حق ومصلحة يأذن بها الشرع ، لا رفث ولا فسوق ولا خديعة ، بل مجتمع سلفى نموذجى يتواصى بالخيرات ويتضامن فى المكاره . والشمل جميع والمودة سابغة والأخلاق رغيبة .

والجهاد العسكرى يصهر معادن الرجال ، فينفى خبث الأنكاس والأرجاس ويبقى الفضائل . والقوم يتوافدون إلى الميادين أو منها فرحين مستبشرين ، تشد أزرهم أخلاق النصر التى تعودوها .

وأول قانون الإسلام أنه يبلغ بمجتمعاته غاية الطهر ونهاية القوة لإخلاص التوحيد وانتصار الناس على شهواتهم وغفلاتهم ، يوم يصدقون ما عاهدوا الله عليه ، فتصير الدولة لهم ويسبقهم الفزع منهم إلى قلوب أعدائهم . ويفرحون بنصر الله لهم والفتح القريب عليهم .

وملاك الأمر فى الإسلام : عبادات تقف المخلوق بين يدى خالقه صباح مساء لتسمو به ، وقُربات يرتفع بها درجات إلى رضوانه جل شأنه ، وحدود زاجرة تمنع من الإجرام من لم يجرم – وهم سائر الناس – وتعزيرات كفيلة بالجزاء على الخطيئة أيا كانت ، ومعاملات قوامها العمل للحياة ، يستخدم الناس فيها المال ولايستخدمهم ، فلا يكنزونه أو يحبسونه ولا يأكلونه

بالباطل أو بالربا أو بالغرر ، ونظام اجتماعى يحمل « إيجابية » الرجل فريضة الإنفاق على الأسرة ويجمل وظيفة المرأة بالتصون . ويخول الزوجين أسباب حسن التبعل .

فالأسرة فيه – لا الفرد – نواة المجتمع ، وبهذا ينهض المجتمع على أقدام لا على قدم واحدة ويكاد الجار يشرك الجار من تواصله ، والخادم سيد القوم . والأمير أجير عند الرعية والرعية مؤدية له ما يؤديه لخالقه .

وفى كل ذرة من ذرات هذا النظام تجرى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مجرى الدم فى الجسم . فتجعل التواصل اليومى والتكافل الاجتماعى مجعل المنظم الداخلى لنشاط الفرد وتعاون الجماعة ، وللعمل اليومى لولى الأمر . فيعيد هذا المنظم ميزان الفرد والجماعة والدولة إلى الاعتدال فى أول بادرة جديرة بالتقويم والتسديد .

وفى ذلك كله تستعمل الحنيفية السمحة الفطرة البشرية وتشجعها كمثل استعمال الترياق المنبعث من الغريزة يفعل فيها ويفعل بها ، فيصلحها ويصلح بها ، فالشريعة لا تتغيا إصلاح الناس بالقوة القاهرة للحرية ، أو بالقسوة التى تذبل بها الطبيعة البشرية ، أو بالقوالب المصبوبة التى تقمع الشخصية الإنسانية . ولا تتوسل إلى أنفس الناس بطريقة مصنوعة قد يخرج المكلفون عن إطارها ، بل عمادها السليقة المطبوعة على الخير ، لتعود إلى الأصل إذا انحرفت كلما هديت إليه ، وهى أهدى وأقوى وأقصد بعناصرها الذاتية التى تزين الإيمان وتحببه ، وتكره الكفر والفسوق والعصيان ، وتنفر من الظلم وتُغِذّ الخطى للتقدم . . . . صنع الله الذى خلق هذه الأنفس ، وشرع لها أسباب صلاحها ووسائله .

* * *

ووطأ الأكناف فى نجد للطهارة والقوة اللتين تتناتجان فتحدث كل منهما الأخرى أن أقاليمها كانت مذ خلقها الله بمنجاة من التطرية المجلوبة من الحواضر ، أو التخليط الشعوبى الذى أعجل الفرس والترك والأوربيين إلى أقطار المسلمين . فاستعصمت فيها الأصالة العربية ثم نمت نماءها الطبيعى ، فأصبحت أسمع لصوت الدعوة وأقدر على أن تذيع بها فى الآفاق البعيدة وأن تبقى فكرها الوضاء ينشر الأضواء فى القرون التالية .

وموقع الدرعية فى صميم نجد يهب لها القدرة على تحقيق أغراض الدعوة وأسباب الانتصار ، إذ كانت على مبعدة خمسمائة كيلومتر من البحر فى الشرق وألف كيلومتر من الحجاز فى الغرب ، فهى قائمة حيث تلتقى الطرق وتفترق ، وتريح القوافل القادمة ، من الجنوب أو الشمال فى مكان صالح لنشر الأفكار الصحيحة ونجاحها فى تحقيق أغراضها ، إذ تشهد القوافل تطبيقها الكامل فى مجتمع

متكامل تحكمه دويلة صغيرة تبتغى وجه الله وحده ، ولهذا كانت محط آمال المتفائلين ومحل سؤال من الكثيرين .

وليست الكيلو مترات فى الصحراء مسافات ، والناس فيها أسمع وأبصر وأكثر تواصلا مما يتصور أهل الحضر.

وفى التخوم كثير من الخصوم : ففى الأحساء آلاف من الشيعة الاثنا عشرية (١)، وفى القطيف آلاف من القرامطة (٢)، وفى اليمن ملايين من الشيعة الزيدية (٣)، وفى ينبع آلاف من الشيعة الكيسانية (٤)، وفى عمان خوارج إباضية (٥).

وفى سائر الأقاليم أهل سنة تجعلهم الجهالة والقربى أشد عداء للدعوة سواء فى الشمال فى الشام ، أو فى الشرق فى العراق ، أو فى الجنوب فى تهامة وعسير ، أو فى الغرب فى الحجاز .

لكن الخصام كان أعجل فى نشر الدعوة والإذاعة بأنبائها لما فيها من فكر أصيل لا تنال منه الأباطيل . كما كانت إحاطة هذه الأقاليم بنجد أنفع للدعوة ، إذ جعلت الدرعية فى مركز الدائرة ، وجعلت (حريملا – العيينة – الدرعية – الرياض) مجعل المحور القادر على التحكم بالعقيدة الصحيحة والتضحية فى سبيلها .

وهكذا أتيح لإقليم (اليمامة) أن يعظم شأنه مرة أخرى . ولليمامة –كما يسمى القلقشندى وسط نجد حتى إقليم الأحساء– ذكريات أعظم عند المسلمين : ففى الشمال من البلدان الأربعة التى ذكرناها تقع جبيلة حيث مقابر الصحابة الذين استشهدوا فى حروب الردة . ومواقع معركة عقرباء بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (١٢ – ٦٣٣) ، وفى وادى بنى حنيفة (وهم بطن من بطون بكر بن وائل) عاش أجداد الرجال الأحياء فى هذا المكان ، ومنهم من بقى ، ومنهم من غيرت الهجرات مقامه وحل محله غيره : مثل قبائل عنزة والرشابذة وشمر .

* * *

كان هوذة وثمامة ملكين على نجد عندما انفجر فجر الإسلام .

فجاء هوذة كتاب من رسول الله يقول : (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام الله على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم . وأجعلْ لك ما تحت يديك) .

---

(١) نسبة إلى قولهم بإمامة اثنى عشر إماما وهم الإمامية أو الجعفرية نسبة للإمام جعفر الصادق .

(٢) نسبة لحمدان قرمط ، وهم فرقة من الإسماعيلية يقولون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٣) نسبة للإمام زيد بن على .

(٤) نسبة لكيسان مولى بجيلة يقولون بإمامة محمد بن الحنفية (ابن على بن أبى طالب من زوجه من بنى حنيفة) .

(٥) فرقة من الخوارج هى أكثرهم اعتدالا .

وأجاب هوذة : (ما أحسن ما تدعونى إليه ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تتهابّ مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعْك) .

فلما وقف عليه الصلاة والسلام على جوابه قال : (لو سألنى سيابة من الأرض ما قبلت . باد وباد ما فى يده) . .

أما ثمامة فأسرته خيل النبى ، فلما اقتيد إليه قال له عليه الصلاة والسلام : (ماذا عندك يا ثمامة) ؟ .

قال : عندى خير . إن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعط .

فأمر النبى بإطلاقه ، فأسلم ، ثم عاد إلى اليمامة فمنع أهلها أن يحملوا الحنطة إلى مكة .

وفى السنة العاشرة قدم وفد اليمامة ووادى حنيفة (١)، فأسلموا وفيهم مجاعة من بنى فزارة بن

---

(١) يقول الشيخ فى المختصر : (لما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ضربت إليه أكباد الإبل تحمل وفود العرب من كل وجه فى سنة تسع . وكانت تسمى سنة الوفود . . فقدم عليه عطارد بن حاجب التميمى من أشراف « بنى تميم » جاءوا فى أسرى «بنى تميم » الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزارى فى المحرم من هذه السنة . وكان عيينة قد أخذ أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا وساقهم إلى المدينة ، فقدم رؤساء بنى تميم فيهم ، كلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات – وهو فى بيته – أن اخرج إلينا ، فآذى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) فلما خرج إليهم قالوا : جئنا لنفاخرك . فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال : « أذنت لخطيبكم » فقام عطارد فخطب فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس » قم فأجب الرجل» فقام ثابت فخطب وأجابه ، وقام من جانب بنى تميم شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حىّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقال رسول الله ﷺ لحسان « قم فأجب الرجل » فقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سننا للناس تتبع

إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

قال الزبرقان . . . قال حسان . . .

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : (إن هذا الرجل لَمؤتى ، لَخطيبه أبلغ من خطيبنا ، ولشاعره أبلغ من شاعرنا ، ولأصواته أحلى من أصواتنا) . فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

ويقول الشيخ فى المختصر عن حروب الردة فى عهد أبى بكر :

(لما كان من العرب ماكان ، ومنع من منع منهم الصدقة – جد بأبى بكر الجد فى قتالهم ، فدعا زيد بن الخطاب يستخلفه (فى القيادة) فقال : « قد كنت أرجو أنْ أرزق الشهادة مع رسول الله ﷺ ، فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرزقها فى هذا الوجه . وإن أمير الجيش لا ينبغى أن يباشر القتال بنفسه » فدعا أبا حذيفة بن عتبة ، فعرض عليه ذلك . فقال : مثلما قال زيد ، فدعا سالماً مولى أبى حذيفة فأبى عليه ، فدعا خالداً فأمره على الناس . فسير خالداً إلى اليمامة .

فلما فرغ خالد من بزاخة وبنى عامر أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بنى تميم وإلى اليمامة . . . ففرق خالد السرايا فى نواحيها ، فأتت سرية منهم بنى حنظلة وسيدهم مالك بن نويرة ، وكان قد بعثه النبى ﷺ مصدقا على قومه ، فجمع صدقاتهم ، =

عنفوة فأقطعهم النبي مقاطعات من أرض بنى حنيفة ، وكان فى الوفد « مسيلمة » بن حبيب خلفوه فى رحالهم ، فأجازه النبي معهم وحذّر منه . وكان تحذيره تنبيها على ما سينجم فى هذه البقعة من الأرض ، حيث العصبية الجاهلية فى عنفوانها ، وحيث تدور من بعده عليه الصلاة والسلام أعنف المعارك وأخطرها على الإسلام .

وسنرى حروب الردة فى أرض اليمامة وضراوتها ووقوعها بين فريقين يشهدان شهادة الإسلام ، لكنهما مختلفان فى فهم حقيقة التوحيد ، درسا أساسيا من دروس الشيخ فى مجالس تدريسه وكتبه . وبخاصة (مختصر سيرة الرسول) .

= فلما بلغته وفاة النبى ﷺ جفّل إبل الصدقة : أى ردها إلى أصحابها ، ولذلك سمى الجفول ، فأسندوا إليه أمرهم) .

ويروى الشيخ عن رافع بن خديج قال : (قدمت على النبى ﷺ وفود العرب فلم يقدم علينا وقد أقسى قلوبا ، ولا أحرى ألا يكون الإسلام يقر فى قلوبهم ، من بنى حنيفة وكان مسيلمة مع الوفد) .

صف خالد جيشه وقدم رايته مع زيد بن الخطاب ، ورفع راية الأنصار إلى ثابت بن قيس بن شماس (خطيب النبى يوم وفد بنى تميم) فتقدم بها وجعل على ميمنته أبا حذيفة وعلى ميسرته شجاع بن وهب ، واستعمل على الخيل . . . أسامة بن زيد ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وصبر الفريقان صبرا طويلا حتى كثر القتل والجراح بين الفريقين ، واستمر القتل فى المسلمين وحملة القرآن حتى فنوا إلا قليلا ، وهُزم كل من الفريقين حتى دخل المسلمون معسكر المشركين ودخل المشركون عسكر المسلمين . وجعل زيد بن الخطاب ومعه الراية يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ، وأعتذر إليك من فرار أصحابى ، وجعل يشتد بالراية فى نحور العدو ، ثم ضارب بسيفه حتى قتل رحمه الله ورضى عنه ، فأخذ الراية سالم مولى أبى حذيفة فقال المسلمون إنا نخاف أن نؤتى من قبلك ، قال : بئس حامل القرآن أنا إذا أتيتم من قبلى ، ونادت الأنصار ثابت بن قيس ومعه رايتهم : الزمها ، فإنها ملاك القوم ، فحفر سالم لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه ، وحفر ثابت لرجليه مثل ذلك ثم لزما رايتهما .

ولقد كان الناس يتفرقون فى كل وجه وإن زيدا وثابتا لقائمان حتى قتل سالم وقتل أبوحذيفة مولاه .

قال وحشى بن حرب : اقتتلنا قتالا شديدا حتى رأيت شهب النار تخرج من خلال السيوف حتى سمعت لها صوتا كالأجراس ، ولم يلق المسلمون عدوا أشد نكاية من بنى حنيفة . لقوهم بالموت الناقع ، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق .

ولما رجع عبد الله بن عمر إلى المدينة قال له أبوه : (ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عنى ؟) وأجاب عبد الله : (قد حرصت على أن يكون ذلك ، ولكن نفسى تأخرت . وقد أكرمه الله بالشهادة) . وذات يوم ذكر عمر وقعة اليمامة فقال : (ألحت السيوف على أهل السوابق ولم يكن المعول يومئذ إلا عليهم ، خافوا على الإسلام أن يكسر بابه فيدخل منه إن ظهر مسيلمة . فمنع الله الإسلام بهم حتى قتل عدوه وأظهر كلمته . وقدموا رحمهم الله على ما يسرون به من ثواب جهاد هم من كذب على الله ورسوله فاستحربهم القتل فرحم الله تلك الوجوه) .

ومضى زمن على أيام اليمامة وكان عمر يصلى ، فرأى رجلا متنكبا قوسه ، فسأل عنه وعرف أنه متمم بن نويرة أخو مالك ابن نويرة . فاستنشده رثاءه المشهور فى أخيه فأنشده حتى بلغ قوله :

وكنا كندمانى جزيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

قال عمر : هذا والله التأبين لوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيدا بمثل مارثيت أخاك . قال متمم : لو أن أخى مات على مامات عليه أخوك مارثيته . قال عمر : ماعزانى أحد عن أخى بمثل ماعزانى به متمم .

والسيرة درس تستحبه الأنفس ، وفى مختصرها تعليق على الحوادث ، واستخلاص للعبر بلغ فيه الشيخ غاياته .

ودروس الردة عن الإسلام كله أو بعضه وقيام الحرب من جراء فساد الاعتقاد مع الإقرار بالشهادة حجة للشيخ فى صميم منهاجه من :

١ – وجوب إخلاص الخضوع لله وحكمه .

٢ – وجوب الجهاد والحرب لإعادة المرتد عن بعض الأحكام إلى دين الله الصحيح .

والحجج أفعل فى الأنفس إذا كانت من سُلاّف المحجوجين أنفسهم ، أو وقعت فى عقر دارهم فى نجد كلها أو اليمامة خاصةً . فهى عندئذ تستعمل الزمان الحبيب ، والمكان القريب ، والعامل الإنسانى فى الإثبات .

٣ – أما الحجة على الشيخ فهى أن يعد للأمر عدته فى نفسه وفى الناس وفى الأمير وفى جند الدعوة . فهؤلاء قومه وهذا تاريخهم . وهو ينشد هداية الناس . ووضع الندى فى موضع السيف مُضر كوضع السيف فى موضعه .

٤ – ومن الحجج على الأمير أن يتهور سيف الأمير أو يكون كافر الغضب .

ومن أجل ذلك كانت الحرب مشغلة له وإن لم يخرج مع الأمير للحرب ، فهو مسئول عن العلم والإرشاد ، مسئول عن شريعة الحرب والسلام ، لكن العلم ميدانه وحده ، والحرب ميدان الأمير وجند الدعوة .

* * *

فى هذه الحقبة النادرة من تاريخ الإسلام عدسة صغيرة يبصر الناظر من خلالها بمعان عظيمة عظمة الإسلام ، ونتائج لها أعظم الأثر فى خلوده . ومن المعانى جلال الاستشهاد فى سبيل إزاحة الكفر من عقول أهل نجد ، وتطهير جزيرة العرب من الشرك ، بتطهير نجد . وفداحة الخسائر بموت القراء حتى خيف على القرآن ، فأمر الخليفة بجمعه . ومنها إذنه للجيوش أن تفتح أرض الله للإسلام خارج جزيرة العرب بعد حروب نجد وبعد الانتصار الذى يأذن للدعوة بالانتشار .

ولو تهاون « الصديق » فى ردة العرب لا نطوى المسلمون فى جزيرة العرب على أنفسهم منهزمين .

ومن هذه النتائج يتراءى أثر أبى بكر الصديق فى كمال حجمه فى الإسلام . وإن كانت خلافته أقصر خلافة للراشدين رضى الله عنهم .

أما عن ميادين المعارك فحسبنا منها فى هذا المقام أمور :

١ – أن الكفاح الذى سالت فيه أرواح هؤلاء العظماء قد تم فى المواقع التى ذكرناها والتى

ستدور فيها أو فى القريب منها معارك دعوة التوحيد الجديدة . وأن بعض من سيخوضونها هم حفدة القوم الذين ناصروا خالدا فحاربوا معه أو ناهضوه وقاتلوا المهاجرين والأنصار .

٢ – أن هذه الناحية وحدها بين عشرات الأنحاء فى جزيرة العرب كان فيها متنبئون ثلاثة هم · مسيلمة وطليحة وسجاح بين خمسة فى كل أرض المسلمين ! وأن هؤلاء المتنبئين كانوا يطلبون بالسيف لأنفسهم صدارة العرب ، وأن مسيلمة الكذاب طلب إلى النبى ﷺ (أول ما تنبأ مسيلمة) : أن يكون له نصف النبوة ونصف الأرض وقال عن قريش إنهم لا يعدلون . ولم ينس أن ينزل على نفسه وحياً ، وتابعه قومه كفراً :

سأله طليحة النمرى : من يأتيك ؟ (يقصد بالوحى) ؟ قال : رحمان ؟ قال طليحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! واتبع طليحة مسيلمة ، وقتل معه بعد أن كفر متعصبا له ولقومه .

وكمثل تعصب هذين لقومهما وشعوذة مسيلمة كانت شعوذة طليحة الأسدى : لقد تنبأ طليحة فى أخريات حياة النبى ، فهم به أحد المسلمين بضربة سيف ، لكنه سلم وأذاع الأشياع أن السلاح لا يجوز فى نبيهم ، فاستغلظ أمره ، ولم يكن أدنى من هذا اللدد عناداً زعيم فزارة الذى تألفه الرسول بالعطاء ، ليطامن جماحهم ويكف غلظتهم ، ومع ذلك كان (عيينة بن حصن الفزارى) بعد أن قبض الرسول يقول :

(والله لأن نتبع نبياً من الحليفين – أسد وغطفان – أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ! وقد مات محمد وبقى طليحة) !

ولما سيق بين أسرى المرتدين إلى أبى بكر بالمدينة كان غلمانها ينخسونه بالجريد ويقولون : أى عدوالله ، أكفرت بعد إيمانك ؟ فكان يقول للغلمان من كبريائه وهمجيته : (والله ما كنت آمنت قط) .

وكان عفو الصديق أكبر . لقد حقن دمه ، ولأم جراح بنى فزارة ، ودفع الجميع ليفتحوا الأرض بالإسلام .

٣ – أن لقبائل بنى تميم مكانة فى العرب كما تزخر بذكرهم كتب الأدب ، فالوفد من أشرافهم إلى المدينة هم الذين دخلوا المسجد ، ونادوا النبى ﷺ من وراء حجراته يفاخرونه ، ولما قبض رسول الله ﷺ كانوا أول المرتدين .

٤ – أن مالك بن نويرة كان عاملا للنبى على بنى يربوع ، فكان فيمن رد الزكاة لأصحابها ولم ير لأبى بكر حقا فى اقتضائها . وجاءته سجاح –وهى تميمية من بنى يربوع– لتنحدر إلى بنى حنيفة فتتزوج مسيلمة الكذاب متنبئ بنى حنيفة ، ثم تفصل عنه راجعة إلى قومها ليلقى مصرعه يوم اليمامة .

٥ – أن يوم اليمامة قد خلده فى التاريخ استشهاد ثلثمائة وستين من المهاجرين وثلثمائة من الأنصار ومن الباقين كثيرين ، مما أبلغ عدد القتلى مائتين وألفاً من المسلمين .

أما جيش مسيلمة وكان قد بلغ الأربعين ألفا فقد أفقده الإصرار على الكفر نصف عدده .

بهذا تخلد أسطورة الروح القبلى فى بنى حنيفة وبنى تميم فيجعل كل فرد فى نجد قلعة مستقلة . وتغرز فى طبيعتهم سليقة الفرقة . وليس بدعا أن نرى زعيم (فرقة النجدات) الخوارج نجدة بن عويمر – وهو من بنى حنيفة – يخرج على الجميع ، ليجعل كل إنسان أمةً وحده ! فيرى إقامة الإمام غير واجبة وحسب الجماعة أن تلتزم الحق فيما بينها وبين الأفراد وبينهم وبين أنفسهم .

* * *

والشيخ يستخرج من هذه الحروب التى أفضنا فى ذكرها ، لما فيها من عبر يستنبطها القارئ ، حججاً له على قومه سواء فى الفعل أو فى الفقه أو فى سياسة الدولة أو فى أصل العقيدة من عمل الصحابة مجتمعين خلف الصديق رضى الله عنهم . وهى – بعد – صيحة للجهاد فى سبيل العقيدة يصيح بها الشيخ ويعمل بأصلها فى مجالس الدرس وساحات المعارك ، كما يستصحبها كل مسلم – لا يستقعده العيش الغفول عن التصدى للمنكر ، أو يستكفه الجبن الجهول عن الجهاد فى سبيل دينه .

ومجالس الدرس هى المجال الحى لهذا العلم العملى ، وهو القوة الضارية فى يد الداعية : يقول فى المختصر ما يفيض فيه فى مجالس علمه ويردده فى رسائله .

(إن بنى حنيفة أشهر أهل الردة ، وهم الذين يعرفهم العامة من أهل الردة ، وهم عند الناس أقبح أهل الردة وأعظمهم كفرا ، وهم مع هذا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤمنون ويصلون . .) .

ويقول : (وطائفة من أهل الردة – صدقوا مسيلمة أن النبى ﷺ أشركه معه فى النبوة ، وذلك أنه أقام شهوداً شهدوا معه بذلك ، ومنهم رجل من الصحابة معروف بالعلم والعبادة يقال له الرجال فصدقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة . . .) .

ويقول : (إن العلماء فى زماننا يقولون : من قال لا إله إلا الله فهو المسلم الحرام المال والدم لا يكفر ولا يقاتل حتى إنهم يصرحون بذلك فى شأن البدو الذين يكذبون بالبعث ، وينكرون الشرائع ، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله) .

ويقول : (إن بقايا من بنى حنيفة لما رجعوا إلى الإسلام وتبرءوا من مسيلمة وأقروا بكذبه كبر ذنبهم عند أنفسهم وتحملوا بأيديهم إلى الثغر لأجل الجهاد فى سبيل الله لعل ذلك يمحو عنهم آثار تلك الردة . . فنزلوا بالكوفة وصار لهم بها محلة معروفة فيها مسجد يقال له مسجد بنى حنيفة ، فمر

بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء ، فسمعوا منهم كلاما معناه أن مسيلمة كان على حق ، وهم جماعة كثيرون ، لكن الذى لم يقله لم ينكره على من قاله ، فرفعوا أمرهم إلى عبد الله ابن مسعود ، فجمع من عنده من الصحابة واستشارهم : هل يقتلهم وإن تابوا أو يستبقيهم ؟

فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة ، وأشار بعضهم باستتابتهم ، فاستتاب بعضهم وقتل بعضهم ولم يستتبه .

والقصة فى صحيح البخارى . . . فأين هذا من كلام من يزعم أنه من العلماء ويقول : البدو ما معهم من الإسلام شعرة إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله . ومع ذلك يحكم بإسلامهم بذلك ؟ أين هذا مما أجمع عليه الصحابة فيمن قال تلك الكلمة أو حضرها ولم ينكر . . .) .

ويقول : (فى قصة أصحاب على بن أبى طالب . لما اعتقدوا فيه الألوهية التى تعتقد اليوم فى أناس من أكفر بنى آدم وأفسقهم . فدعاهم إلى التوبة فأبوا فخدّلهم الأخاديد وملأها حطباً وأضرم فيها النار وقذفهم فيها وهم أحياء ! ومعلوم أن الكافر مثل اليهودى والنصرانى إذا أمر الله بقتله لا يجوز إحراقه بالنار ، فعلم أنهم أغلظ كفرا من اليهود والنصارى . هذا وهم يقومون بالليل ويصومون النهار ويقرءون القرآن آخذين له عن أصحاب رسول الله ﷺ فلما غلوا فى علىّ ذلك الغلو أحرقهم بالنار وهم أحياء . وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم ، فأين هذا ممن يقول تلك المقالة مع اعترافه بهذه القصة وأمثالها واعترافه أن البدو كفروا بالإسلام كله إلا أنهم يقولون لا إله إلا الله ؟ .

واعلم أن جناية هؤلاء إنما هى على الألوهية ، والذين قبلهم جنايتهم على النبوة . وما علمنا لهم جناية على الإلهية ، وهذا مما يبين لك شيئا عن معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام . . .) .

ويقول : (ما وقع فى زمن التابعين : وذلك قصة الجعد بن درهم ، وكان من أشهر الناس بالعلم والعبادة ، فلما جحد شيئا من صفات الله مع كونها مقالة خفية عند الأكثر – ضحى به خالد ابن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ضحاياكم فإنى مضحٍ بالجعد بن درهم . فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل فذبحه ، ولم نعلم أن أحدا من العلماء أنكر عليه ذلك ، بل ذكر ابن القيم إجماعهم على استحسانه . . ، فأين هذا من اعتقاد أعداء الله فى البدو . . . ؟)

انتشار الدعوة

وكلما قلب الشيخ صفحات السيرة العطرة جاءته العبر باليقين فى مستقبل الدعوة ، فمن بعد حروب نجد انطلق المسلمون بالدعوة إلى خارج جزيرة العرب بعد أن ضرستهم الحرب ، فكانت

ميادين تجارب هانت بعدها التضحيات فى القادسية واليرموك ومصر ، ثم كان الموالى يسلمون من دون معارك تهديهم حقائق الحنيفية السمحة وعدالة الحكام التى يأمر بها الإسلام وأداء الأمانة لمستحقيها .

والشيخ لا يضيع الزمان سدى بل يهذب ويربب ، وربما شهد التدريب للحرب . وله آراء فى الحرب تسير مع دروسه إلى ميادين المعارك . . فالتلميذ الصالح هو المجاهد الذى لا يقهر .

وأحسن الشيخ استعمال الزمن ، والزمن قوة من قوى الطبيعة لمن تريد السماء نصره . والله مع الصابرين .

والناس ينسلون إلى الشيخ من كل حدب ، يسقيهم من ينابيع التوحيد وسيرة الرسول وأصول الفقه وفروعه ما يحيى الأنفس .

والحروب فى الأقاليم المجاورة للدرعية دائرة الرحى لا تكاد تتوقف للذود عن العقيدة والدفاع عن الجماعة ، والانتصارات التى وعد بها الله لا تتخلف ، ولهذا شيد الشيخ المسجد الجامع بالدرعية ليسع تلاميذه . . والشيخ حريص على تأليف القلوب بين الوافدين وبين أهل الدرعية ، ليجعل بين الجميع أخوة مثل مؤاخاة رسول الله بين المهاجرين والأنصار .

والشيخ خفيض الصوت مستفيض البيان ، ينساب شرحه فى يسر إلى الآذان والأذهان ، فإذا انتهى الدرس فقلما يفتر لسانه عن قوله : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ويأخذ فى إعداد رسائله إلى العلماء فى بقاع الإسلام . وهى جميعاً تحمل طابع إملائه وتحتوى حججه .

والشيخ يقوت طلابه ويمونهم ، فالعلم مسئولية أخذ الله على العلماء موثقاً أن يبينوها ، فكل نفقة فى سبيل تحصيله وجه عبادة ، وأفضلها جميعاً نفقات تعليمه .

وبهذا تكاثرت ديون الشيخ على مدار السنين . وكان يعجز عن السداد ، فيقبل من الدائنين نظرة الميسرة . ولا يرضى عن التجاوز . حتى جاء نصر الله بفتح مدينة الرياض ، وسدد الشيخ ديونه من نصيبه من الغنائم .

ذلك أن انضمام حريملا والعيينة للدعوة ثبت المحور المكين فى نجد ، فطوت أخبارها جزيرة العرب كأمر واقع ، ونصر وعد الله به ، وإن لم يتوقف الصدام الدموى الذى سنتحدث عن قليل منه بعد ، وقد أفاضت فى تفصيله مؤلفات ابن بشر وابن غنام ، وحسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن انتصارات آل سعود طبقت آفاق نجد ، وخشى أمير الرياض دهام بن دواس أن تعلو كلمة أمير الدرعية وتضؤل قيمة الرياض . فهاجم الدرعية مرات فى سنوات ، لكنه كان ينهزم عنها ، أو ترد الهجوم عليها بهجوم على عاصمته عاماً بعد عام ، حتى حاقت به الهزيمة ، وهرب من الرياض فدخلتها جيوش الموحدين سنة ١١٨٧ بعد نحو عشرين عاماً من الحروب الدامية ، والوفود تترى

تبايع الشيخ على التوحيد قادمة من شتى بلاد نجد : ضرمى وثرمداء والوشم وأثيفية والعزيقية وشقراء والقرعة وسدير والزلافى وجلاجل والحوطة والروضة والخرج والدمام .

* * *

ولما اتجه نشاط الدعوة صوب الحجاز رفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١١٧٢ تقريراً للباب العالى فى القسطنطينية ينبه الأتراك العثمانيين على خطورتها على كيان الدولة العثمانية فى جزيرة العرب ، لكن الدرعية لم تكن تهتم إلا بالدين ، فبعثت وفداً من ثلاثين عالماً لمناقشة علماء الحجاز ، فأفتى قاضى مكة بكفرهم ، وزج الشريف مسعود بالوفد فى السجن ، ومنع أهل نجد من الحج سنين.

حتى إذا تلاحقت انتصارات الدرعية وارتفع شأن الدعوة فى شرقى الجزيرة – حسن النصر أمرها فى أعين الأشراف الذين يحكمون الحجاز باسم (تركيا) وجمّل بالصبر قلوب أهل الدرعية ، فأصبحوا يتصرفون مع الآخرين من مواقع القوة وأخلاق النجاح :

والشيخ يوالى كتبه إلى أهل مكة فيمن يدعوهم للتوحيد الخالص ، ولذلك طلب إليه شريف مكة أحمد بن عبد العزيز علماء نجد ليفاقهوا علماءه ، واستجابت الدرعية ، فبعثت وفداً رسميًّا من العلماء يقدمه خطاب رسمى من أمير الدرعية جواباً عن خطاب رسمى من شريف مكة ، وتظهر فى عبارات خطاب الأمير آثار قلم الإمام الذى أملاه ، وتواضع الداعية ، والجدال بالتى هى أحسن . وهى الطريق التى أمر بها القرآن وجرت عليها السنة . قال : (ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر ، وهو واصل إليكم ، ويحضر فى مجلس الشريف أعزه الله تعالى . هو وعلماء مكة ؛ فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك ، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة . . . .) .

واجتمع الرسول – الشيخ عبد العزيز بن الحصين – وعلماءُ مكة فتفاوضوا فيما هم فيه مختلفون . وهو ثلاث مسائل .

الأولى : ما نسب إلى أنصار محمد بن عبد الوهاب من تكفير المسلمين بالعموم .

الثانية : هدم القباب التى على القبور .

الثالثة : إنكار دعوة الصالحين والشفاعة .

وأنكر ابن الحصين المسألة الأولى ، وتمسك بالثانية قولاً بأنه ليس من العلماء من شك فيها . وتمسك بالثالثة ؛ لأنها من الشرك الذى فعله القدماء ، . . . فجاءوا بكتب الحنابلة ، فوجدوا أن الأمر على ما ذكره ابن الحصين فاقتنعوا .

وسنشهد بعد أكثر من قرن اقتناع علماء مكة والمسلمين معهم ، ولكن بعد حروب دامية يحمل وزرها السياسيون والجهلاء ، بما فرقت المسلمين وعوقت تقدمهم ، وأخرت من وحدة العرب .

كان الشيخ يقول عن نفسه وكأنما يقصد طريقته : (وأنا امرؤ فىّ بعض الحدة ، وهى حدة لاتثبتُ حقاً ولا تخرج بصاحبها عن الجادة) .

والحدة عرض القوة لكنها تضعف الحجة ، وتسد الطريق على الموعظة) .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الجادة ، ومن الإنصاف يصحح الآمر بالمعروف طريقه ؛ ليكون أقصد إلى الغرض وآكد للقبول . وبعض الحدة أنجح للذين يتولون التنفيذ أو القيادة فى بعض الظروف .

وليست عبارات الشيخ إلى شريف مكة أسجح من عباراته فى رسائله إلى العلماء .

يكتب فى خطاب : (فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا وتدرينا عبارات أهل العلم لعل الله يردنا بك إلى الحق) .

وفى ثان (. . . فإذا أنا لم أفهمه ولا معنى آخر ، فأرشدونى عسى الله أن يهدينا وإياكم وإخواننا لما يحب ويرضى) .

فالشيخ لا يدع حقه لباطل غيره .

وفى ثالث يصدع بأصل من أصول الاجتهاد فيقول : (ومتى لم تتبين لكم المسألة لم يحل الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين خطؤه) .

ويصدع بأصل فى خطاب رابع فيقول : (لا يجوز إنكار مسألة لا يُعرف حكم الله فيها) ذلك بأن للشرع فى كل مسألة حكماً وعلى المجتهد طلبه .

وليست الحجج بكثرتها ولكن بقوتها ، ولا هى بعدد من يقبلونها ، ولكن بصحتها وقدر فهمهم لها وانتفاع الناس بها .

والشيخ يكتب فى إحدى رسائله : (قال ابن القيم : واعلم أن الإجماع والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفنا أهل الأرض) .

ومن ثم كانت صلابة الدعوة وإصرار الداعية على نهجه ، مادام على الحق .

والشيخ لا يتهاون مع الضالين ولا يتهادن مع الكافرين ، بل يجادلهم بالفقه الصحيح والسنة الثابتة .

يقول فى خطاب : (وأما مسألة التذكير فكلامك فيها من أعجب العجائب : أنت تقول : (بدعة حسنة) والنبى يقول : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار) ، ولم يستثن شيئاً تشير علينا به ، فنصدقك أنت وأباك ونكذب رسول الله ؟ .

وموسوعة الشيخ الفقهية فياضة بالفقه يقول فى خطاب : (فهذه ستة مواضيع فى « الإقناع » فى باب واحد . إن من فعلها فقد كفر ، وهى دينك ودين أبيك) .

وقال أيضاً – صاحب الإقناع – ومن قال : إن لأحد طريقاً إلى الجنة غير متابعة

محمد ﷺ ، أولا يجب عليه اتباعه ، أو لغيره خروجاً عن اتباعه ، أو قال : انا محتاج إليه فى علم الظاهر دون علم الباطن ، أو فى علم الشريعة دون علم الحقيقة أو قال : إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر عن شريعة موسى - يكفر فى هذا كله) .

وفى خطاب له يرتفع عن فضول التفاصيل ومصطلحات المتكلمين إلى التذكير بصحابة الرسول فيذكر قول أبى الوفاء بن عقيل : (أنا أقطع أن أبا بكر وعمر ما عرفا الجوهر والعرض . فإن رأيت أن طريقة أبى على الجبّائى (المعتزلى) خير لك من أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت) .

وهو بهذا يرفع المنهج السلفى إلى مكانته بين طرائق أهل السنة حيث أبو بكر وعمر فى جوار صاحبهما ﷺ فى الذروة ، وحيث تنخفض دونهما كل رتبة ، سواء أكانت مرتبة الفرقة الجبائية أم مَنْ وراءها من فرق المعتزلة .

* * *

أما عن مشاركة الشيخ فى شئون الإمرة فيمكن إجمالها فى غلبة السلطان الدينى على السلطان الزمنى لصدق إيمان أولى الأمر ، من العالم الكبير والأمير ، وعملهما معاً ، ولصحة إيمان الجماعة التى ترد كل منحرف إلى القاعدة ، فيحسب حسابها أولو الأمر ، علماء كانوا أم أمراء .

وللشيخ سلطان على صاحب السلطان طوال حياته ، لما بينه وبين محمد بن سعود من بيعة كل منهما للآخر ، وما بينه وبين ابنه عبد العزيز ، لأنه معلمه ومعلم الأمة والدولة التى أنشأتها لهم دعوته . وهو فوق ذلك قد خصه بشرح فاتحة الكتاب ، وهذا الوضع ظاهر فى تقديم ابن غنام لتاريخه ، وهو تلميذ الشيخ المكلف بوضع تاريخ هذه الملحمة .

وعندما تأخذ الأمير نشوة النصر يذكره ابن عبد الوهاب بحاجته إلى ذكر الله والشكر لأنعمه ، فيكتب إلى عبد العزيز بن محمد بن سعود بطل الملحمة السعودية الأولى إذ فتح الله عليه مدينة الرياض :

(أحب لك ما أحب لنفسى ، وقد أراك الله فى عدوك مالم تؤمل ؛ والذى أراه أن تكثر من قول الحسن البصرى وكان إذا ابتدأ حديثه يقول :

اللهم لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمعافاة ؛ كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا . ومن كل ماسألنا - ربى - أعطيتنا ؛ فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت) .

والشيخ هو الذى وضع لمحمد بن سعود سياسة الحرب فى أمور معروفة منها :

١ - التدريب العسكرى المستمر على الحرب ، وتحمل المشاق لإعداد العقول السليمة فى الأجسام السليمة ، لتقدر على نشر الدعوة والدفاع عنها .

٢ - الانتفاع بالتكنولوجيا المعاصرة فى الحرب والتدريب على استعمال البنادق ، وكانت قد دخلت حديثاً فى جزيرة العرب مع جيوش الأتراك .

٣ - استعمال الحرب الاقتصادية لتحقيق الأغراض العسكرية والسياسية : كتأديب قوافل التجارة التى تصدف عن طريقها العادى فى أرض نجد ؛ لتمنع تجارات الإقليم مع الخارج ، وتقصر تجاراتها على بلدان العدو .

٤ - الإفادة من تلاميذ الشيخ وأتباعه ، ليكونوا عيوناً للدعوة يظهرون ما يضمر أعداؤها لها . وأعواناً أشداء إذ تقارب جيوشها مدنهم ، فلا يطول حصارها أو قتالها وتستسلم .

٥ - وكان تركه السيادة القانونية فى الإمرة لابن سعود آية الصدق فى دعوته ، بالبعد عن المظاهر ، والزهد فى الحكم ، قدر ما كان وسيلة لتأليف قلوب الحكام .

٦ - وكانت الأناة والرحمة نصيحة دائمة منه للأمير ، ولقد طالما نهنه الأمراء عن القسوة وبخاصة عبد العزيز بن سعود ، إذ نصحه ألا يتهور سيفه ، أو تتجاوز الحدود مسالحه ورباطاته ؛ فالإسلام حنيفية سمحة ورسوله رحمة مهداة .

وإنما انتقل التخريب إلى العراق أوكربلاء - خصوصاً - بعد موت الإمام ، ومن جرائه قتل عبد العزيز بيد شيعى هاله هدم قبة الحسين رضى الله عنه .

وبالإغارة على العراق وجد الأمير السعودى نفسه وجهاً لوجه مع الإمبراطورية التركية ؛ إذ كان الأتراك أصحاب السلطة الفعلية على العراق . ويومئذ بدأ الصدام مع الأتراك .

ورمى الخصوم الشيخ بإفك يهيج له العرب . قالوا : إنه أجاز سبى العرب . وهى شنعة يستنكرها الشيخ بصوت عال ويدلل على استنكاره بتاريخ حروبه . فيقول (لا نرى سبى العرب ولم نفعله ولا نرى قتل النساء والصبيان) فى حين يجيز قتل مانعى الزكاة وتاركى الصلاة كما صنع أبو بكر .

والشيخ بذلك يضرب لنا مثلاً على اجتهاده المطلق ، فهو لا يرى سبى العرب فى حين كان أحمد بن حنبل صاحب المذهب يراه ، لأنه يعمل بالحديث إذا بلغه ولا يعمل برأى غيره مهما كان مصدره . يقول أحمد : (لا أذهب إلى قول عمر «ليس على عربى ملك» قد سبى النبى ﷺ العرب فى غير حديث ، وأبو بكر وعلى حين سبى بنى ناجية) ولم يثبت عند أحمد حديث معاذ أن النبى قال يوم حنين : (لوكان الاسترقاق جائزاً على العرب لكان اليوم . إنما هو أسرى) .

والشافعى يقول فى الأم : (أخبرنا سفيان (بن عيينة) عن الشعبى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (لا يسترق عربى) قال الربيع : قال الشافعى : (ولولا أننا نأثم بالتمنى لتمنينا أن يكون هذا هكذا) .

في سنة ١١٧٩ - ١٧٦٦ مات محمد بن سعود (١) وخلفه ابنه وبطل حروبه بعد إذْ أبلغت بطولات الرجلين دعوة الشيخ أبعد حدود نجد وتخطتها إلى ما تلاها من الأقاليم . عندئذ بعث الشيخ إلى عبد العزيز يعتزل المشاركة في الغزوات والسياسات . وإن ظل يشير في الأمور .

وفي الأعوام العشرين الأخيرة من حياته انقطع لتعليم المسلمين وهو قوى البنية ، رفيع القامة ، له وقار وهيبة ، وجمال منظر الداعية المظفر(٢) .

وطالت مجالس العلم وتعاقبت السنوات تحمى بشائر الفتح والنصر وانتشار الدعوة في الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وعاد إلى الشيخ الفتاء ؛ ففي كل نصر ونجاح فكر أسباب للقوة والفتوة . ولكل أجل كتاب .

* * *

ففي صيف سنة ١٢٠٦ - ١٧٩٢ بلغ الشيخ الواحدة والتسعين من العمر . واخلولق الأجل . وكان قد ثقل ، فصرفته صوارف الهرم عن الحياة العامة ، لكنه ظل يهدج إلى المسجد متهادياً بين اثنين ، حتى انتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً(٣) .

---

(١) تخلد اسمه الآن الجامعة الإسلامية (جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض بالمملكة العربية السعودية ودروسها قاصرة على العلوم الشرعية .

(٢) تزوج الشيخ في حياته الطويلة بأكثر من امرأة : الأولى منهن في العيينة قبل الرحلة الأولى للحجاز ، وتزوج في العراق ، وممن بنى بهن بعدُ الجوهرة بنت الأمير عبد الله بن معمر .

ومن أبنائه ٦ ذكور و٦ إناث .

أما البنون فهم : إبراهيم وهو فقيه استشهد على أيدى الأتراك عقب سقوط الدرعية سنة ١٢٣٣ - وإخوة إبراهيم هم : عبد العزيز - كان قاضي العيينة ثم حريملا - وحسين وعلى وحسن وعبد الله . وقد شارك عبد الله أخاه حسناً في القضاء ، وكان لعبد الله ولدان (سليمان وعبد الرحمن) قتل إبراهيم باشا أولهما وبعث الآخر صغيراً إلى مصر مع أبيه ، فبقى في مصر أربعين عاماً حتى توفي سنة ١٢٧٤ - ١٨٥٨ بعد أن أحيا فيها المذهب الحنبلي . أما حسن فله أبناء علماء أشهرهم : عبد الرحمن بن حسن رئيس قضاة المسلمين في عهد تركي بن عبد الله .

ومن ذريته الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي السعودية في عهد الملوك عبد العزيز بن عبد الرحمن وسعود بن عبد العزيز وفيصل بن عبد العزيز .

وتولى حسين الإفتاء والتدريس مع أبيه .

وله أولاد منهم حسن وله ولد اسمه عبد الله كان رئيس قضاة نجد زماناً ومن بناته أم الملك فيصل .

وأنجب ابنه عبد الرحمن في مصر - وله ذرية فيها . ولما مات منهم محمد بن عبد الرحمن حقى بن أحمد الأزجى (وكان صيدلياً) نعته صحيفة الأهرام الواسعة الانتشار في العالم العربي في عددها الصادر بتاريخ ١٩٣٨/١/٢٣ .

(٣) تولى منصب الدعوة بعد موت الشيخ أبناؤه ، وحفدته ، فاختص آل الشيخ بالعلم والقضاء ، وخلف الشيخ في منصب الدعوة ابنه حسين وكان كفيفا . ولى قضاء الدرعية ، فكانت له الإمامة والخطبة .

وخلف حسينا أخوه عبد الله وابنه على بن حسين .

وهجر علىّ الدرعية إذ دمرتها مدافع الأتراك على ما ستشهده بعد . ولجأ إلى رأس الخيمة على ساحل الخليج العربي ، وشهد ضرب الأسطول البريطاني لها .

=

=

على بن مشرف التميمى

سليمان مات سنة ١٦٦٨ ميلادية

إبراهيم

محمد

عبد الوهاب مات سنة ١١٥٣ — ١٧٤٠

محمد ١١١٥ — ١٢٠٦ = ١٧٠٣ — ١٧٩٢

سليمان ١٧٩٤

حسين

عبد الله

نفى إلى مصر

على

عبد العزيز

إبراهيم

حسن

حسين

على

محمد

عبد الرحمن

عبد الرحمن
نفى إلى مصر . درس فى رواق
الحنابلة بالأزهر وعاد إلى نجد
سنة ١٢٤١

سليمان

حسن

عبدالله قاضى قضاة نجد

أم الملك فيصل بن عبد العزيز

عبد الرحمن

عبد اللطيف

إبراهيم

محمد بن إبراهيم
المفتى العام مات
سنة ١٣٧٢ هـ

عبد الملك
إبراهيم
رئيس هيئة

وسعت حياة الشيخ أجيالاً ثلاثة ! هيأ أولها للدعوة أن تنفذ إلى القلوب ، وهيأ الثانى لها أن تختلط بالدماء إذ تنقلها دماء جيل إلى جيل ، وهيأ الثالث لها أن أصبحت «طريقة حياة» للجماعة ، وبهذا حاربت الأجيال الثلاثة دون عقيدتها بضراوة وستحارب . وعندما يصبح الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر «طريقة حياة» لأمة تمسى خير أمة أخرجت للناس .

وحسب الدعوة وصاحبها جزاء أن تُصنَع هذه الأمة على عينه وبيده ، وأن تبلغ شأوها فى حياته .

والخلد منتهى هم كبار تضع صاحبها فى مكانه من التاريخ قدر ما أحدث من أثر .

وليس من الممكن حصر آثار الشيخ أو تراثه فى الأمة الإسلامية ، لأنها تتعلق بالعقيدة وما تحدثه فى الدنيا من صلاح ، وفى الجماعات من تطور ، وإن ساغ لنا أن نشير إلى بعض الأبعاد التى أدركتها :

أولها : أنه علّم المسلمين فى عهده ومن بعده عقيدة التوحيد الصحيحة ، ولم يكن فى ديار المسلمين أيامئذ عالم أثبت منه قدماً فى الفقه أو إطلاق الاجتهاد ومجانبة التقليد . فلما جاهد دون آرائه وقرن الجهاد بالاجتهاد أضاف إلى ما علمه للقرون اللاحقة أن الجهاد والاجتهاد معاً واجبان لإحداث التقدم واستمراره ، وأن الإصلاح لا تحدثه أقوال المتقعدين ، وإنما يحدثه رجال صلُب يجاهدون ، وأن الجهاد فرض عين على من تعين له ، وقد يكون جيلاً بتمامه .

ثانيها : أن قوام الأمة يعود إلى الاعتدال بظهور رجل واحد صادق العزم يعاونه حكام صدُق تستجيب الأنفس لما يدعونها إليه ، إذ يأخذون أنفسهم به ولا يخالفونهم إلى ما ينهونهم عنه :
إذا حاربوا كانوا أقرب الجيش إلى العدو ، وإذا سالموا كانت للناس فى تقواهم الأسوة الحسنة .

ثالثها : أن الجماعة الصالحة والدولة الصالحة صنوان ، وأن الدعوة الصادقة تقيمهما معاً فالجماعة الساهرة على الفضائل لا تستبقى إلا دولة تحميها .

رابعها : أن المنهج السلفى قد أثبت فى حياة الشيخ وبعد مماته ، وبدليل عملى حى من واقع الجماعة التى نهجته – اقتداره على إحداث الأطوار الضخمة فى تاريخ الأمة من طور الجهاد للاستقلال إلى طور الكفاح لتثبيت الدولة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلى طور استعمال التكنولوجيا المعاصرة فى القرن الرابع عشر كما سنرى بعد .

وهذا الإنجاز الحضارى آية على أبدية الحنيفية السمحة وتمكينها العقل البشرى أن يبلغ شأوه .

= وكان اهتمام الفرنسيين بدعوة ابن عبد الوهاب عدلاً لاهتمام الإنجليز بدولة آل سعود .

ففى أول القرن التاسع عشر للميلاد ظهر فى باريس كتاب (تاريخ الوهابية من بدء ظهورها حتى ١٨٠٩ وضعه Covrrancez عضو المجمع العلمى الذى أنشأه نابليون بمصر ثم صار عضو الأكاديمية الفرنسية .

الفصل الثانى

الدرس الكبير

(قال رجل للنبى ﷺ : ماشاء الله وشئت . قال أجعلتنى لله نداً . قل ماشاء الله وحده) .

حديث شريف

إذا قيست عظمة الدعوة بأصالتها وطريقتها فى بلوغ المقاصد التى تتغياها فعظمة الدعوة الدينية تضعف أو تتضاعف قدر ما فى طريقتها من ورع فى التنفيذ وإخلاص الاتجاه إلى الله .

والإمام نبت تنتجه حاجات بلاده . وتتجلى إمامته فى مقدار ما يمثل روح أمته على طول أعصرها كما يجب أن يكون عليه . لاكما هى عليه ، وفى مبلغ توفيقه فى أن يجعل سيرته درساً من دروس دعوته .

وعظماء الأمم فى هذا أدنى درجة من الأئمة .

وحياة الإمام فى ذاتها إمام .

وروح الأمة الإسلامية الذى تحيا به هو تمسكها بالأمر الأول . وبقدر بعدها منه تقاس هزائمها ونكساتها .

وما هو إلا منهج السلف الصالح أعلنه الأئمة للناس ونفذوه .

وحيث يقوم منهج السلف الصالح لا يكون للبدع مقام . فالناس عندئذ يؤمنون بالله وحده لا شريك له . فتستقيم حياتهم وشخصياتهم ، وتصح عباداتهم وتصلح معاملاتهم . ويستعملون العقل فيجتهدون ولا يقلدون . ويجاهدون العدو الخارجى ، فلا يقبلون الضيم ولا يستسلمون . ويقهرون العدو الداخلى من عيوب أنفسهم أو مجتمعهم .

ولما تتابع المصلحون على نهج ابن عبد الوهاب وتعاليمه كان ذلك نطقاً من الزمان ، مع التطور العلمى والحضارى والتكنولوجى ، بأن الإمام الذى خلد ذكر نجد وأعاد المجد لجزيرة العرب منذ القرن الثانى عشر كان يمثل روح أمته .

فالعربى أو العربى الأصل فارس التوحيد الأمثل . كأنما نتجه الله ونتج الكون العظيم صنوين أو توءمين . فالتسبيح ينصب انصباباً فى كيان العربى بفطرته ، إذ يتحرك بين عناصر الطبيعة الكبيرة

كالصحراء ومد نها وكالجبل والبحر ، أو الصغيرة كحبة الرمل أو قطرة الندى . يأسره الإحساس بوجود خالقه معه فى كل خطوة يخطوها وخطرة تخطر له . فيرعى همسات السماء سمعه ، وكأنها فى حوار معه : بالجلجلة أو الصرير أو القيظ أو الزمهرير ، حيث يقيم أو يرتحل ، من حيث تضن الدنيا بالماء والأمن إلى حيث تسخو .

والدنيا كلها فلاة واسعة الجنبات تحت أظلاف خيله أو أخفاف عيره . فالضيقة والقلة والمعاناة قوة له ، ومعونة على الرحلة . وفيها مفخرة لا مثلبة . والرسول عليه الصلاة والسلام يهديه فى مفازة الحياة بقوله (إن بين أيدينا عقبة كئوداً لا يجوزها إلا المخف) .

ومن الحركة والوحدة والتواصل بين السماء والصحراء كان الذكاء والسخاء والشجاعة وبعد الهمة ، ووجازة العبارة وامتداد الخيال والصدور عن الفطرة . فما أحراه بأن يكون جندىّ السماء .

والعربى منطيق بفطرته وزكانته . يعتبر ببرهان ربه إذ ينظر إلى إبله كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض التى سطحها الخالق ؛ لتعلن له فى كل دقة قلب أو طرفة عين أو نبضة عرق أن كل ذلك بقدر. يسيطر عليه الانسجام التام والتكامل الوثيق والتوافق الدقيق والتوازن الذى لا يتخلف . فتنطقه بأن خالق هذا الكون كله واحد ، وأن هذا الانسجام والتكامل والتوافق والتوازن تسبيحٌ من الأشياء للخالق ، وأن الناس جميعاً يستوون تحت سلطانه ، فلا أحد أقوى من صاحب الصحراء فى إيمانه وفى يقينه بنصر الله له .

وفى البادية طلاقة وفى العروبة وضوح . والإعراب – من أجل ذلك – إفصاح . واللسان العربى لذلك لا يحتمل الغموض .

وفى العرب شموخ وبصيرة يمنعان إلقاء الزمام بالاستسلام للبدوات . ويحضان على الاحتياط فى التسبار ، والاختبار قبل الاختيار ، مع الاستعانة بالفطرة والعقل لاستنباط المجهول عن طريق المعلوم الذى يلمس بالحواس الخمس . . يستوقفه ويكون فكره الأمر الظاهر له . الصافى صفاء السماء فوق إقليمه ؛ ولهذا أوّلَ المستعربون ولم يتأول العرب .

من هذه الواقعية فى العروبة كانت الموضوعية فى الفكر والتزام الصدق ، ومن واقعية العربى وصدقه واحتياطه لمأتى كل أمر التزم العلم الإسلامى من عهد السلف الصالح لكل خبر إسناداً ؛ فى حين تخيل الآخرون وتصوروا أو تعالموا دون تأكيد ، فلم تثبت أخبارهم ولا علومهم ، وتكاثرت فيها الأساطير فارسية وإغريقية .

وخاطب الله البشر باللسان العربى ورسوله العربى ، واختص البلدة المباركة ببيته العتيق ، ليهب للعربية والعروبة وجزيرة العرب صدارة . يقول الشافعى فى الرسالة : (وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى . ولا يجوز – والله أعلم – أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير

لسانه فى حرف واحد . بل كل لسان يتبع لسانه . وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وقد بين الله ذلك فى غير آية من كتابه قال : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين) .

وقال . . وعرفنا بما خصنا به من مكانة فقال : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال : (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه فى كتابه قال : (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . وأم القرى مكة وهى بلده وبلد قومه . فجعلهم فى كتابه خاصة وأنذرهم مع المنذرين عامة) وقال : (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده) .

والعرب مادة الإسلام كما يقول عمر .

أوكما قال قتادة بن دعامة السدوسى (١١٧) : (إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم وضاق بها إبليس وجنوده فأبى الله إلا أن يمضيها ويظهرها ويفلجها وينصرها على من ناوأها . ومن قاتل بها نصر . إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التى يقطعها الراكب فى ليالٍ قلائل ويسيرٍ من الدهر فى فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها) .

ولا عجب أن تنزل الديانات فى العرب وأن يقل من يتنصرون منهم أو يتهودون . فالعربى دينه التوحيد لا يسيغ التشبيه أو التجسيد ، ولا يعبد المال ، ولا يخضع لسيطرة .

وليس عجباً أن يعيش المسلمون بعد الأجيال الثلاثة الأولى فى مستوى أدنى من الإسلام ذاته ، إذ ضعف العرب وتقهقرت العروبة وتكاثر الشعوبيون .

وفى حين لم يدخل العرب بلداً إلا جنوداً لله لا يغزون أو يستعمرون . وكثيراً ما ينسحبون تاركين أهل البلاد المفتوحة بعد إذ يسلمون ، جاء الفرس والترك والتتار إلى بلاد العرب غُزّى جبارين .

فلا تسأل : لماذا أنزلت الديانات فى أرض العرب ولا كيف كان التوحيد سليقة تسبق دعوة ابن عبد الوهاب وجيوش ابن سعود إلى أرجاء جزيرة العرب . فإنما عملت فى خدمة الدعوة الفطرة العربية واللسان العربى والاتجاه إلى البيت العتيق صباح مساء .

* * *

وبعد : فما الذى يدلى به الشيخ فى مجالسه أو فى كتبه ؟ إن رسالات للعلماء وإن مؤلفاتٍ تعد بالعشرات ، وهو قد جلس للتدريس ستين عاماً أو تزيد وأوفد الوفود ، وأوصى الكتائب فى الزحوف ، وعلم الأمراء والعلماء والجمهور والمتفقهة ؟ إن الجواب يمكن تحصيله فى كليات هى :

١ – الدعوة للتوحيد وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر فلا إله إلا الله وحده .

٢ – تحرير الفكر الإنسانى من مذلة التقليد واتباع السابقين إلا أن يكون عملاً نتبعه ونحن

نفهمه عمله الرسول وصحبه فذلك اتباع لا تقليد .

٣ — تحرير الفكر الإسلامى مما يدخله عليه المؤولون من آراء رأوها أو أوهام توهموها أو أكاذيب روج لها أعداء الدين .

٤ — الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد فى سبيل الله أمراً بالمعروف أو ائتماراً به ونهياً عن المنكر أو انتهاء عنه .

والشيخ فى تطبيق هذه المبادئ الأربعة وتعليمها ينهج نهج الرسول عليه الصلاة والسلام وهو التعليم ، وتلقيح ألباب الرجال وتثقيفهم وتطهير أنفسهم . ثم الجهاد للدفاع عن جوهر ما تعلموه

والشيخ يحيى سنة درست ، ويصوب علماء تواتروا على القعود فى صحون المساجد دون عمل ، أو فى قاعات التدريس قانعين بالشروح والتعليقات ومقلدين للسابقين .

ولئن كان من العلماء من رابط مع أصحاب الرباط أوكان فى حاشية الملوك فى الحروب ، إن الشيخ صنع مالم يصنعه هؤلاء وما لم يصنعه شيخه ابن تيمية ذاته ، إذ تعاهد على الحرب مع الأمير ، وخاض معاركها ، ونصر الله المسلمين فيها به . وبدأت به مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام .

وبهذه الخصيصة ، وما أثرت فى تاريخ الإسلام ، وضع ابن عبد الوهاب اسمه فى جوار هذا الثبت الحافل بأسماء أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وابن تيمية .

المدخل إلى التوحيد

أدرك الشيخ ضرورة أن يعاد بنيان المجتمع على أساس الشريعة ، لأن التوحيد لن يبلغ مبلغه إلا أن يحصن إيمان الأفراد . ويهيئ أنفسهم بأوليّات العقيدة ليعملوا بها ، فأتبع كتابه (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) كتباً شتى فى أبوابها مجتمعة فى غرضها ، وهو إعداد الناس ليدركوا معانى الكتاب الأول ويلتزموها .

وهذا ظاهر من استعراض بعض الكتب مثل :

مسائل الجاهلية وشرح سورة الفاتحة وتفسيراته للآيات المتفرقة والسور القصار وكتاب الكبائر ونصيحة المسلمين بأحاديث سيد المرسلين والأصول الثلاثة وأدلتها وأصول الإيمان والكلمات النافعة والمسائل المائة وفضل الإسلام ومجموعة الرسائل . . إلخ . . إلخ .

ولم يكن الشيخ ليوفى على الغاية إلا بما بلغه من شمول فكر يتجلى فى أمرين :

١ — الاقتدار فى فقه العبادات والمعاملات ؛ فالفقه أشرف العلوم الإسلامية ؛ لأنه أداة

العدل ، وضابط العمل فى الصحة والفساد .

ومن شرف الفقه يشرف الفقهاء العاملون به ، ويخزى العلماء الذين لا يعملون .

٢ - الإحاطة الدقيقة بسيرة صاحب الرسالة ومالقيه فى الدعوة إن سلماً وإن حرباً . والسيرة صميم المنهج السلفى ؛ لأنها تطبيق على يد صاحب الشريعة وصحبه. وتطبيق السلف حجة .

وعلى ذلك كان من أهم ما كتبه الشيخ وعلمه بعد كتاب التوحيد مختصران فى الفقه والسيرة : الأول منهما يكفى لوضع الشيخ فى موضعه بين عظماء الفقهاء إذ هو مختصر كبير لكتابين كبيرين فى المذهب .

والآخر يكفى كل مسلم ليدرك صميم الرسالة وجوهرها ويطابق القول والعمل وجلال الأسوة من عمل النبى وصحبه . والسيرة مصدر للفقه .

وفى الاختصار مشقة ودقة. وبخاصة فى كتب الفقه لما يجب لها من جمع الفكر العظيم فى حيز ضئيل ، ثم بسطه للقراء ، مع إسقاط التفاصيل وإضفاء الفهم الذاتى لمن يصنع ذلك ، ومن ذلك يعتبر المزنى بمختصره أفقه أصحاب الشافعى .

وليست سيرة النبى سيرة واحد من العظماء ؛ وإنما هى التطبيق الحى للرسالة كما أنزلها الله وأراد تطبيقها ، فالاختصار فيها درجة اقتدار وإحاطة تضؤل دونها شروح المحشين والمعلقين .

* * *

فى هذه الكتب جميعاً يقدم الشيخ الدليل القرآنى والحديث النبوى وعمل الصحابة والتابعين وإليك أمثالاً :

فى كتاب الكبائر اهتمام ملحوظ بنزاهة الراعى وطاعة الرعية - أى بنظام الدولة - وفى ذلك يحدث حديث ابن عمر : (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أوكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) وحديث ابن عباس : (من كره من أميره شيئاً فليصبر ؛ فإن من خرج من السلطان قيد شبر مات ميتة جاهلية) وحديث عرفجة : (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه) .

وحديث حذيفة : (ستكون بعدى أئمة لا يهتدون بهديى ، ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس ! قلت يا رسول الله : كيف أصنع إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك أو أخذ مالك) .

وحديث أبى هريرة : (سأل أعرابى النبى ﷺ متى الساعة ؟ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ؛ قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) .

وحديث أبى بصير : (لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً فيها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك) .

وفى هذا الباب الأساسى لصلاح الدولة والأمة : ينص الشيخ أسانيد الرحمة فيروى دعاء الرسول : (اللهم من شق على أمتى شيئاً فشق عليهم واشقق عليه . ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق عليه) وحديث أبى مريم الأزدى قال معاوية : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله من حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) .

والشيخ إمام يعطى كل ذى حق حقه ، وحق الأمير الطاعة ، وحق الأمة العمل فى خدمتها فهى تطيعه ما أطاع فيها الله .

— **وفى كتاب فصل الإسلام** يتصدى لحاجات الجماعة فيبين خطر البدع على الفرد والجماعة : ففى الصحيح أن النبى ﷺ قال فى الخوارج (متى لقيتموهم فاقتلوهم) .

ويذكر الشيخ حجة قاطعة (ذكر للنبى : أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا آكل اللحم ؛ وقال ثان : فأما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال ثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء ، قال رابع : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، فقال : لكننى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى) . ويضيف الشيخ « فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل فى العبادة وقيل فيه هذا الكلام الغليظ وسمى فعله رغوباً عن السنة فكيف بغير هذا من البدع ؟ وما ظنك بغير الصحابة ؟

ثم ينتقل الشيخ من الاستشهاد بالتبتل ليتكلم عن التبذل لتتجلى الحجة فى الشىء وفى نقيضه . فيروى عن سعيد أخى الحسين أنه قال : (إنكم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله ولم يظهر فيكم السكران سكر الجهل وسكر حب العيش . وستحولون عن ذلك ، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين) ذلك معنى قوله ﷺ : (طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يُترك ، ويعملون بالسنة حين تُطفأ) . وقوله ﷺ (. . . . إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) .

والشيخ يعرف البدعة تعريفاً نبويًّا لا يرقى إليه اشتباه فيروى حديث حذيفة : (كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبّدوها ؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من قبلكم) .

– **وفى كتاب أصول الإيمان** يروى عن ابن عمر قول النبى ﷺ : (كل شىء بقدر حتى العجز والكيس) .

وعن ابن القيم قوله : فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجد والاجتهاد . ولذلك لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ماكنت أشد اجتهاداً منى الآن . وقال أبو عثمان النهدى لسلمان : لأنا بأول الأمر أشد فرحاً منى بآخره .

ويروى عن أبى الدرداء : (ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته ؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئاً . «وما كان ربك نسياً») .

وعن على : (الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره . إنهُ لا خير فى عبادة لا علم فيها . ولا علم لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها) .

وعن الحسن إذ سمع قوماً يتجادلون : (هؤلاء قوم ملّوا العبادة وخف عليهم القول ، وقل ورعهم ، فتكلموا) .

* * *

وفى الأصول الثلاثة وأدلتها يقول بين تفصيل طويل : إن على كل مسلم أن يتعلم أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً وأن الله لا يرضى أن يَشْرَكَ معه فى عبادته أحدٌ . وأن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

ويوالى الشيخ شرح القيم التى لا معدى عنها لقيام مجتمع سليم فينبه على تضامن الجماعة والبر بذوى القربى ، وعلى أن إحسان العمل بحاجة إلى توفيق الله ورضاه وإن أحسن الإنسان كل الإحسان .

يروى عن عمر وكأنه يرى مصير قاضيه فى تحكيم على ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين : (عن أبى بردة بن أبى موسى قال : قال لى عبد الله بن عمر : هل تدرى ما قال أبى لأبيك ؟ قلت لا ؛ قال : فإن أبى قال لأبيك : ياأباموسى ، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه وجهادنا معه يرد لنا ، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس ؟ فقال أبوك لأبى : لا ، والله ، فقد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك ، ولكنى أنا ، والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن يرد ذلك لنا . وأن كل عمل عملناه ، بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس . فقلت : إن أباك والله كان خيراً من أبى) .

ويروى قول ثوبان عن النبى عليه الصلاة والسلام وكأنما يقصد بها عصرنا الحالى : «توشك

الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل . ولينتزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » قال قائل : يارسول الله ما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »

— ويجتمع فى (المسائل المائة) رؤوس مسائل لم يعد لِلإسهاب فيها فيما بعد . وكلها تدور حول الأمور التى أصلح الله بها بال المسلمين ، ومدارها التوحيد والحرية وطهارة النفس واعتبار الحق هو القيمة الحقيقية .

ويظهر فحوى هذا الكتاب من فاتحته . فالمسألة الأولى من المسائل المائة هى أنهم كانوا فى الجاهلية (يعبدون بإشراك الصالحين فى دعاء الله تعالى وعبادته ، ويرون ذلك من تعظيم الصالحين الذى يحبه الله . ويريدون بذلك شفاعتهم عند الله لظنهم أنهم يحبون ذلك كما قال تعالى فى سورة الزمر ٢–٣ : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون) قال تعالى فى سورة يونس/١٨ : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله فأتى بالإخلاص . . . وهذه المسألة هى الدين كله . ولأجلها يفرق الناس بين مسلم وكافر . وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها شرع الجهاد ، وكما قال تعالى فى البقرة/١٩٣ : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) .

التوحيد

ألف الشيخ كتاب (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) فى ثلاثيناته وهو فى طليعة مؤلفاته إن لم يكن أسبقها كافة[1].

(١) عنى المؤلفون فى سيرة ابن عبد الوهاب ودعوته بهذا الكتاب ومن أوائلهم آل الشيخ أنفسهم ، ولهم فيه أكثر من شرح ، ولعل أكثرها تداولاً كتاب فتح المجيد فى شرح كتاب التوحيد ، ألفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ (١٢٥٦) مضيفاً فيه إلى تأليف سابق قام به حفيد آخر للشيخ هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب سماه (تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد) ، ثم اختصره فى كتاب آخر (قرة عيون الموحدين) .

ونفى عبد الرحمن إلى مصر حيث درس بالأزهر ، ثم عاد إلى نجد سنة ١٢٤١ . يقول عنه ابن بشر فى كتاب (عنوان المجد) ، إذ يروى حوادث تلك السنة : (وفيها أقبل من مصر العالم النحرير والبحر الزاخر الغزير مفيد الطالبين المخصوص بعناية رب العالمين جامع أنواع العلوم الشرعية) .

ولئن ساغ تقديم فحوى الكتاب فى كلمات – فهى أن الشيخ يرى أن التوحيد ليس مجرد توحيد الربوبية : إن الله وحده خلق العالم ، بل الإقرار بأن الله هو المستحق وحده للعبادة مع الالتزام بتنفيذ هذا الإقرار.. وذلك أن المشركين العرب كانوا يقرون بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين بقوله تعالى فى سورة يوسف/١٠٦ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركين) . ويقول فى سورة البقرة/١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) .

فكلمة لا إله إلا الله لا تنفع قائلاً إلا أن يعرف مدلولها نفياً وإثباتاً . ومن قالها على غير علم واعتقاد وعمى فهو جاهل ، ومن أشرك بالله عن جهل وجب تعليمه . فإن أصر لزم حربه .

ويبين الشيخ حقيقة التوحيد كما فهمها المسلمون من السلف الصالح وضروب الشرك التى سقط فيها بعض المسلمين عندما تدهوروا فى القرون اللاحقة ، واعتقدوا اعتقادات فاسدة ، وأقفلوا باب الاجتهاد ، وقعدوا عن الجهاد .

والمعتقدات الفاسدة هى التى أمكنت أعداء المسلمين من المسلمين بجهلهم خصائص الدين . وإطفائهم شعلة العقل وتقليد قليل من الرجال أزمة تفكيرهم ، والرضا بمجرد الحياة على وجه الأرض ، لا بالحياة التى ترفع المسلم درجات .

يستفتح الشيخ بالآى من الكتاب الكريم مثل قوله تعالى فى سورة الذّاريات/٥٦ : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وقوله فى سورة الإسراء/٢٣ : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقوله فى سورة النساء/٣٦ : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقوله فى سورة الأنعام/١٥١ : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) : أى يبدأ بتخصيص الخلق بعبادة الله وباجتناب عبادة الشيطان وعدم إشراك أحد مع الله .

ثم يورد قول ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : (أتل ما حرم ربكم عليكم– إلى قوله وأن هذا صراطى مستقيما) . وحديث معاذ بن جبل : (كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قلت : يارسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا) .

وإيراد الحديثين بعد الآيات شرح للكتاب بالسنة وهو منهج الإمام أحمد تبعه فيه ابن تيمية فابن عبد الوهاب ومن أخذ أخذهم .

وعبادة الخالق لا تقبل عبادة المخلوقات ، وتستلزم الإذعان التام بإسلام الوجه لله تعالى بإخلاص العبادة المنافى للشرك والنفاق . ولا يصدق ذلك ممن خالف قلبه لسانه فهو عاص منافق . و إنما

الصادق هو المحب فى الله والمبغض فى الله ، الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر . قال تعالى فى سورة التوبة / ٧١ : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

والرسول يقول : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) .

وتحقيق التوحيد تصفيته من شوائب الشرك فى العبادة بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات أو الغائبين أو الطواغيت أو الجن أوطلب الخير من غير الله ، فمن دعا غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه أو رهبة منه سواء سأله أو لم يسأله – فهذا هو الشرك ؛ ولهذا حرم الله اتخاذ الشفعاء . فمن اتجه إلى الشفيع فقد أعرض عن الله.والله تعالى يقول فى سورة البقرة/ ١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فمن يتخذ ندا تساوى محبته محبة الله فهو مشرك ؛ وليس شرك المشركين بعبادة الأصنام وحدها ، وإنما بدعاء الغائبين والموتى لجلب نفع أو دفع ضرر ، فهذا من الشرك الأكبر .

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) الأعراف/ ١٨٠ فالتوسل إلى الله يكون بأسمائه وصفاته كقوله (اللهم إنى أسألك أنت الله لا إله إلا أنت . . .) .

والذين يتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله يتبعونهم فى تحريم الحلال وتحليل الحرام ويحبونهم كأنهم أنداد الله – يشركون .

والذين يغلون فى قبور الصالحين ويبنون عليها المساجد والمشاهد يشركون .

ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحو ذلك لرفع البلاء أو دفعه ، فالله يقول فى سورة الزمر/ ٣٨ : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره؟) والرسول يقول : (من تعلق تميمة فلا أتم له الله ومن تعلق ودعة فلا ودع له الله) ويروى ابن مسعود عن الرسول : (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) (١) وإبراهيم النخعى يقول : إنهم كانوا يكرهون التمائم

(١) إذا كان فى الرقية ذكر الله تعالى فإنه يستحب والرقية حينئذ دعاء ورجاء لله تعالى . وقد كانت رقى أهل الجاهلية ممزوجة بالسحر .

ويقول النبى ﷺ : (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية) .

أما الحزن من غير جزع والبكاء بغير عويل ففيه قول عمر إذ سمع النسوة يبكين خالد بن الوليد وأراد بعض منعهن فقال : (دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع ولقلقة) . والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت .

ويقول تعالى فى سورة الإسراء ٥٧ : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) . فالله تعالى ينكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم لأن دعاء الغائبين والموتى لجلب منفعة أو دفع مضرة شرك أكبر لا يغفره الله .

ومن الشرك ما يعطل العقل ويدفع إلى التقليد ويمنع الاجتهاد : قال تعالى فى سورة التوبة ٣١ : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

. . . .

= وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ تلا هذه الآية على عدى بن حاتم الطائى فقال عدى : (يا رسول الله لسنا نعبدهم قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال بلى : قال النبى ﷺ : فتلك عبادتهم) .

والرسول يقول : (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك . .) .

ويقول : (إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله . وإن رزق الله لا يجره حرص ولا يرده كراهية كاره) .

وأما كونهم يعتقدون التأثير منهم فى قضاء حاجاتهم كما كانت تفعله جاهلية العرب ويفعله الصوفية الجهال وينادونهم ويستنجدونهم – فهذا من المنكرات. وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات فحاشى الله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة . فهذا ظن أهل الأوثان !

ولقد كان على وعمر من أصحاب الكرامة ، وكلاهما عاقب على الشرك أشد العقاب : الأول خدّ الأخاديد لمن غلوا فيه . والآخر – وهو المحدَّث – لم يدع لنفسه كرامة ، بل كان من أكثر المسلمين عملاً وتواضعاً لله .

وأما ما قاله المتصوفة من أن منهم أبدالاً ونقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس – فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضى المحدث فى سراج المريدين وابن الجوزى وابن تيمية . والله يقول فى سورة الأعراف ١٨٨ : (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) والرسول حين أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) يقول : (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية (عمة رسول الله ﷺ) لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً !) .

ويقول ابن القيم : (ومن أنواع الشرك طلب الحاجات من الموتى والاستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً) .

والله يقول : (فصل لربك وانحر) : أى لله وحده . .

قال رسول الله ﷺ : (لعن الله من ذبح لغير الله) .

فهذه النذور من عباد القبور تقرباً إلى أصحابها ليقضوا الحاجات كلها شرك لا ريب فيه : يقول الله تعالى : الأنعام/١٣٦ (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . ويقول ابن تيمية : كالنذر للأصنام والشمس والقبور . . والنذور لزيارة القبور معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء بها والنذر لسدنة القبور والمجاورة للقبور معصية لاشك فيها . وإن قصد الناذر تعظيم القبة أو المشهد أو الزاوية أو من دفن فيها فالنذر باطل لا ينعقد بالإجماع .

ومن الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره :

يقول ابن تيمية : فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام فى هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب منها : الغلو فى بعض المشايخ ، بل الغلو فى على بن أبى طالب ، بل الغلو فى المسيح : فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدى « فلان » انصرنى أو أغثنى أو ارزقنى أو أنا فى حسبك ونحو هذه الأقوال – فكل هذا شرك وضلال .

ويقول : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً .

وهذا الذى يقوله الإمام الحنبلى يقوله الأحناف : فى الفتاوى البزازية : من قال أرواح المشايخ حاضرة فقد كفر . وقال الشيخ صنع الله الحنفى : أما قولهم للأولياء تصرفات فى حياتهم وبعد الممات فيرده قوله تعالى فى سورة النمل / ٦١ – ٦٤ (إله مع الله ؟) . وسورة الأعراف / ٥٤ (ألا له الخلق والأمر) . . . إلخ . . . إلخ .

=

كلها من القرآن وغير القرآن . وعلى ذلك كان كل تلاميذ عبد الله بن مسعود ، وعن عتبة بن عامر أنه جاء فى ركب عشرة إلى رسول الله ﷺ ، فبايع تسعة ، وأمسك عن رجل منهم ، فقالوا : ما شأنه ؟ قال : إن فى عضده تميمة فقطع الرجل التميمة فبايعه رسول الله ثم قال : (من علق تميمة فقد أشرك) .

وعن ابن مسعود أنه دخل على امرأته وفى عنقها شىء معقود ، فجذبه فقطعه ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالوا يا أبا عبد الرحمن : هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة ؟ قال شىء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن .

وقد تعلم المسلمون من كتابهم وسنة رسولهم أن يطلبوا المسببات من أسبابها ويعرضوا عما يقوله بعضٌ من أسباب خفية يزعمونها ويروجها سدنة المعابد والمتاجرون بالأوهام والله يقول . (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) – النمل ٦٥ . ويقول (ولو كنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) الأعراف ١٨٨ . ويقول : (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) سبأ – ١٤ والرسول يقول : (من أتى عرافاً فسأله عن شىء فصدقه بما قال لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) ويقول : (من أتى كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) .

والرسول يقول فى السحر والطيرة : (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له) .

وفى النفث فى العقد يقول : (من نفث فى عقدة فقد سحر ومن سحر فقد أشرك) .

وسئل عليه السلام عن النشرة – حل السحر عن المسحور – فقال : (هى من عمل الشيطان)

والسحر واحد من الموبقات وحد الساحر ضربه بالسيف ، فالسحر شرك ، ومن أتى عرافاً فصدقه فقد أتى عملاً من أعمال الشرك .

والنشرة مثل السحر فإن كانت بسحر فهى مثله . وإن كانت بدعاء أو بدواء ونحو ذلك فهى حلال . ولما ذكرت الطيرة – وهى التشاؤم بالمرئى أو المسموع – عند رسول الله قال : أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : (اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

ولأحمد من حديث ابن عمرو : (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا : فما كفارة

= ويقول الرسول : (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) ، فسئل عنه فقال : الرياء .

ويقول : (الشرك الخفى : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) .

فمخافة الآخرين ومراءاتهم شرك صغير ، وهو لا شك كثير الحدوث ، فهو يضعف الإيمان فى الأمة ، وذلك كان أخوف ما خافه علينا .

ذلك ؟ قال : أن يقول (اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) .

والنائحة ترتكب إحدى الكبائر. وفى الحديث شدة الوعيد عليها قال عليه السلام : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) .

ومن الشرك التبرك بشجرة أو نحوها ! قال أبو واقد الليثى : خرجنا مع رسول الله إلى حنين ، ونحن حدثاء ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا ، يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال : (الله أكبر ؛ إنها السنن . قلتم ، والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون [1]) ، لتركبن سنن من كان قبلكم)

ومن الشرك النذر لغير الله : كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور. والعبادة إذا صرفت لغير الله صارت شركاً والرسول يقول : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه) .

ومن الشرك الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله . وهو يقول فى سورة يونس/١٠٦ : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) .

روى الطبرانى (٣٦٠) أنه كان فى زمن رسول الله منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : (إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله) . وما هذا إلا لحماية التوحيد وسد ذريعة الشرك والتأدب مع الله . والله تعالى يقول لنبيه آل عمران/١٢٨ (ليس لك من الأمر شيء) . ولما نزلت على رسول الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) . قام فقال : (يا معشر قريش أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا . . .) .

والشفاعة نوعان :

نوع منفى فى القرآن : يقول الله تعالى فى سورة يونس/١٨ : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) . وهذا شرك بقوله تعالى فى سورة يونس / ١٨ : (سبحانه وتعالى عما يشركون) .

والنوع الآخر : أثبته القرآن ، وقيده الله تعالى بأمرين : ١ – إذنه للشافع قال تعالى فى سورة البقرة / ٢٥٥ : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ، ٢ – ورضاه عمن أذن للشافع أن يشفع فيه قال تعالى فى سورة الأنبياء / ٢٨ : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

الغلو فى الصالحين

ويستطرد الكتاب . فثمة باب تدور حوله أبواب . هو (ماجاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين) . وفى الصحيح عن ابن عباس فى قوله تعالى فى سورة نوح/٢٣ : (وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرنَّ ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا) . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . ولم تعبد . حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم حقيقة أمرهم عبدت . أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل . وأمّا يغوث فكانت لمراد . ثم لبنى القطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لآل ذى الكلاع[1] .

وينتقل من عبادة الأصنام إلى عبادة القبور والنبى ﷺ يحذر منها بقوله : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) . ويقول :(ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك) .

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً .

ومالك يروى فى الموطأ عن الرسول : (اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، وعن ابن عباس قال : (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور

---

(١) ويقول الشيخ فى كتاب مختصر السيرة :

(ومن أقدم أصنامهم مناة وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا رضى الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللات فى الطائف وقيل : إن أصل ذلك رجل يلت السويق للحاج ، فمات ، فعكفوا على قبره وكانت صخرة مربعة سدنتها ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بيتاً ، فكان جميع العرب يعظمونها ، وكان العرب تسمى « زيد اللات وتيم اللات » وهى فى موضع منارة مسجد الطائف . فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها ، وأحرقها بالنار ، ثم اتخذوا العزى وهى أحدث من اللات . وكانت بوادى نخلة فوق ذات عرق . وبنوا عليها بيتاً ، وكانوا يسمعون منها الصوت ، وكانت قريش تعظمها . فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فهدمها .

هبل : وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان ، وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفراً أتوه فاستقسموا بالقدح عنده .

وكان لهم أساف ونائلة : أصلهما أن أسافاً رجل من جرهم ونائلة امرأة منهم ، فدخلا البيت ، ففجرا فيه ، فمسخهما الله حجرين ، فأخرجوهما ، فوضعوهما ليتعظ بهما الناس ، فلما طال الأمد وعبدت الأصنام عُبدا . وذو الخلصة وكان لخثعم وبجيلة بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلى : (ألا تريحنى من ذى الخلصة) فسار إليه فقاتلته همدان فظفر بهم وهدمه . وكان لأهل كل واد بمكة صنم إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به . وصنم عم أنس ، وكان لخولان وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظم الكعبة ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعن فى وجوهها وعيونها ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) الإسراء ٨١ . وهى تتساقط على رءوسها . ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وأحرقت .

والمتخذين عليها المساجد والسرج) . وعن علي زين العابدين أنه رأى رجلاًيجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي فيدخلها فيدعو فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : (لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ وإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم [١]) .

وهذا يدل على أن قصد القبر للسلام ممن يدخل ليصلي منهي عنه . وأنّ قصده للدعاء منهي عنه .

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك [٢] . وكان الصحابة – والتابعون يأتون مسجد النبي فيصلون فإذا قضوا الصلاة قعدوا أوخرجوا . ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هي السنة . وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه في قوله (لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني) .

والحسن بن زين العابدين يقول لسهيل بن أبي سهيل : ماذا رأيت عند القبر؟ فيجيبه : سلمت على النبي ﷺ . فيقول له : إذا دخلت المسجد فسلم . إن رسول الله ﷺ قال : لا تتخذوا قبري عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم . لُعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

* * *

وفي كتاب كشف الشبهات يواصل الشيخ شرحه الآي واحدة بعد أخرى . يقول : (اقرأ قوله

---

(١) العيد يجمع معاني : منها الاجتماع المعتاد ، واليوم العائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها الأعمال التي تتبع فيه (الاحتفالات والموالد) .

(٢) يقول مالك : (لا أرى لمن يدخل مسجد الرسول أن يقف عند قبر الرسول ﷺ ولكن يسلم ويمضي) .

ويقول القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ، فأعلوا حيطان تربته . وسدوا المداخل إليها . وجعلوها محدقة بقبره ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره .

ونص أحمد أن يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره . ويقول الشافعي : أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة على من بعده من الناس .

وذكر الزيلعي أنه يكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضي خان (وهو حنفي) أنه لا يبنى على القبور ولا يجصص كراهة تحريم .

وابن حجر يذكر أن بناء القباب على القبور من الكبائر .

ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر ، وأوصى الأسود بن يزيد : (لا تجعلوا على قبري آجراً) ، وأوصى أبو هريرة عند موته لا يضربوا على قبره فسطاطاً ، وكره الإمام أحمد أن يُضرب على القبر فسطاط .

وبعد أن منع الرسول زيارة القبور أباحها للاعتبار .

تعالى فى سورة يونس/ ٣١ : «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) .
وبقوله تعالى فى سورة «المؤمنون»/ ٨٤-٨٩ : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون) . وغير ذلك من الآيات فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا وعرفت أن التوحيد الذى جحدوه هو توحيد العبادة الذى يسميه المشركون فى زماننا الاعتقاد ، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى فى الجن/ ١٨ : (وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا) . وكما قال تعالى فى الرعد/١٤ : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء) . . . . وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم فى الإسلام- عرفت حقيقة التوحيد الذى دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون .

وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله إلا الله ، فإن الإله عندهم هو الذى يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرةً أو قبراً أو جنياً ، وإنما يعنون بالإله ما يعنى المشركون فى زماننا من كلمة السيد[1] فأتاهم النبى ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد . . . معناها لا مجرد لفظها) .

الفتاوى :

فى فتاوى الشيخ ورسائله توضيح لفكره ، وكذلك فتاوى أبنائه بعده وكانوا حقاً علماء ، وإليك أمثالاً :

١ - رسالة جوابية من محمد بن عبد الوهاب .

يقول فى الشرك : (. . . قيل : إن أول آية نزلت قوله سبحانه وتعالى بعد اقرأ- (يأيها المدثّر قم فأنذر) قف عندها ثم قف ثم قف تر العجب العجيب . وتتبين لك ما أضاع الناس من الأصول . وكذلك قوله تعالى فى النحل /٣٦ : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) الآية وكذلك قوله تعالى فى الجاثية /٢٣ : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . . . ولكن أظنك وكثيراً من أهل هذا

(١) قول أهل زماننا : (سيدى فلان) .

الزمان ما تعرف من الآلهة المعبودة إلاّ هبل ويغوث ويعوق ونسراً واللات والعزى ومناة . فمن جاد فهمه عرف أن المقامات المعبودة اليوم من البشر والشجر والحجر ونحوها مثل شمسان وإدريس وأبو حديدة ونحوهم ، منها . هذا ما أثمر به الجهل والغفلة)

ويقول فى الاجتهاد : (... وهذه المسائل وأشباهها مما يقع الخلاف فيه بين السلف والخلف من غير نكير من بعضهم على بعض ، فإذا رأيتم من يعمل ببعض هذه الأقوال المذكورة بالمنع مع كونه قد اتقى الله ما استطاع لم يحل لأحد الإنكار عليه اللهم إلا أن يتبين الحق فلا يحل لأحد أن يتركه لقول أحد من الناس . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يختلفون فى بعض المسائل من غير نكير ما لم يتبين النص ، فيجب على المؤمن أن يحترم أهل العلم ويوقرهم ولو أخطئوا ، لكن لا يتخذهم أرباباً من دون الله ...) .

– وفى الصفات يقول ابنه عبد الله :

(الجواب وبالله التوفيق عن آيات الصفات وأحاديثها التى اختلف فيها علماء الإسلام فنقول : الذى نعتقد وندين لله به هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم رضى الله عنهم أجمعين . وهو الإيمان بذلك والإقرار به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ...) .

وفى جواب من يسأل عمن كان يستغيث بالمخلوق عند الشدائد بالنداء والدعاء ويستغيث ويتوسل ويتوجه بنبيه أو بالصالحين .

(والجواب : أما سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره تفريج الكربات وإغاثة اللهفات والاستغاثة به فى الأمور المهات فهو من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين ... ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبى ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ولا كانوا يقصدون قبورهم للدعاء والصلاة عندها ، ولهذا ثبت فى الصحيح أن الناس لما قحطوا فى زمان عمر رضى الله عنه استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال : اللهم ، إنا كنا نتوسل إليك إذا أجدبنا بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . وكذلك معاوية رضى الله عنه لما استقى لأهل الشام توسل بيزيد بن الأسود الجرشى ، فهذا الذى ذكره عمر رضى الله عنه توسل منهم بدعاء النبى وشفاعته فى حياته ؛ ولهذا توسل بعده بدعاء العباس وتوسل معاوية بدعاء يزيد بن الأسود [1] ..)

---

(١) وتستمر الفتوى .

– وهذه الأمور المبدّعة عند القبور أنواع : أبعدها عن الشرع من يسأل الميت كما يفعله كثير من الناس . وهؤلاء من جنس عباد الأصنام . فكل من دعا نبياً أو ولياً أو صالحاً وجعل فيه نوعاً من الإلهية فقد تناولته هذه الآية . فإنها عامة فى كل من دعا من دون=

ويفتى أبناء الشيخ حسين وإبراهيم وعبد الله وعلى فرادى أو مجتمعين . من ذلك : قول حسين وعبد الله جواباً على استفتاء : (إن عقيدة الشيخ رحمه الله . . هى عقيدة سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان . . . وإذا تفقه الرجل فى مذهب من المذاهب الأربعة ثم رأى حديثاً يخالف مذهبه فاتبع الدليل وترك مذهبه - كان هذا مستحباً بل واجباً عليه إذا تبين له الدليل . ولا يكون مخالفاً لإمامه الذى اتبعه . فإن الأئمة كلهم متفقون على هذا الأصل . . .

. .وأما إذا لم يكن عند الرجل دليل فى المسألة يخالف القول الذى نص عليه العلماء أصحاب المذاهب فنرجو أنه يجوز له العمل به لأن رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا وإنما أخذوا الأدلة من أقوال الصحابة فمن بعدهم . ولكنَ لا ينبغى الجزم بأن هذا شرع الله وشرع رسوله ، حتى يتبين الدليل الذى لا معارض له فى المسألة . وهذا عمل سلف الأمة وأئمتها قديماً وحديثاً والذى ننكره هو التعصب للمذاهب وترك اتباع الدليل(١) .

= الله مدعوا . . . سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد فعل الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . . . وقد نص الأئمة أنه لا يجوز الاستغاثة بمخلوق . . . والغلو فى الصالحين هو من فعل المشركين كما حكاه الله تعالى عن قوم نوح . . .

. فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من العبادة مثل أن يقول : يا سيدى فلان انصرنى أو أغثنى أو ارزقنى أو آجرنى أو أنا فى حسبك أو نحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه . . .

النوع الثانى من الأمور المبدّعة عند القبور أن يسأل الله تعالى به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين . وهو من البدع المحدثة فى الإسلام ، ولكن بعض العلماء يرخص فيه ، وبعضهم ينهى عنه ويكرهه . وليس هذا مثل النوع الذى قبله ؛ فإنه لا يصل إلى الشرك الأكبر عند من كرهه ولا يسمى هذا استغاثة بالرسول ، وإنما هو سؤال به . والفرق بينه وبين الذى قبله فرق عظيم ؛ فإن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له والمتوسل به لا يدعو ولا يطلب منه ولا يسأل . وإنما يطلب به ، والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ لا نعلم أحداً من السلف فعله : قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة : (لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول : (بمعقد العز من عرشك أو بحق خلقك) وهو قول أبى يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا . وأكره بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام .

النوع الثالث من الأنواع المبدّعة عند القبور : أن يظن أن الدعاء عندها مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء فى المسجد ، فيقصد القبر لذلك ؛ فإن هذا من المنكرات إجماعاً . . .) .

(. . . . من مات على التوحيد وإقامة قواعد الإسلام الخمس وأصول الإيمان الستة ولكن كان يدعو وينادى ويتوسل فى الدعاء إذا دعا ربه ويتوجه بنبيه فى دعائه معتمداً على الحديثين اللذين ذكرناهما أو جهلا منه وغباوة - كيف حكمهم ؟

. فالجواب أن يقال : . . . فى أزمنة الفترات وغلبة الجهل لا يكفر الشخص المعين بذلك حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ، ويبين له ويعرف أن هذا هو الشرك الأكبر الذى حرمه الله ورسوله . فإذا بلغته الحجة وتليت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ثم أصر على شركه - فهو كافر ؛ بخلاف من فعل ذلك جهالة منه ولم ينبه على ذلك . والجاهل فعله كفر . ولكن لا يحكم بكفره إلا بعد بلوغ الحجة إليه . وأما من مات وهو يفعل الشرك جهلاً لا عناداً فهذا نكل أمره إلى الله تعالى . . .) .

(١) وتستمر الفتوى .

لا يجوز تقبيل أيدى العلماء والسادة الأغنياء فى التحية ، ويتخذ ذلك عادة وسنة ، بل ذلك من البدع المحدثة . فيجب على المسلمين إزالتها والنهى عنها . وأما تقبيل اليد فى بعض الأحيان كتقبيل يد العالم لمعلمه ، أو من كان من أهل بيت رسول الله ﷺ =

....

= لشرف نسبه – فلا بأس بذلك إذا لم يجعل عادة مستمرة كما صح فى الحديث : أن أبا عبيدة قبل يد عمر . والفرق أن ما يفعل فى بعض الأحيان يجوز ، وأما ما يجعل عادة وسنة فلا يجوز .

– إن الرجل لا يكون مسلماً إلا إذا عرف التوحيد ودان به ، فمن قال : لا أعادى المشركين . أو عاداهم ولم يكفرهم ، أو قال : لا أتعرض لأهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر أو الشرك وعادوا دين الله ، أو قال : لا أتعرض للقباب – فهذا لا يكون مسلماً بل هو ممن قال الله فيهم فى سورة النساء ١٥٠ – ١٥١ :

(ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً) . والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم فقال فى المجادلة: ٢٢ : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . . .

– إن قول (سيدى) ونحوه إن قصد به أن هذا الرجل معبوده الذى يدعوه عند الشدة لتفريج الأزمات وإغاثة اللهفات فإن ذلك شرك أكبر ، وأما إن كان مراده غير ذلك كما يقول التلميذ لشيخه (سيدى) أو يقال للأمير والشريف أو لمن كان من أهل بيت الرسول هذا سيد ، فهذ لا بأس به . ولكن لا يجعل عادة وسنة بحيث لا يتكلم إلا به . وثبت أن رسول الله قال : (أنا سيد ولد آدم) وقال فى الحسن : (إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) .

– إن صاحب البردة ومن فى كلامه الشرك والغلو فى الذين ماتوا لا نحكم بكفرهم ، وإنما الواجب إنكار هذا الكلام وبيان أن من اعتقد هذا على الظاهر فهو مشرك كافر . وأما القائل فيرد أمره إلى الله سبحانه . ولا ينبغى التعرض للأموات ، لأنه لا يعلم هل تاب أو لا ؟ وأما شعر ابن الفارض فإنه كفر صريح ، لأنه شاعر الاتحادية الذين لا يفرقون بين العابد والمعبود والرب والمربوب ، بل يقول بوحدة الوجود وهو من طائفة ابن عربى الذين قال فيهم ابن المقرى الشافعى : من شك فى كفر طائفة ابن عربى فهو كافر والله أعلم .

– إن القراءة على القبور وحمل المصاحف إلى القبور يفعله بعض الناس . يجلسون سبعة أيام ويسمونها الشدة . وكذلك اجتماع الناس عند أهل الميت سبعة أيام ويقرءون فاتحة الكتاب ويرفعون أيديهم بالدعاء للميت ، فكل هذا من البدع والمنكرات المحدثة التى تجب إزالتها ، ولم تكن تفعل على عهد الرسول ﷺ ولا فى عهد خلفائه الراشدين .

الفصل الثالث

بين الاجتهاد والتأويل

(الفقيه من يطابق بين الواقع والواجب . وينفذ الواجب على حسب استطاعته ، لا من يلقى العداوة بين الواقع والواجب ، فلكل زمان حكم ، والناس أشبه بزمانهم منهم بآبائهم) .

ابن القيم

(الفرع الأول) الاجتهاد :

والشيخ يرى باب الاجتهاد مفتوحا لمن كملت له العدة ، لقد فوض رسول الله ﷺ بعض صحبه فى أن يجتهد فى حضوره أو غيابه ، وحث على الاجتهاد حيث قال : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر) : أى وعد المجتهد بالثواب سواء أأخطأ أم أصاب ! .

والشيخ يرى باب الاجتهاد مفتوحاً على الدوام ، فالإمام أحمد يستدل على ذلك بقوله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك) . ولئن فُهم التقليد قبل بلوغ الحجة — لن يفهم التقليد ممن بلغته ؛ لأنه عندئذ يكون ممن قال تعالى فيهم فى سورة التوبة : (اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

والشيخ يصنع صنيع ابن تيمية ويأخذ بمذهب ابن حنبل. فإذا لم يقتنع بحث فى غيره من مذاهب أهل السنة وأخذ بما يسعفه الدليل (١). وإن كانت سعة المذهب الحنبلى تسعفه حتى فيما قال : إنه رجع فيه إلى عموم الأدلة مثل تحديد الشيخ الدية بثمانمائة ريال بدلاً من مائة ناقة ، فأحلّ الثمن محل العين . فهذا تطبيق للسنة على الواقع ، والأئمة جميعاً لا يأخذون مأخذاً على المجتهد إذا كان معه دليل صحيح من الكتاب والسنة .

---

(١) يقول عبد الله بن الشيخ : (ونحن أيضاً فى الفروع من مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا ننكر على من قلد الأئمة الأربعة أو غيرهم) ويقول : (والمقصود بيان ما نحن عليه من الدين ، وأنه عبادة الله وحده لا شريك له تخلع جميع الشرك . ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . وبها تخلع جميع البدع إلا بدعة لها أصل فى الشرع :كجمع المصحف فى كتاب واحد ، وجمع عمر رضى الله عنه الصحابة على صلاة التراويح ، وجمع ابن مسعود أصحابه على القصص كل خميس ونحو ذلك) . وهم يشترطون أن يكون ما يثبت خلاف مذهب أحمد قد أقره مذهب من المذاهب الثلاثة الأخرى .

والشيخ يسلك فى التأليف الفقهى مسلك ابن قدامة – موفق الدين – كما سنرى بعد – فى كتابه فى فقه الإمام أحمد المسمى (مختصر الإنصاف والشرح الكبير) ففيه فقه مقارن بين جميع المذاهب [1]

ولم يكن ابن عبد الوهاب ليبلغ شأوه إلا أن يكون فقيهاً من أعلى مستوى فى عصره سواء فى فقه مذهبه أو فى غيره ، وفى المختصر المشار إليه دلائل ذلك .

ذلك أنه موجز كتابين أولها : (المقنع لابن قدامة موفق الدين – وقد شرحه ابن أخيه شمس الدين (٥٩٧ – ٦٨٢) معتمدًا فى شرحه على كتاب (المغنى) لموفق الدين ، وسمى شرحه هذا (الشافى) واشتهر بين الناس بأنه (الشرح الكبير) . وقد شرح ابن تيمية كتاب المقنع بعد شمس الدين – أما آخر الكتابين فكتاب « الإنصاف » أنفس مؤلفات العلامة علاء الدين أبى الحسن على ابن سليمان الصالحى (٨١٧ – ٨٨٥) .

وهذا المختصر بمقارناته الواسعة فى عموم فقه السنة ، وبدقته واستيعابه ، آية على أن ابن عبد الوهاب كان يدرس لتلاميذه الفقه الإسلامى كله على نحو لم يدرسه بعد الأئمة إلا أمثال موفق الدين ، وهو النحو الذى يدرس به علم القانون فى الجامعات المعاصرة الآن .

واختيار الإمام فى القرن الثانى عشر لهذين الكتابين ، وهما يجمعان فقه القرون السابقة حتى القرن التاسع ، إعلان لصلاحيتهما وصلاح الفقه فى كل عصر ليحكم الواقع .

---

(١) ابن قدامة ٥٤٠ – ٦٢٠ من مواليد جبل نابلس – رحل إلى بغداد ، فتعلم من أشياخها ومنهم الجيلانى ، فأمسى علماً على الزهد ، قالوا : من رآه فكأنما رأى بعض الصحابة .

وكتاب المغنى لابن قدامة فى ثلاثة عشر مجلداً . وهو واحد من شروح مختصر الخرقى (أبى القاسم عمر بن الحسين) وقد شرح مختصر الخرقى أكثر من ثلثمائة شرح .

والمغنى لا يكتفى بالفقه الحنبلى ، بل يورد روايات أصحاب المذاهب الأخرى وغيرهم من المجتهدين بادئاً بالصحابة والتابعين وما لهم من تعليل ، ثم يرجح قولاً من الأقوال ويتوسع فى الفروع .

يقول فيه عز الدين بن عبد السلام إمام الشافعية (٦٦٠) : (لم تطب نفسى للإفتاء حتى صارت عندى نسخة المغنى) ويقول : (ما رأيت فى كتب الإسلام مثل المحلى لابن حزم وكتاب المغنى) .

نماذج من الفقه

وحسبنا فى هذا المقام بعض النماذج لبيان « أصالة » الطريقة التى سلكها الشيخ وشمول علمه واتساع فقهه . نختارها من أبواب متفرقة .

فى العبادات

الأنموذج رقم (١) :

فأما جلود السباع فلا يجوز الانتفاع بها ، قال الأوزاعى وإسحق وروى عن ابن سيرين وعروة الرخصة فى الركوب على جلود النمور . ومذهب الشافعى طهارة جلود الحيوانات كلها إلا الكلب والخنزير ، وحكى عن أبى حنيفة طهارة كل جلد وحكى عن مالك لعموم : (أيما إهاب دبغ فقد طهر) ولنا نهيهُ ﷺ عن ركوب جلود النمور رواه أبو داود . وله فى حديث آخر نهى عن جلود السباع والركوب عليها . وإذا قلنا بطهارته بالدباغ لم يحل أكله . فظاهر كلام الشافعى أنه إن كان من مأكول جاز لأن الدباغ ذكاة والأول أصح) .

فهنا عرض لمذاهب الأئمة الأربعة وظهور شخصية المؤلف باختياراته ، وهنا من الرجال غير أئمة المذاهب الأربعة الأوزاعى إمام الشام ، وإسحق إمام خراسان ، ومن الرواة أبو داود . وفيهم من التابعين عروة وابن سيرين. وستتكرر أمثال ذلك فى النماذج التالية .

الأنموذج رقم (٢) :

وفى باب المسح على الخفين يقول : (قال ابن المبارك : ليس فى المسح على الخفين اختلاف ، وعن جرير قال : رأيت رسول الله ﷺ بال ، ثم توضأ ، ومسح خفيه . متفق عليه . قال إبراهيم كان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة ، وقال أحمد . (ليس فى قلبى من المسح شىء . فيه اربعون حديثاً عن رسول الله ﷺ) وقال : هو أفضل من الغسل ، لأنه ﷺ وأصحابه طلبوا الأفضل . وهومذهب الشافعى وإسحق لحديث : (إن الله يحب أن يؤخذ برخصه) ولأن فيه مخالفة أهل البدع . وعنه : الغسل أفضل ؛ لأنه المذكور فى كتاب الله تعالى والمسح رخصة . ويجوز المسح على الجرموقين ، والجرموق مثال الخف إلا أنه يلبس فوق الخف والجوربين : قال ابن المنذر : يروى إباحة المسح على الجوربين عن تسعة من الصحابة . قال أبو حنيفة ومالك والشافعى

لا يجوز إلا أن ينعلا . ولنا قول المغيرة : مسح رسول الله ﷺ على الجوربين والنعلين ، رواه أبو داود والترمذى وصححه . . . . وهذا يدل على أنهما لم يكونا منعولين ؛ لأنهما لو كانا كذلك لم يذكر النعلين فإنه لا يقال مسح على الخف ونعله ولأن الصحابة فعلوه ولم يعرف لهم مخالف فى عصرهم . . . . .)

فهنا المذاهب الأربعة ومذهب إسحق وقولان للإمام أحمد فيهما فقه الأخذ بالرخصة أو التزام النص إن لم تحوج الحال إلى الأخذ بالرخصة وهنا من الرجال الصحابة وإبراهيم والأئمة الأربعة وإمام خراسان وابن المنذر وأصحاب الصحاح .

الأنموذج رقم (٣)

وفى باب التيمم يقول بعد استعراض طويل لشرط طلب الماء . ويتيمم من وجد معه الماء فى حالات (وإن خاف العطش على نفسه تيمم . ولا إعادة إجماعاً . وإن خاف على رفيقه أو بهائمه ، وكذلك إن وجد عطشان يخاف تلفه لزمه سقيه ويتيمم . وقال القاضى لا يلزمه ذلك لأنه محتاج إليه . ولنا أن حرمة الآدمى تقدم على الطهارة إذا رأى حريقاً أو غريقاً عند ضيق الوقت وقد غفر الله لبغى بسقى كلب فالآدمى أولى . . .) فهنا اليسر الذى يباهى به المذهب والجدل القاهر من سنة الرسول والاحتجاج بما هو من باب أولى والارتفاع بصيانة الروح إلى حيث كرم الله بها خلقه ، ودل عليه الرسول بفعله ، وهنا تقديم حرمة الآدمى .

فى المعاملات

الأنموذج رقم (٤) :

من حرية التعامل وهو أنموذج لأعلى مستوى حضارى.نختاره من عقد البيع لأنه يمثل أكثر وجوه التعامل .

(للبيع صورتان : إحداهما الإيجاب والقبول فإن تقدم جاز ، وإن تقدم بلفظ الطلب فقال بعنى بكذا فقال بعتك ففيه روايتان . وإن تقدم بلفظ الاستفهام مثل أتبيعنى لم يصح ، وإن تراخى القبول ماداما فى المجلس ولم يتشاغلا بما يقطعه .

والأخرى : المعاطاة . قال مالك : يقع البيع بما يعتقده الناس بيعاً . وقال بعض الحنفية : يصح فى خسائس الأشياء لأن العرف إنما جرى فى اليسير . ولنا أن الله تعالى أحل البيع ولم يبين كيفيته . فيجب الرجوع فيه إلى العرف . والمسلمون فى أسواقهم وبياعاتهم على ذلك . ولأن البيع

كان موجوداً بينهم ، وإنما علق الشرع عليه أحكاماً وأبقاه على ما كان ، فلا يجوز تغييره بالرأى والتحكم ، ولم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن أحد من أصحابه استعمال الإيجاب والقبول . ولو اشترط ذلك لبينه بياناً عامًّا ، وكذلك فى الهبة والهدية والصدقة فإنه لم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن أصحابه استعمال ذلك فيها) .

وفى هذا النموذج – على وجازته – مرآة علم واسع وفقه عميق . وفيه من القواعد الأصولية الكثير مثل : إن « الأصل الإباحة » ، وإن « ما سكت عنه فهو عفو » ، وإن المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، وإن « العبرة بالمعانى لا بالأشكال والمبانى » .

وفيه من الأصالة الفقهية ما يتجارى هو وآخرَ ما بلغه الفقه العالمى المعاصر من نظريات الإيجاب والقبول والدعوة للتقدم بإيجاب والأعمال التحضيرية للعقد ومجلس العقد وانقطاع مجلس العقد وفيه مذاهب الأئمة الفقهاء .

وهو يشير إلى أن البيع كان معروفاً فى الجاهلية فلم يُلغْهِ الإسلام ، وإنما علق عليه الأحكام ؛ كما سيورد الإمام فيما بعد شروط الصحة مع استبعاد بيوع الجاهلية التى أبطلها الإسلام كبيع الربا أو الملامسة أو المنابذة .

وأخيرًا نجد فيه من ضوابط المعاملات ما يعكس المنهج العلمى الإسلامى كله . فهو منهج يعتد بالواقع لا بالنظريات ، وبالتجربة المحققة لا بالمقولات المطلقة . وفيه استعمال القياس – أى الاجتهاد – وفى ذلك المنهج وسيلة للتطور على مدى العصور .

والشيخ فى كل ذلك يستعمل أصول أحمد : القرآن والسنة . وعمل الصحابة .

الأنموذج رقم (٥) :

وكهيئة هذا الأنموذج نماذج من بابه ومن مستواه فى شروط البيع يقول : (وهى ضربان :

الأول صحيح : وهو ثلاثة أنواع : أحدهما شرط مقتضى البيع كالتقابض ؛ فهذا لا يؤثر إلا تأكيداً والثانى شرط من مصلحة العقد كتأجيل الثمن والرهن أو الضمين أو كون العبد كاتبًا أو صانعًا فهو صحيح يلزم الوفاء به ، وإلا فللمشترى الفسخ لقوله ﷺ « المسلمون عند شروطهم » ولا نعلم فى صحة هذين القسمين خلافاً . فإن شرطها ثيبا فبانت بكرا فلا خيار له ، لأنه زاده خيرًا ، وإن شرط الشاة لبونا صح ، وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ لأنه لا يجوز بيع اللبن فى الضرع . ولنا أنه أمر مقصود ويأخذ جزءاً من الثمن كالصناعة فى الأمة . وإنما لم يجز بيعه منفردًا للجهالة والجهالة فيما كان تبعًا لا تمنع الصحة ، ولذلك يصح بيع أساسات الحيطان والنوى فى التمر وإن لم يجز بيعها منفردين .

والثالث أن يشترط نفعًا معلوما فى المبيع كسكنى الدار شهرًا . ويشترط المشترى نفعًا فى المبيع كحمل الحطب أو تكسيره . وقال الشافعي لا يصح ؛ لأنه روى أنه نهى عن بيع وشرط ، ولنا أن جابرًا باع للنبي جملاً واشترط ظهره إلى المدينة . . . ويصح أن يشترط المشترى نفع البائع فى المبيع مثل أن يشترى ثوبًا ويشترط خياطته ، واحتج أحمد فى جواز الشرط بأن محمد بن مسلمة اشترى من نبطى حزمة حطب وشارطه على حملها .

الثانى : فاسد وهو ثلاثة أنواع : أحدها أن يشترط على صاحبه عقدًا آخر فهذا يبطل البيع لحديث (لا يحل سلف وبيع ولا شرطان فى بيع) قال الترمذى : حديث صحيح . ولأنه ﷺ نهى عن بيعتين فى بيعة كقوله : على أن تزوجنى ابنتك أو على أن أزوجك ابنتى . والثانى شرط . ما ينافى مقتضى البيع ، الثالث أن يشترط شرطًا يعلق البيع . . . واختار الشيخ صحة العقد والشرط فى كل عقد وكل شرط لم يخالف الشرع)

وفى هذا التلخيص صميم المذهب فى المعاملات ومفخرة الفقه الإسلامى كافة ؛ فهو قد بدأ من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أوحرم حلالا) فسبق الفقه الأوربى الذى لم يبلغه الفكر الأوربى فى القرن الماضى إلا بعد ثورات وبعد ثلاثة عشر قرناً من تقرير الإسلام له . فقاعدة « سلطان الإرادة » أو الحرية التعاقدية التى يقوم عليها الفقه العالمى المعاصر تقابل الحرية التعاقدية التى سبق بها الإسلام .

ومن الناحية الفنية فكما يصح كل شرط من مقتضى العقد يصح كل شرط يرمى إلى توكيده ! أويهدف إلى مصلحة يبيحها الشارع جل ثناؤه . وكذلك يفسد البيع أو العقد إذا تجاوز مقصوده أو ركب فيه عقد آخر ، أو اشترط له ما يهدمه .

والمذهب الحنبلى بهذا الانفتاح العظيم للفكر القانونى وللإرادة البشرية يفتح الأبواب للتطور فى كل عصر ، إذ لا يقف عند صورة بذاتها أوحد محدود .

وإذا قاوم الفقه الإسلامى الظلم بمنع الجهالة ليضبط التعامل ؛ فالجهالة اليسيرة تغتفر حتى لا تقف حركة التعامل . وفى كل تعامل قدر من الأخذ والعطاء تغتفر فيه المضاربة . ولا مراء فى أن لأصحاب العقد الفاسد تصحيحه بالعودة فيه إلى التوازن . ومن ثمة يكون فى إعلان فساد العقد مندوحة لتصويب خطأ وقع فيه المتعاقدان حتى لا يظلم أحدهما الآخر .

ومن أهم تطبيقات النظرية فى الفقه الحنبلى شروط الزوجين فى عقد الزواج ووجوب وفاء الرجل للزوجة بشروطها فهو أوجب من الوفاء له بشروطه ؛ إذ له الطلاق وليس لها ، والرسول يقول : (إن أحق الشروط بالوفاء ما استحللتم به الفروج) .

فى أدب القضاء

الأنموذج رقم (٦) :

فى باب أدب القاضى أنموذج جديد من الحرية الواجبة للقضاء والمنهج الفنى الموضوعى ، والصيانة اللازمة والورع المرجوّ لديه ، والاجتهاد المطلوب فى خصوص الواقعة ، وحسن إدارةالجلسة وسيادة القاضى حيث لا سيادة للقانون إلا بسيادة القضاء .

يقول : (كان ابن المنذر يقول : يكره للقاضى أن يفتى فى الأحكام وكان شريح يقول : أنا أقضى ولا أفتى ، وقديماً قيل : العلماء يحشرون مع الأنبياء والقضاة مع السلاطين) .

ويقول : (الأصل فى مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع : أما الكتاب فقوله تعالى فى سورة المائدة / ٤٩ : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) وقوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) وأما السنة فقوله : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر) وأجمعوا على مشروعية نصب القضاة ، وهو فرض كفاية وفيه فضل عظيم لمن قوى على القيام به . ويجب على الإمام أن ينصب فى كل إقليم قاضياً ، ولا يجوز أن يوليه على أن يحكم بمذهب إمام بعينه . . لا نعلم فيه خلافاً) .

ويقول : (يجب أن يكون قوياً من غير عنف ليناً من غير ضعف . حليما متأنيا ذا فطنة . قال عمر بن عبد العزيز : سبع إن فات القاضى منها واحدة كان فيه وصمة : العقل والفقه والورع والنزاهة والصرامة والعلم بالسنن والحلم .

وله أن ينتهر الخصم إذا التوى ويصيح عليه ، وإن قال حكمت على بغير الحق فله تأديبه ، وله العفو . ويستعين بالله ويتوكل عليه ويدعو سرًّا أن يعصمه ويوفقه لما يرضيه . ولا يكره القضاء فى المسجد . ويبدأ بالأول . ويعدل بين الخصمين فى لحظه ولفظه والدخول عليه ، ويحضر مجلسه الفقهاء ويشاورهم ولا يقضى وهو غضبان ولا حاقن ولا فى شدة الجوع والعطش والهم والوجع والبرد المؤلم والحر المزعج والنعاس)

ويقول : (ولا يحل له أن يرتشى ولا يقبل هدية إلا ممن كان يهدى له قبل ولايته بشرط ألا يكون له حكومة ويرد الرشوة والهدية إلى ربها . ويحتُمل أن يجعلها فى بيت المال ، لأنه (يقصد رسول الله ﷺ) لم يأمر ابن اللتبية بردها . قال أحمد : (إذا أهدى البطريق لصاحب الجيش لم تكن له دون سائر الجيش) ويكره أن يتولى البيع والشراء بنفسه ويوكل فيه من لا يعلم أنه وكيله . وإن احتاج لم يكره لأن أبا بكر قصد السوق يتجر حتى فرضوا له) .

فى البدع

الأنموذج رقم (٧) :

فى كتاب فضل الإسلام يتحدث الشيخ عن البدع فيروى عن الحارث الأشعرى عن النبى أنه قال : (آمركم بخمس ، الله أمرنى بهن : السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة ، فإنه من فارق الإسلام قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع . ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى[1] جهنم) فقال رجل : يا رسول الله ، وإن صلى وصام ؟ قال : (وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله)

وفى باب أن البدعة أشد من الكبائر يستند لقوله عزوجل فى سورة النساء / ١١٦ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله (فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب ليضل الناس بغير علم) وقوله فى سورة النحل / ٢٥ (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) .

وفى الصحيح أنه ﷺ قال فى الخوارج : (أينما لقيتموهم فاقتلوهم) وفيه أنه نهى عن قتال أمراءَ الجور ما صلوا .

يروى عن ابن جرير أن رجلا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : (من سَنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء) كذلك (ذكر النبى أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال ثان أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال ثالث أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر : وأما أنا فأصوم ولا أفطر : فقال : (لكننى أنام وأقوم وأصوم وأفطر وأتزوج وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى) ويضيف الشيخ : فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسمى فعله رغوبا عن السنة؟ فكيف بغير هذا من البدع ؟ وما ظنك بغير الصحابة ؟) .

ولقد يكون ظاهر البدعة هو الخير ونتيجتها صرف المسلمين عن الجوهر ، فيعيشون فى العرض دون الجوهر ، وينصرفون عن الدين إلى ممارسات وربما إلى طريقة حياة ليست من الدين .

فالشيخ يروى عن الدارمى آراء مشيخة الصحابة : (أخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمرو بن يحيى

---

(١) جمع جثوة : الشىء المجموع .

قال : سمعت أبى يحدث عن أبيه قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد . فجاء أبو موسى الأشعرى فقال : أو خرج أبو عبد الرحمن ؟ قلنا : لا فجلس معنا فلما خرج قال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى رأيت فى المسجد أمرا أنكرته ولم أر والحمد الله إلا خيراً قال : ما هو؟ قال : إن عشت فستراه ، قال : رأيت فى المسجد قوما : حلقا جلوسًا ، ينتظرون الصلاة ، فى كل حلقة رجل، وفى أيديهم حصى ، فيقول : كبروا مائة فيكبرون مائة ، فيقول : هللوا مائة فيهللون مائة ، فيقول : سبحوا مائة فيسبحون مائه . قال : فماذا قلت لهم قال : ما قلت لهم شيئاً . أنتظر أمرك . قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم شىء ؟ ثم مضى حتى أتى حلقة فقال : ما هذا : قالوا له : حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح .

قال : فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شىء . ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم ، هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون . وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تكسر. والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد ، أو مفتتحى باب ضلالة ؟

قالوا : فالله يأبا عبد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير.

قال : وكم من مريد للخير لم يصبه : إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم . وأيم الله لعل أكثرهم إلا منكم . فقال عمرو بن سلمة : رأينا عامة هؤلاء يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج .

فى التهذيب

الأنموذج رقم (٨) :

يروى الشيخ فى كتاب الكبائر تعريف ابن عباس لها حيث قال : (إن الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب) وأنه قال : إنها أقرب إلى سبعمائة منها إلى سبعين . وإليهما أقرب منها إلى السبع . غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار. ولعبد الرزاق عنه : (هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع) وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : (الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين) وكان متكئاً فجلس فقال : (ألا وقول الزور وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . وعن أبى هريرة كذلك عنه ﷺ ، (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

ومن بعد هذا التعريف يقدم الذنوب والعيوب من الكبْر إلى العجْب إلى الرياء والسمعة إلى الظن بالله إلى إرادة العلو والفساد إلى الفحش ، إلى موادة أعداء الله ، إلى قسوة القلب إلى شر اللسان وكثرة الكلام وشدة الجدال إلى البذاءة والفحش ، إلى الكذب وإخلاف الوعد ، إلى المزاح إلى الملق إلى الرضا بالمعصية إلى السخط إلى القلق ، إلى انعدام الحياء ، إلى الهلع والجبن ، إلى الحرص على المال ، إلى البخل والحسد ، إلى الحلف الكاذب إلى الإفتاء بغير علم ، إلى ما جاء فى ذى الوجهين إلى النمّام ، إلى الذى يفشى السر إلى الحرص على المعصية ، إلى الشفاعة فى الحدود إلى جحود النعمة ، إلى من لم يطع الله ، إلى الغيبة إلى غلول الأمراء وقبول الهدية على الشفاعة ، إلى أذى الجار ، إلى أذى الصالحين ، إلى عدم احترام السن إلى عدم الأمانة فى البيع والشراء ، إلى اغتصاب الحقوق ، إلى إيواء المجرمين ، إلى الفجور فى الخصومة إلى . . . . . إلخ .

وفى هذا الكتاب اهتمام ملحوظ بنزاهة الحكم وأمانة الراعى فى الرعية وطاعتها له ، فالشيخ بعموم دعوته يبنى الدولة كما يبنى الجماعة الصالحة ، فيروى فى باب طاعة الأمراء حديث : (ستكون بعدى أئمة لا يهتدون بهديى ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم منهم رجال قلوبهم شياطين فى جثمان إنس قلت : يا رسول الله كيف أصنع إذا أدركنا ذلك ، قال : تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك أو أخذ مالك) .

(الفرع الثانى) العلم اللدنى أو التأويل الباطنى :

إذا كانت حرية الإرادة وأصل الإباحة أصلين فى المذهب ، واتساع الشروط مضطرباً ذا سعة لكل تعامل تأذن به نصوص الكتاب والسنة ، وكانت العبادات أداء أميناً لنصوص الشارع — فالأصل فى ذلك كله التزام الفحوى الذى يتبادر إلى الذهن من ظاهر النص .

ومن النصوص محكم لا يختلف فى معناه أحد ، ومنها متشابه يحتمل أكثر من معنى : ومثال المحكم آيات الفرائض ، ومثال المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل الصور مثل ا . ل . م وغيرها . ويمكن فى هذا المقام إجمال الحديث فى خلافات التفسير فى أن المسلمين فريقان فى طريقة تخريج فحوى المتشابه .

أولهما من يلتزم المعنى الذى يتبادر إلى الذهن من ظاهر اللفظ .

والآخر من لا يلتزمون ظاهر النص وفيهم طائفتان :

الأولى : تعمد إلى التأويل بمعنى التفسير ؛ فهى أقرب إلى الفريق الأول ، إذ تبحث عن المعنى كما يألفه العرب وإن لم يتبادر للذهن من ظاهر اللفظ ، ويفسرون ما يتشابه من النصوص تفسيراً خاضعاً لمعنى المحكم .

الأخرى : تعمد إلى التأويل الباطنى ، فيترك أصحابها المنهج الإسلامى إلى معان من أخيلتهم أو يفسرون النصوص تفسيرات رمزية تنتج ما يتخيلونه أو يزعمونه من أن علم الشريعة علم الظاهر ، ولكن الحقيقة هى الباطن وقد أسلفنا حديث ذلك .

وفى حين يجتهد أهل السنة لبلوغ الحكم الشرعى بالموضوعية والواقعية التى قام عليها منهج الاجتهاد بالقياس على نص قائم . يلوى المؤولون الباطنيون النصوص لخدمة نظرياتهم التى زعموها لرجالهم أو الحلول أو الوحدة أو الفناء فى الله التى يزعمها المتصوفة المتفلسفون للأولياء .

وقد سبق أن بينا كيف أولوا نصوص الفرائض بأنها أسماء رجال أمروا بمعاداتهم وموالاتهم وغير ذلك .

ومن هذا الخليط الغريب ما يبدعه المسلمون ومنه ما يكفرونه .

والشيخ يذهب فى كل أمره مذهب السلف الصالح فى فهم الدين من ظاهر نصوصه كما فهموه عن النبى وصحبه ولا يذهب مذهب المؤولين – أيًّا كان منحى التأويل .

وإذْ كانت معانى الصفات الإلهية موضوعاً أساساً فى الدين فقد تصدى الشيخ له . قال : فى كتاب التوحيد : (باب من جحد شيئاً من الصفات وقول الله تعالى فى سورة الرعد ٣٠ : (وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) .

وفى صحيح البخارى قال علىّ : (حدثوا الناس بما يعرفون . أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟) وروى عن عبد الرزاق عن ابن عباس : (أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبى ﷺ فى الصفات استنكاراً لذلك فقال : ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه .

(باب قوله تعالى فى الأعراف ١٨٠ : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) .

وباب (ما جاء فى قوله تعالى فى الزمر ٦٧ : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فيروى : عن ابن مسعود أنه قال : « جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد الله يحمل السموات على إصبع والأرض على إصبع والشجر على إصبع والماء على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك . فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة)[1].

---

(١) فى كتاب فتح المجيد قال المؤلف : وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم التى لا غنى لهم عن معرفتها ، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى كالمنعش والمرعش والتبصرة =

والأرض فى قبضته تعالى لا كالمشبهين بالجوارح البشرية فذلك منهج القساوسة ؛ وإنما كما يفهم ذلك العرب . وكما فهمه الصحابة والتابعون عن رسول الله والله جل وعلا (ليس كمثله شيء) .

وأبو حنيفة يشرح النص بقوله : (لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه) وبقوله : (إن الله تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية) وبقوله : (إن الله تعالى واحد لا عن طريق أنه لا شريك له . بل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

والإمام أحمد بن حنبل يقول : (ويؤمن المسلم) بالقضاء خيره وشره وحلوه ومره من الله وإن أهل الجنة يرون الله بأبصارهم لا محالة . . . وأن الله كلم موسى تكليماً ، والإيمان بالحوض والشفاعة والإيمان بالعرش والكرسى) .

ويقول : (التشبيه أن تقول يد كيد ووجه كوجه . فأما إثبات يد ليست كالأيدى ، ووجه ليس كالوجوه فهو إثبات ذات ليست كالذوات وحياة ليس كغيرها من الحياة وسمع وبصر ليس

= لما فى ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغى اعتقاده والمعصوم من عصمه الله . وكان أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ينهى القصاص عن القصص لما فى قصصهم من الغرائب والتساهل فى النقل وغير ذلك ويقول : لا يقص إلا أمير أو مأمور .

وسبب نزول آية : (وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى) هو أن مشركى قريش جحدوا اسم الرحمن عناداً قال تعالى فى الإسراء ١١٠ : (قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) والرحمن اسمه وصفته . دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه وهى من صفات الكمال . فإن جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة لله تعالى ؛ ولهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة وهؤلاء المعطلون للصفات . المشبهون لله بخلقه يقولون : إنها صفات أجسام فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً ، فشبهوا الله بخلقه ، ثم عطلوا صفات كماله ، فشبهوا ثم عطلوا وتركوا ما ورد بالكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله ، وهذا الإثبات هو ما تتابع عليه سلف الأمة وأئمتها إثباتاً بغير تمثيل وتنزيها بغير تعطيل .

يقول قتادة فى قوله تعالى فى آل عمران ٧ : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) طلب القوم التأويل فأخطئوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا لذلك .

ولقد أطال الأئمة فى إدحاض شبهات نفاة الصفات ، ومن ذلك ما أورده الحافظ الذهبى عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان والجحود به كفر) وثبت عن سفيان بن عيينة أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق) .

قال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ، (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق . مالك وأخذته الرحضاء وقال : الرحمن على العرش استوى – كما وصف نفسه ولا يقال كيف ؟ وكيف عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة أخرجوه !)

وفى رواية أخرى قال : (الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) .

وأول من أنكر أن الله فوق عرشه هو الجعد بن درهم ، أنكر جميع الصفات وقتله خالد بن عبد الله القسرى ، وأخذ المقالة عنه الجهم بن صفوان فأظهرها واحتج لها بالمتشابهات ، وكان ذلك فى آخر عصر التابعين ، فأدحض قوله الأئمة الأربعة ونصوا على الإيمان بالصفات كما وردت .

قال الأوزاعى (١٥٧) : كنا والتابعون متوافرون نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته .

وقال الشافعى : (لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فيعذر بالجهل ، ونثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

كالأسماع والأبصار) .

ويقول (. . . . ومن السنة . . . والإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث والإيمان بها . لا يقال كم ولا كيف . . ، ومثل أحاديث الرؤية كلها . . . ولا نتعلم الجدل ، فإن الكلام فى القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه ينهى عنه لا يكون صاحبه – وإن أصاب كلامه السنة – من أهل السنة حتى يدع الجدال . ويسلم ويؤمن بالآثار. والحديث عندنا على ظاهره كما جاء عن النبى ﷺ والكلام فيه بدعة ، ولكن نؤمن به عن ظاهره ولا نناظر فيه أحداً . . .) .

والنصوص أصول . . . وظاهرها كاف لمن فهم العربية حتى فهمها وأحاط إحاطة كافية بالمنقول منها .

وأيًّا كان المقال فمنهج أحمد هو تفسير القرآن بالقرآن ثم تفسيره بالسنة ويليهما تفسيره بعمل الصحابة أو قولهم . ولا يجيز الحنابلة تفسير القرآن بالرأى مجرداً ولا الاجتهاد والنص واضح . وإنما يصار إلى القياس عند الضرورة .

والمسلمون مجمعون أن قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) ونحو هذا المعنى فى القرآن أو السنة ليس مقصوداً به أن الله سبحانه وتعالى يجالس الجلساء . وأنه فوق عرشه كيف شاء ، إنه كما وصف نفسه (ليس كمثله شىء) .

والذين يقولون فى التفسير إن المقصود بقوله – (هو معكم) – إنما هو علمه يستعملون المعنى البلاغى فى اللسان العربى .

روى حنبل عن الإمام أحمد حديث (اقرءوا البقرة وآل عمران فإنهما يجيئان يوم القيامة كأنهما غيابتان أو غمامتان أو فرقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما يوم القيامة) وأن أحمد قرر أن المقصود هنا هو ثوابهما .

وذكر الزعفرانى أن أحمد تأول (بمعنى فسر) مجىء يوم القيامة : (وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا) بأن الذى يجىء هو أمره سبحانه وتعالى .

ولقد احتج المعتزلة على أحمد وهم يحاكمونه أمام الخليفة المعتصم قالوا : إذا كان القرآن يجىء يوم القيامة فهو مخلوق .

والغزالى يرى أن أحمد بهذا قد اضطر إلى التأويل (بمعنى التفسير) وهو أشد الناس تحرجاً منه .

أما أصحاب أحمد فيختلفون فى المسألة فابن عقيل وابن الجوزى إذ يأخذان برواية حنبل يريان أن التأويل هنا « تفسير» للعبارة العربية .

على أن المشهور فى المذهب أن أحمد عند ذاك كان يعارض مناظريه يوم المحاكمة بحجة من جنس حجتهم ، ولا ينبغى اعتبار ذلك مذهباً له ؛ وإنما مذهبه أن يمضى الأحاديث كما وردت

بلا كيف ، وأن الله استوى على العرش حقيقةً وكلم موسى تكليماً ، وأنه تعالى فى السموات والأرض حقيقةً كما شاء وكيف شاء إذ ليس كمثله شيء .

الباطنية والتصوف الفلسفى :

ونص القرآن على أن عدم تشبيه الله بخلقه قطعى ، فالعمل بنقيضه خروج على الإسلام . ولا يقبل فى مقابلة النص القطعى أى تفكير ظنى أو رمزى كما هو دأب الباطنية وغلاة الصوفية .

وهؤلاء فى واقع الأمر – وكما أعلن ابن تيمية – امتداد للباطنية من غلاة الشيعة القائلين بعصمة الأئمة ، وكثيراً ما نبه على أن ادعاءات الصوفية من جنس ادعاءات الباطنية أن للإمام المعصوم « تأويل التنزيل » .

والصوفية المتفلسفون يدعون على « الأولياء » علم الحقيقة عن طريق الكشف الإلهى ، أو كما يقول ابن عربى : (التجليات الإلهية) ، بل إنهم يرفعون الأولياء فوق الأنبياء كما سلف القول عنهم ! ويقول شاعرهم :

مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى

ويدعى بعضهم أن الأولياء هم الراسخون فى العلم ، يعلمون التأويل كعلم الله جل شأن الله : وما هذه الدعوى إلا ترديد لنظرية الفيض ومراتب العلم اللدنى الأفلاطونية أوالأفلوطينية ، وقد سبقهم إليها دعاة الباطنية وغلاة الإسماعيلية فسموا محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (صاحب التأويل) .

وفى سبيل فلسفة التأويل أنشأ الحاكم بأمر الله « دار الحكمة » لتعليم العلوم الباطنية فى مقابل « الجامع الأزهر » الذى أنشأه جده ودرس فيه المسلمون علوم الشريعة .

وابن الجوزى (٥٩٧) منذ القرن السادس للهجرة والنويرى (٧٣٢) فى نهاية الأرب والمقريزى (٨٤٥) فى خططه وغيرهم من سابقيهم ولاحقيهم يذكرون مراتب الدعوة الإسماعيلية فى تلك الحقبة من الزمان أنها تسع درجات . وأنهم يفهمون التابع فى الرتبة السادسة أن الفرائض رموز لا حقائق . وفى السابعة ينقلونه إلى العدول عن التوحيد . وفى الثامنة يفهمونه أن الأنبياء خصوا بالسياسة ، وفى التاسعة يعلمونه أن لا وجود للعلم اليقين وأن العقائد ليست قطعية وله الحرية فى اعتقاد ما يشاء .

(فربما صار التابع فى هذا الاعتقاد إلى مذهب مانى وابن ديصان وربما إلى مذهب المجوس ، وربما دان بما يحكى عن أرسطوطاليس ، وربما صار إلى أمور تحكى عن أفلاطون ، وربما اختار من تلك معانى مركبة من هذه الأمور كما يجرى لكثير من هؤلاء المتحيرين) !

وبهذا نستطيع أن نفهم الهدف من التأويل الباطنى سواء الإسماعيلى الغالى فى دعاواه أو الصوفى المتغالى فى فلسفته ، والطرفان لا يأخذان بالرأى الذى يحصله الاجتهاد – المقابل للقياس – بالتزام النصوص أو فحوى النصوص .

على أن للتأويل عند أهل السنة معناه العربى ، فهو فى اللغة الرجوع أو العودة . وفى الحديث : (من صام الدهر فلا صام ولا آل) أى (لا رجع إلى خير) ودعاؤه عليه الصلاة والسلام لابن عباس (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) .

ويقول الليث بن سعد : (التأويل تفسير مايئول إلى الشيء) .

فالمرجع أو التفسير هما الأمران اللذان استعمل فيهما الرسول لفظ التأويل وتابعه الصحابة ومن بعدهم .

يذكر الشافعى فى الرسالة أن (لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى) ويقول عن العرب : (وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهله علماً به . . .) .

ويستعمل الشافعى التأويل – كما استعمله القرآن – بمعنى التفسير . يقول فى الرسالة :

(ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها ، لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل الرجل ويخطئ فى التأويل) .

فإذا أخذنا التأويل بمعنى التفسير فالمفسر يلتزم ظاهر اللفظ إلا إذا وجد ما يصرفه إلى المجاز – وهو المعنى المقابل للمعنى الظاهر من اللفظ – لكن هذا الانتقال إلى المعنى المجازى يخضع لشروط وضعها من يسلكون هذا الطريق : منها ألا تكون الآية محكمة وأن تكون متشابهة ، وأن يكون العرب قد عرفوا المعنى المجازى فى لغة التخاطب ، وألا يخرج المعنى المجازى على نص آية محكمة أو حديث قطعى المعنى والدلالة ، أو على قاعدة شرعية .

وفى النص المحكم يقول ابن تيمية : (المحكم هو المنزل من عند الله أحكمه أى فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه) وفى مقابلة المحكم نجد المتشابه الذى يشبه هذا ويشبه هذا فيحمل المعنيين . ومنه أخبار الصفات .

وعلى ما مضى من الشروط يجب رد المتشابه إلى المحكم والعمل بهما معاً ، فلا يؤخذ المتشابه على ظاهره دون نظر واعتبار فى جميع الأدلة ، فتتفق دلالته مع المحكم وتصدق النصوص بعضها بعضاً إذ هى كلها من عند الله ، وما كان من عند الله فلا تناقض فيه (١) .

---

(١) مثل قوله تعالى : (إلى ربها ناظرة) يتعين عند المفسرين القائلين بالتأويل أن يفسروها فى حدود قوله تعالى (لا تدركه=

وإنما اصطلح بعضٌ على اعتبار التأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال الظاهر ، فى أجيال متأخرة ، بعد أن شاعت طريقة المعتزلة والمتكلمين فى « التأويل » بمعنى التفسير.

وابن قدامة (وهو حنبلى) يعرّف التأويل بأنه صرف اللفظ عن الاحتمال الظاهر إلى احتمال مرجوح بدليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذى دل عليه الظاهر ، والظاهر ما يسبق إلى الفهم منه – عند الإطلاق – معنى مع تجويز غيره . وإن شئت قلت : هو ما احتمل معنيين هو فى أحدهما أظهر [1] .

والسبكى فقيه شافعى يقيد التأويل إذ يعرفه فيقول : (هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح .

= الأبصار) وعندئذ لا يكون المعنى هو الإبصار بل هو توقع العبد للنعمة والرضا من الله . ومثل قوله تعالى فى الإسراء ١٦ : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) يتعين تفسيره فى حدود قوله تعالى : (إن الله لا يأمر بالفحشاء) .

ومثل قوله تعالى فى الأحزاب ٧٢ :

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) فيكون المقصود بها الطاعة وفى قوله تعالى فى الفتح ١٠ : (يد الله فوق أيديهم) فيكون المقصود بها القدرة .

ولم يَألُ المفسرون بالمأثور أو بالتأويل جهداً فى استقصاء المعانى والأساليب والكلمات والحروف منذ القرن الأول . فمجاهد (١٠٢) يقول فى قوله تعالى : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) إن القسطاس هو العدل بالرومية . وإنها لكذلك فى اللغة اللاتينية ومنها انحدرت إلى اللغات الأوربية الحديثة Iustice .

ويقول ابن الجوزى فى كتابه (دفع شبهة التشبيه) : «اعلم أن الناس فى أخبار الصفات على ثلاث مراتب : إحداها إمرارها على ما جاءت به من غير تفسير ولا تأويل إلا أن تقع ضرورة كقوله تعالى : (وجاء ربك) أى جاء أمره . وهذه عقيدة السلف . المرتبة الثانية التأويل وهو مقام خطر. والثالثة : القول فيها بمقتضى الحس وقد عم الجهلة ممن ليس لهم حظ من المعقولات ، فإن علم المعقولات يصرف المقولات عن التشبيه» .

(١) أوضح عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب مذهب الشيخ لعلماء مكة عندما دخلها مع الأمير سعود سنة ١٨١٨ قال : (مذهبنا فى الأصول مذهب أهل السنة والجماعة وطريقتنا طريقة السلف التى هى أسلم وأعلم وأحكم . . وهى أننا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها . ونكل علمها إلى الله مع اعتقاد حقائقها . فإن مالكاً وهو من أجل علماء السلف لما سئل عن الاستواء فى قوله تعالى :(الرحمن على العرش استوى) قال : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) .

وأول (المعتزلة) صفات الله التى وصف بها نفسه فى القرآن وقالوا : إن الذات هى الصفات منعاً للتعدد ، وأولوا الصفات الخبرية ، واتخذ أبو الحسن الأشعرى (٣٣٠) موقفاً وسطاً – ومعه فيه الكثيرون – قال : إن لله صفات وجودية هى العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام فهى معان أزلية قائمة بذاته تعالى ، أما الصفات الخبرية من الوجه واليد والساق والقدم وغيرها فيوصف الله بها بلا كيف ولا تشبيه كما هو مذهب السلف) .

وفى الجبر والاختيار يرى المعتزلة أن أفعال العباد نتيجة لاختيارهم . والأشعرى يثبت للعبد قدرة وإرادة خاصة بدليل أن الأفعال الإرادية تتميز من الأفعال الاضطرارية كرعشة اليد ورعدة اليدين .

ووصف الصفة بأنها خبرية مرده إلى أن الله تعالى يخبر بها أو أن الرسول يخبر بها ، لكن الصفات الوجودية تتصل بوجوده سبحانه ويستند وجودها إلى الدليل العقلى الذى طالما أمر القرآن باستعماله . والدليل الحسى الذى طالما نبه الناس عليه .

والمتأخرون من الأشاعرة كالغزالى والجوينى والرازى يؤولون الصفات الخبرية بمعنى يليق بذات الله تعالى .

ولقد انتشر المذهب الأشعرى بالعراق وما جاورها على يد الغزالى (٥٠٥) ، وانتشر بالمغرب على يد ابن تومرت ، وانتشر بمصر بعد إذ جعل صلاح الدين الأيوبى المذهب الأشعرى والمذهب الشافعى مذهبين رسميين للدولة ، وكان قد درس المذهبين قبل أن يلى الحكم .

أما الحنابلة فيقفون الموقف السلفى الذى وقفه الصحابة والتابعون وفهموا به كل شىء فى القرآن والحديث حق فهمه .

فإن حمل بدليل فصحيح . أو لما يظن دليلاً ففاسد أو لا لشيء فلعب لا تأويل) وابن الكمال – وهو حنفي – يقول : (التأويل صرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المعنى المحتمل الذى تصرف إليه الآية موافقاً للكتاب والسنة) فالمذهبان يشترطان أن ينهض بالمعنى دليل شرعى هو الكتاب أو السنة . وما يوافقها من اجتهاد أو قياس بضروبه المختلفة .

* * *

لم يتجاوز السلف النصوص ، بل أخذوا معناها الظاهر – ثم لم يرتابوا ؛ ولذلك وجدوا آيات الصفات آيات محكمة وغير متشابهة فقبلوا صفات الله جميعاً ، مثل استوائه على العرش ، على حسب ما فهمها النبي والصحابة وأفهموها الناس ولم يحتاجوا لبحث (كيفية الاستواء) ولا كيفية (يد الله) ولا كيفية (عين الله) فما دام الله تعالى (ليس كمثله شيء) فكل تشبيه له بالأشياء والأشخاص « تخصيص » منهى عنه . سبحانه وتعالى عما يصفون .

وإنما الواجب ، والمأمور به فى الكتاب والسنة هو التسليم للذات الإلهية بصفاتها التى جاءت فى الكتاب العزيز . فعلى هذا جرى الصحابة والتابعون . وعلى سُنَنهم درج الأئمة . فلم يؤولوا لأنهم لم يحتاجوا للتأويل ولم يشبهوا أو يجسدوا أو يحصروا الذات العلية فى مكان .

يقول أبو حنيفة (١٥٠) (له صفات بلا كيف ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ؛ لأن فيه إبطال الصفة) ويقول : (من قال لا أدرى أن الله فى السماء أو فى الأرض فقد كفر) .

ويقول مالك : (١٧٩) : (إن الله فى السماء وعلمه فى كل مكان . فمن اعتقد أن الله فى جوف السماء محصور محاط به وأنه مفتقر إلى العرش وغيره أو أن استواءه على العرش كاستواء المخلوقين فهو مبتدع) .

والشافعى يقول : (إن الله تعالى على عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء) .

وأحمد يذكر أنه سبحانه (لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه) ويقول : (لقد أدركت علماء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير ، وكثيراً ما كانوا يتواصون بعدم الخوض فى ذلك من غير علم ، ولأنهم فى ذلك يروون عن الله عز وجل ، وإذا تعرض أحدهم لتفسير آية فإنما يفسرها مستنداً إلى الرسول أو إلى صحابى سمعها منه) .

وفى القرن الذى عاش فيه أحمد وضع ابن جرير الطبرى (٣١٠) تفسيره للقرآن ملتزماً المأثور عن السلف . وابن تيمية – لذلك – يراه أهم التفاسير التى بين أيدينا لأنه ليس فيه بدعة .

يقول أبو المعالى الجوينى (٤٧٨) فى الرسالة النظامية فى الأركان الإسلامية : (ذهب أئمة

السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض ما فيها إلى الرب تعالى . والذى نرتضيه رأياً وندين الله به عقد اتباع سلف الأمة ؛ فالأولى الاتباع وترك الابتداع . والدليل السمعى القاطع فى ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ، وقد درج صحب الرسول ﷺ ورضى عنهم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام) .

والغزالى (٥٠٥) تلميذ الجوينى يكتب فى كتابه (إلجام العوام عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية والضلاّل) : (اعلم أن الحق الصريح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف(١)) . .

ويقول فى كتاب فيصل التفرقة : (وكل كافر مكذب للرسول وكل مكذب فهو كافر فهذه هى العلامة المطردة المنعكسة) ويقول : (ومن الناس من يبادر إلى التأويل ظنًّا لا قطعاً ، فإن كان فتح هذا الباب والتصريح به يؤدى إلى تشويش قلوب العوام بُدّع صاحبه وكل مالم يؤثر عن السلف ذكره وما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة ، فيجب تكفير من يغير الظواهر بغير برهان قاطع) ويقول : (قال شيخنا أبو المعالى (يقصد الجوينى) : (يحرص الإمام ما أمكنه على جمع عامة الخلق على سلوك سبيل السلف الصالح فى ذلك) .

ولقد انفتح شر كثير بالتأويل الذى يفيد الظن . . فبه أوّل الرافضة أحاديث فضائل الصحابة ، وأوّل المعتزلة أحاديث الرؤية والشفاعة ، وأوّل القدرية نصوص القدر ، وأوّل الخوارج النصوص التى تخالف نحلتهم ، وأول القرامطة والباطنية كثيراً – من الدين .

وما امتحن الفكر الإسلامى ، بمحنة إلا كان سببها التأويل ومخالفة ظاهر التنزيل ، وهل دخلت طائفة الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل ، وإنما أثنى الله تعالى على منهج السلف الصالح – كما يقول مالك – بقوله تعالى فى التوبة ١٠٠ : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . . .)

---

(١) ويضيف (أعنى مذهب الصحابة والتابعين . . . فأقول : حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور : التقديس ثم التصديق ثم . . .) ويقول : (الوظيفة الأولى التقديس ومعناها أنه إذا سمع « اليد » « والإصبع » وأن « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » فيجب أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين أحدهما هو الموضع الأصلى . . . وقد يستعار هذا اللفظ أعنى اليد لمعنى آخر كما يقال البلدة فى يد الأمير . .) ثم يقول : (مثال آخر : إذا قرع سمعه النزول فى قوله ﷺ : (ينزل الله تعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا) فالواجب عليه أن يعلم أن النزول اسم مشترك كما قال الله فى الزمر ٦ : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وما أرى البعير والبقر نازلاً من السماء ، بل هى مخلوقة فى الأرحام ولإنزالها معنى لا محالة . كما قال الشافعى رضى الله عنه : (دخلت مصر فلم يفهموا كلامى فنزلت ثم نزلت . . .) الوظيفة الثانية الإيمان والتصديق . وهو يعلم قطعاً أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته وأن رسول الله ﷺ صادق فى وصف الله تعالى . . .) .

ولئن لوحظ فى عصور متأخرة تطوير فرقة الإسماعيلية أساليبها لمقاربة جماهير المسلمين — إن الشيعة الزيدية والإمامية (الجعفرية أو الاثنا عشرية) قد يستعملون التأويل بمعنى التفسير والمجاز اللغوى عند الحاجة شأن بعض أهل السنة ، ولم يثبت عن أئمتهم تفسيرات ورموز كالباطنية .

وابن عطية من كبار مفسرى أهل السنة ينفى عن الإمام جعفر أى تفسير رمزى .

الباب الثالث

انتصار المنهج السلفى

(كل من بلغته دعوة محمد ﷺ إلى دين الله فلم يستجب له فإنه يجب قتاله).

ابن تيمية

فى هذا الباب فصول أربعة تتأخى بيان صور مصغرة لبعض ثمار الدعوة والأرض التى أينعت فيها والفروع التى غذتها واغتذت بها، لتستبين مكانة الإمام بين أئمة الإسلام، وكيف أمست المبادئ من بعده عقائد يدين بها ويدافع عنها ذلك النسق النضيد المتتابع من رجال الإصلاح فى كل أقطار الإسلام، على مدار القرنين اللذين أعقبا موت الإمام، ليدلنا ذلك على صدورها من صميم الإسلام واقتدارها على إصلاح حال المسلمين فى كل عصر، شأن الحنيفية السمحة ذاتها، ومن ثمة يكتب للمبادئ الخلود.

وفى الفصل الأول بيان لمشروعية الجهاد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتزام المسلمين بأن يحملوا السيف دفاعاً عن عقيدة التوحيد.

والفصل الثانى سرد بالغ الوجازة للملحمة البطولية التى خاضها أبطال الدعوة من أمراء آل سعود وجماعة المسلمين معهم ليهبوا أمة الإسلام «دولة الإسلام» المتمسكة به، المدافعة عنه، مستيقنة أن الزمان فى خدمتها، وإن اعتورتها هزائم السياسة أو نكسات الساعة.

ولما دمر الأتراك عاصمتها فى الدرعية صيرت عقيدة التوحيد معارك الدمار معارج للانتصار.

وعندما تصاب الجيوش وتسلم إرادات الرجال فالنصر مسألة زمن.

والفصل الثالث يبين كيف أقام المنهج السلفى للدولة العصرية، الحاملة مسئوليات المسلمين فى فلسطين، الجاعلة سلاح البترول قوة ضاربة للمسلمين فى كل مكان، وكيف أثبت وفاء قواعد الإسلام بحاجات العصر وقابلية الوسائل على التطور واقتدار الرجال الصُّلب الشداد على الصدع بالحق وقيادة المسلمين إلى النصر.

وفى الفصل الأخير بيان لمبلغ ما تضافرت الأجيال وتآزرت الشعوب والقارات فى اقتفاء آثار

الإمام تقودهم ، على طريقته ، نخبة من الرجال كان كل منهم أمل أمته وما يزالون يهدونها السبيل .

وفى ختام الكتاب تذكير بالمنهج العلمى العالمى الذى أوصل الإنسان إلى القمر ، والذى تضرب جذوره فى أصول الفقه الإسلامى المستمدة من القرآن والسنة ، والقائمة على العلم والواقعية والموضوعية ، لا الباطنيات ولا الغيبيات أو الشطحات ، وتذكيرٌ بمنهج الإسلام الاقتصادى والاجتماعى وهو عمارة الدنيا بعمارة الإنسان ، بفضائل الدين .

والمسلمون اليوم يقفون بين حضارتين تحتاجان إلى أن ينقذهما الإسلام .

الفصل الأول

الجهاد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

(حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها
ويصام نهارها)

حديث شريف

الاجتهاد والجهاد أمر بالمعروف وعمل به ، ببذل الوسع لإعلان حكم الله وإعلاء كلمة الإسلام دون خضوع لسيطرة الغير على الفكر أو النفس . وكلاهما جهد يبذل فى صراع التنازع على البقاء بحماية عقيدة تعلن حرية النفس والفكر والعدل والمساواة الفطرية بين الناس والعبودية لله وحده .

وعلى قدر إيمان المسلم يكون جهاده فى سبيل دينه . بحرب يخوضها أو سلم تعمر بها الدنيا على يده أو علم يعلمه أو يتعلمه ، أو يجتهد عند الضرورة ، ليؤمن عن وعى شخصى ولا يقلد غيره ولا يكون إمعة .

ولما شق محمد بن عبد الوهاب طريقه بالجهاد والاجتهاد كان يسلك مسلك السلاّف ، ويعيد الناس إلى الجادة ليدافعوا عن دينهم ، ويستثمروا أعظم ما منحه الله لهم وهو العقل .

يذّكر الشيخ المسلمين فى باب (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله قول الله تعالى فى الزخرف ٢٦ : وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنى براءٌ مما تعبدون) .

وقوله فى البقرة ١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) ويعقب على الآية الكريمة بالسنة الشارحة ليبين فرضية جهاد المسلم للعدو .

(وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل) ثم يقول بعد شرح طويل : (وهذا — الحديث من أعظم مايبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل تحريم ماله ودمه ، حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم دمه وماله .

فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلّها ويالها من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمتنازع) .

وفى أكثر من موضع يذكر الشيخ ما يذكره فى كتاب الكلمات النافعة والمكفرات الواقعة : (إن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط القتال ، وإنهم يقاتلون قتال كفر وخروج عن الإسلام) .

وعندما تهن عقيدة المسلم يخوى قوامه ، كوعاء العطر إذ ينفض فدامه ، فيتبدّد ما فيه . وكذلك ملاك الجماعة إذا وهنت عقائد الرجال . فيسر انحرافها عن الجادة وانصرافها إلى أى بدعة تجعل العبادة مظهراً لا حقيقة له أو طقساً تزينه أخيلة الناس لأنفسهم ، ليكتفوا بالشكل عن المضمون . والصورة عن الحقيقة . يقول ابن عقيل :

«لما وضعت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسهلت عليهم ، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم . وهم عندى كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج» .

وإذا أعاد الأمر بالمعروف الجماعة إلى الرشاد فبِها ونعمت ، وإذا أصرت على الكفر فقتالها واجب :

يقول (ابن تيمية) إذ سئل عن قتال التتار مع زعمهم اتباع أصل الإسلام : (كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة حتى يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم) وقال : رفأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التى لا عُذْر لأحد فى جحودها أو تركها – التى يكفر الواحد بجحودها – فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها . وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . . .) وقال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به . فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابها على الله) وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) .

وقد أجمع العلماء أن من قال لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفى والإثبات .

وقال أبو سليمان الخطابى رحمه الله فى قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) : المراد بهذا أهل عبادة الأوثان دون أهل الكتاب . . .) .

ويقول ابن تيمية فى «السياسة الشرعية» : (فكل من بلغته دعوة محمد ﷺ إلى دين الله الذى بُعث به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . .)

(والأمر بالجهاد وذكر فضائله فى الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ؛ ولذلك كان أفضل ما تطوع به الإنسان . وكان باتفاق العلماء ، أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع ، كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبى ﷺ (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد) . وقال : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه) وفى مسند الإمام أحمد : (حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها) .

وفى الصحيحين : (أن رجلاً قال : يارسول الله ، أخبرنى بشىء يعادل الجهاد فى سبيل الله ، قال لا تستطيع ، قال : أخبرنى . قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر؟ قال : لا ، قال : فذلك الذى يعدل الجهاد) .

ومن الباب ذاته يقول : (كما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات فقد شرع أيضاً كل ما يعين على ذلك . فيجب تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن) .

والقتال على هذا النحو جهاد أمر الله تعالى به وليس مجرد أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر [1] . والسكوت عن المنكرات أمر لا يغتفر ، والسكوت على المكفرات أبعد من العُذر ، وأدعى للعقاب . وبخاصة لمن زاد علماً أو عبادة أو زهادة . رووا عن الإمام أحمد وغيره أثراً أن الله تعالى أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا . فقال : يارب ، كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ ، فإنه لم يَتَمَعَّرْ وجهه فىَّ قط .

ورووا أن الله تعالى أوحى إلى نبى من أنبيائه قل لفلان الزاهد : «أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز ، ولكن ماذا عملت فيما لى عليك ؟ فقال : يارب ، وأى شىء لك على؟ قال : هل واليت فىَّ ولياً أو عاديت فى عدوًّا؟» .

---

(١) يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

ويرتب ابن حزم على كون الإنكار بالقلب أضعف الإيمان نتيجة ذات بال هى أن من لم ينكر بقلبه لا إيمان له وهو معنى بالغ فى الدقة يدنى من الكفر كل من لا يستنكر المنكر فيستهين به فى دخيلة نفسه .

والمسلمون على أن الإنكار بالقلب يجب أن يكون بالكراهية الكاملة التى يشهدها الله تعالى من قلب المنكر.

ولما سئل عليه الصلاة والسلام : أى العمل أفضل قال : (إيمان بالله ورسوله) قيل ثم ماذا؟ فأجاب : (الجهاد فى سبيل الله) .

* * *

والشيخ عامل بالدين لا مجرد عالم أوعابد أوزاهد . ومن عمله بالدين كان الجهاد .

فالصحابة حاربوا المرتدين لمجرد امتناعهم عن الزكاة مع أنهم يشهدون شهادة التوحيد كما أسلفنا عنه فى مختصر سيرة الرسول أوكما يقول فى كتاب الكلمات النافعة والمكفرات الواقعة محتجاً بعمل الصحابة :

(ولقد جَرَّدَ السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبى ﷺ ثم أراد الدعاء جعل ظهره إلى جوار القبر ، ثم دعا . . .

فيقول أهل البدع والشرك قولاً غير الذى قيل لهم ، فبدلوا الدعاء بدعائه نفسه والشفاعة له بالاستشفاع به ، والزيارة التى شرعت إحساناً إلى الميت إلى الزيارة بسؤال الميت ، والإقسام به على الله ، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذى هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه فى المساجد . . وقد أنكر الصحابة ما هو دون ذلك بكثير ، فقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشجرة التى بويع رسول الله ﷺ تحتها ، ولما رأى عمر الناس يذهبون . . سأل عن ذلك ، فقيل : مسجد صلى فيه رسول الله يصلون فيه . فقال : إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا . كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً . فمن أدركته الصلاة منكم فى هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها .

وقد أنكر رسول الله ﷺ على الصحابة لما سألوه شجرة يعلقون عليها أسلحتهم . . . وهذه الأمور المبدَّعة عند القبور أنواع :

(أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة كما يفعله كثير ، وهؤلاء من جنس عباد الأصنام . . .

والنوع الثانى أن تسأل الله به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعة إجماعاً .

والنوع الثالث أن يظن أن الدعاء عنده مستجاب وأنه أفضل من الدعاء فى المساجد ، فيقصد القبر لذلك ، فهو أيضاً من المنكرات إجماعاً وإن كان كثير من المتأخرين يفعله ومن هؤلاء من يرجح الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت فيقول أحدهم : إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً كان كحجة ، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات يسافرون إليها وقت الموسم) .

والشيخ ينقل من صحيح البخارى عن أم الدرداء : (دخل علىّ أبو الدرداء فقلت : مالك ؟ فقال والله ما أعرف منهم شيئاً من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعاً) .

وإذا كان ذلك شأن أبى الدرداء ، فى عهد الصحابة – فما بالك بالمسلمين بعد أحد عشر قرناً حيث أصبح الكثيرون منهم على هامش الإسلام ، ومنهم من يلحدون وهم لا يشعرون أو يشعرون .

ولم يكن لهم معدى عن صدمة كهربية تنجيهم من ثفالة الدجاجلة ، وتوقظهم من سبات كأنه الموات فى عقولهم ، تحدثها فيهم جماعة حق مسلمة علمها الشيخ حقائق التوحيد ، وأن الموت فى سبيله حياة . وضرب لها الأمثال فى الكثير من فعل الرسول أو قوله عليه الصلاة والسلام مثل : (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) . وقوله :

(من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمها على النار) وقوله : (عينان لا تمسها النار : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله) وقوله ﷺ : (رباط أحدكم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها) ، ويقودها أمير جادت به السماء فكان بحيث قال عليه الصلاة والسلام : (إنما الإمام جنة ؛ يقاتَل من ورائه ويتقى به) يقتفى آثاره ﷺ ، كما قال على :

(كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو) .

ويا له من مثل أعلى فى السيرة العطرة . ومن نجاح محقق للأسلحة المحاربة ، إذ يذكّر الشيخ رجالها وأمراءها ما يرويه الواقدى : (أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى صارت شظايا . . . وباشر القتال فرمى بالنبل حتى فنيت نبله وتكسرت سية قوسه . وقبل ذلك انقطع وتره ، وبقيت فى يده قطعة تكون شبراً فى سية القوس) .

هكذا ارتبطت دعوة الشيخ بالدرعية وأميرها وجندها ، وأمست دعوة ابن عبد الوهاب ودولة ابن سعود وحدةً لا تقبل التجزئة ، وأصبحت الدعوة للدين الصحيح قانون الدولة وسبب وجودها . تموت إذا لم تعمل به وتحيا وتقوى قدر ما تعمل له ، وغدت الحرب ضرورة للدفاع . ومن الهجوم وسائل دفاع .

* * *

هنالك كان الأمير كفئاً للشيخ ، ولما تكافأ الشريكان بلغت الدعوة غرضها ، بالجماعة التى تعبد الله عن فهم ، فتُستشهد عالمة أن مواقع المعارك كمجالس الدروس كلها طرق إلى الله . ومن ذلك كانت المعارك والبطولات كالعبادات .

وكان أعظمها وأدماها «معارك الدرعية» فى نجد وما جاورها مع «الرياض» وأميرها على مر السنين :

بدأت المعارك بعد سنة من بيعة الأمير للشيخ ، ثم أصبحت حريملا والعيينة والدرعية محوراً لتحالف ثلاثى من المؤمنين بمبادئ محمد بن عبد الوهاب . يتعاظم أمره يوماً فيوماً ، ويتبادر الناس

آحاداً أو ثباتٍ أو أفواجاً إلى الدرعية فإما استقروا فى جوار الشيخ ، وإما رجعوا إلى أقوامهم يدعون للدين الصحيح ، ويزرون بما يمارسونه من بدع منفرة أو مكفرة .

فالذين يقومون فى جواره كهيئة أهل الصفة فى جوار الرسول إيماناً واحتساباً ودربة وأهبة للقاء العدو . والذين يعودون أدراجهم ليسوا أقل تأثيراً فى نشر الدعوة وإصلاح العقيدة .

وطوت أبناء الدعوة هضاب نجد ووديانها ، فكان لزاماً أن يتألب عليها شِرار الأمراء والأدعياء من المسمّين بالعلماء ، والمرتزقة من سوق « الكرامات » وصناديق النذور عند القباب والأنصاب والمغارات ، ومن أحابيل السحرة وأعاليل الكهان ، وأضاليل المتعالمين . فلقد كانت كل هذه الضلالات غذاء يوميًّا للناس فى المجتمع . ولا شفاء لداء الكفر إلا السيف .

كانت المعارك الأولى مع الرياض سنة ١١٥٩ هـ ، ١٧٤٦م لكن الحروب لم تلبث أن اشتعلت فى أنحاء نجد وأطرافها على مدى أعوام عشرين حتى إذا مات محمد بن سعود سنة ١٧٧٩ ولى ابنه عبـد العزيز فتابع أعماله الحربية على رأس الجيش إما بنفسه أو بقيادة ابنه سعود — والعرب تسميه سعوداً الكبير — وفى سنة ١١٨٧ توجت الانتصارات بالاستيلاء على مدينة الرياض بعد نحو عشرين عاماً من المعارك . وتعاقبت أيام المجد بعد فتح الرياض :

فالجيش فى سنة ١١٨٨ يغزو بلاد الدلم وينازل قبائل « وادى بنى حنيفة » قريباً من الخرج فى قتال مرير . وينتقلّ من ضرمة إلى سدير والخرج والمجمعة حتى إذا كانت سنة ١١٩٥ دخل قرية « اليمامة » وفى سنة ١١٩٦ دخل القصيم .

وفى سنة ١١٩٨ غزا إقليم الأحساء ، وفى سنة ١١٩٩ عاد يغزو الخرج ، ثم انطلق فى سنة ١٢٠٢ إلى إقليم قطر فى مقابل البحرين .

وفى سنة ١٢٠٢ أمر الشيخ بالبيعة لسعود بولاية العهد ، فالشيخ يحتضن الدعوة ويحنو على الشباب ، ويرنو إلى المستقبل .

وشهد عام ١٢٠٢ تطوراً فى تاريخ الحروب ، فلم يكن صوت الدعوة أو صيت أسلحتها فى شرق جزيرة العرب إلا تهديداً شديداً للأتراك وأشياعهم ، فأقبلت إلى نجد قوة حربية جديدة بأسلحة لم يألفها العرب يقودها شريف مكة عدتها عشرة آلاف ومعها عشرون مدفعاً تركيًّا .

والتحم الجيشان . فكان المغيرون ينهزمون وأهل نجد يلهبون ظهورهم ويغذّون السير فى آثارهم ، وكانت نهاية جيوش مكة فى وقعة العدوة .

ودخل الجيش السعودى . مكة وأمر بتدريس كتاب « كشف الشبهات » للشيخ فى الحرم ، وكان الشيخ يدق أبواب التسعين من عمره ، فكان دخوله مكة بُشريات للجنة .

لكن مكة فى أرض الطبيعة الإسلامية بداية لا نهاية ، فمنها خاطب صاحب الرسالة الوجود

الإنسانى كله وأصغت الأسماع لمبادئها مرحلة بعد مرحلة ، بالهجرة ، وبالسرايا والغزوات والفتح المبين .

ولذلك لم تهن عزمات الشيخ ولا جيوش عبد العزيز . فهو فى عام ١٢٠٤ يغزو الأحساء ، ثم يعود ليغزو الأحساء والقصيم سنة ١٢٠٧ ، وفى سنة ١٢٠٨ ثقيف وجبيل وفى سنة ١٢٠٩ الخرج وفى سنة ١٢١٠ سارت الجيوش إلى قرى الحجاز تهزم جيش الشريف ناصر بالجمانية .

* * *

وفى سنة ١٢١١ أعاد التاريخ نفسه بمكة ، فأنفذ الشريف غالب رسلاً إلى عبد العزيز يطلب علماء للمناظرة كما يروى ابن غنام فبعث إليه . . . وجرت المناظرة فى مسألة قتال الموحدين للناس ، ودعوة الأموات فكان حمد بن ناصر (تلميذ الشيخ) مبعوث عبد العزيز – يأتى بالدليل القاطع من كتاب الله وأحاديث الرسول ، فاضطرهم للتسليم فى المسألة الأولى ، أما ما نسب إليهم من الشرك فقد قال فيه كبيرهم لحمد بن ناصر : (إنى لا أطالبك بما قاله علماء المذهب سوى ما قاله لى إمامى أبو حنيفة ؛ لأنى «مقلد» فيما قال فلا أسلم لسوى قوله – ولو قلت : قال رسول الله أو قال ذو الجلال – لأنه أعلم منى ومنك بذلك) . وطلب منه حمد بن ناصر تأصيل براهينه وحججه فعجز . وكتب حمد بن ناصر فى ذلك رسالة مفيدة .

وكان اعتذار عالم الحجاز من التقليد عن غير فهم قبيحاً قبح الذنب ذاته ، لكنه كان صريحاً فى أسباب مرائه ومِحال نظرائه .

وفى سنة ١٢١٢ هبط نابليون بونابرت بجيش فرنسى أرض مصر ليثب منها إلى الهند ، فيضرب إنجلترا فى موقع القلب من رقعتها العالمية . وإذ كانت جيوش عبد العزيز تسيطر على الجزيرة العربية فقد أرسل إليه «نابليون» بعثة برياسة «لاسكارى» للاتفاق على محاربة الأتراك . لكن الذى حدث أن قوة من ألفىْ مقاتل بقيادة الشريف حسن – كما يروى الرافعى – وبقيادة على الكيلانى – كما يروى الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٣ – عبرت البحر الأحمر من الحجاز إلى القصير بصعيد مصر وانضم إليها عرب الهوارة من أهل الصعيد والمغاربة والترك والمصريين فحاربوا الفرنسيين فى مناطق الصعيد – القصير – جرجا – المنيا – وهذا أول إرهاص فى التاريخ الحديث بالوحدة العربية أمام غزو أوربى .

وفى سنة ١٢١٤ ، سنة ١٢١٥ حج سعود بن عبد العزيز حجته الأولى والثانية مما يدل على أن الحجاز قد أصبح سلما له ولأبيه .

واستعدى أشراف مكة مرة أخرى سلطانُ تركيا لحمايتهم ، منبهين على خطر الدعوة الوهابية على الأتراك .

وفى سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) غزا الأمير سعود الكويت ، وأقام جيشه أياماً بقرية الجهرة ، وهى الآن جزء من مدينة الكويت ، وعرض الإنجليز على أمير الكويت حمايتهم ، فأبى الأمير حفاظاً على استقلاله .

* * *

كان طبيعيًّا بعد أن استقر أمر الجزيرة العربية ، أن تسير الفتوح السعودية سيرة الفتوح الإسلامية ؛ ولهذا رأينا الدولة الفتية من فاتحة القرن الهجرى تنطلق من نجد وتتجه إلى الشمال والشرق : فى العراق والشام – نفس المنطلق والاتجاه اللذين سارت عليهما فى عصر الخلفاء الراشدين وبالترتيب ذاته : الجزيرة العربية أولاً ، ثم أرض العرب فى العراق ثم فى الشام .

أما العراق فقد استرعت أنظار السعوديين إليه كثرة المزارات والأضرحة والقباب التى يقيمها الشيعة ، ويعتبرها السعوديون إحياء للوثنية ؛ ولذلك أرسل عبد العزيز إلى الوالى التركى على العراق نسخة من كتاب (التوحيد الذى هو حق الله على العبيد) وطلب منه أن يجمع علماء بغداد للنظر فيما جاء بالكتاب والعمل بما جاء فيه .

وأسند الوالى دراسة الكتاب إلى أحد العلماء ، وقدم العالم تقريراً للوالى يقول فيه : (فبعد أن طالعناه وفهمنا فحواه وجدناه كتاباً جامعاً لشتات المسائل مشتملاً على عدة رسائل لكنه قد جمع بين غث وسمين وقوى ووهين ، ووجدنا أحواله أحوال من عرف من الشريعة شطراً ولم ينعم فيها نظراً ، ولا قرأ على أحد ممن يهديه إلى النهج القويم ، ويدله ويوفقه على العلوم النافعة التى هى الصراط المستقيم) .

واستمر التناوش من قريب وبعيد ، فأخذ الوالى التركى فى تأليب القبائل العراقية لمناجزة أهل نجد فصنعت ، ورد سعود عدوان العراق باقتحام حدوده سنة ١٢٠٣ (١٧٨٨) وتأديب قبائله .

وفى سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٤ قاد سعود غزواً ضد بنى ظاقر فى أرض العراق ، فغنم كثيراً من المال ، وفى سنة ١٢١٠ (١٧٩٥) وصلت العمليات الحربية السعودية إلى ضواحى البصرة .

وأصدر السلطان العثمانى أمره إلى والى البصرة ليغزو الأراضى السعودية ، واتجهت حملة عراقية إلى الدرعية ، فقتل قائدها بين جنده . . وردت الدرعية بهجوم الأمير سعود على القبائل ببوادى شمر وغيرها فوصل إلى منطقة السماوة .

وأدرك الوالى التركى أنه لا معدى له عن الحرب الشاملة مع الدولة السعودية ، فبدأ بتوجيه جيشه إلى الأحساء حيث للشيعة قوة لا يستهان بها ، وصمد السعوديون فلم يحقق أهدافه الحربية ، ورجع جيشه أدراجه بعد أن أوقد الفتنة فى نفوس الشيعة ، فقتلوا من ظفروا به من رجال الدولة السعودية ، فشن السعوديون هجوماً خاطفاً على المزارات الشيعية وهدموها فى عشرين أبريل سنة

١٨٠١ (١٢١١ هـ) وظهر الأمير سعود فجأة أمام كربلاء (المدينة المقدسة لدى الشيعة) ، فهدم مشاهدها ، وأزال القبة المرفوعة على قبر الحسين رضى الله عنه ، وقتلت قواته كثيرين من أهل كربلاء ، ورجعت بما فى المشهد الحسينى من مجوهرات ومصاحف ثمينة مهداة من الملوك ومن الشيعة فى الهند وإيران وغيرها .

واشتعلت النار فى قلوب الشيعة ، فدخل على عبد العزيز بن سعود فى سنة ١٢١٨ = ١٨٠٣ رجلٌ فى زى الدراويش فقتله ، وهو فى السادسة والثمانين ، فبويع لابنه سعود .

واستمرت الدولة السعودية فى تسيير حملاتها إلى مدن العراق عاماً بعد عام تجوس خلال الديار ، وتداهم كربلاء .

وفى سنة ١٢٢٣ = ١٨٠٨ بلغ الجيش السعودى فى غزواته قريباً من بغداد .

* * *

أما الشام ومصر فكان مقدم حجيجها متخذاً كل مظاهر الاستعلاء التركى على مصر والشام والحجاز ، وطقوساً لا يجيز بدعتها السعوديون – كافياً لإشعال نار الخصام .

فمنع الأمير سعود فى سنة ١٢٢١ = ١٨٠٦ أمير الحج الشامى عبد الله باشا من الوصول إلى الحرمين ، واكتفى السلطان فى القسطنطينية بعزل الباشا ، وولى مكانه يوسف باشا كنج وأصدر إليه الأوامر بغزو الدولة السعودية ، فكان يزداد مطالاً كلما زاده استعجالاً . إذ لا حول له ولا طول :

وفى الوقت ذاته كان سعود يبعث إلى أهل الشام جيشاً بعد جيش ليدخلوا فى طاعته ، وكان يرسل سراياه إلى داخل البلاد ، ولكن استغلال الأتراك لمنع الحجيج ثبط أهل الشام ومصر عن الدخول فى دعوة سعود .

أخذت الدولة تستقر والدعوة تنتشر ، والأمير سعود يتابع الحج عاماً بعد آخر ، حتى اكتملت له حجات خمس سنة ١٢٢٣ ، وكسا الكعبة وعمت الدعوة جزيرة العرب بما فيها الحجاز ، وانقطعت الموبقات وامتنعت البدع ، وعم نقاء الاعتقاد وإخلاص الدين لله جزيرة العرب ، حتى التدخين امتنع من الطرقات لما فيه من بدعة ضارة [1] وأرسل سعود سراياه إلى بعيد تعلم الناس التوحيد فى عمان ثم فى اليمن وعسير وتهامة والهاتف . وبلغ جيشه النظامى خمسين ألفاً .

ومنذ عام ١٢٢٣ لم يخرج إلى مكة حجيج مصر والشام والعراق والمغرب .

---

(١) ظهر الآن مايعتبر شهادة للمنهج الوهابى فى تحريم الدخان ، فأصبحت الحكومات الأوربية ، والحكومة المصرية تنذر الناس رسميا الإصابة بالسرطان ومرض القلب من جراء الدخان وهما أخطر الأمراض فى العصر الحاضر.

وفى عام ١٢٢٣[1] سير سعود جيوشه إلى عُمَان وناصرت السفائن الإنجليزية أهل عُمان ضد جيوش سعود .

وفى سنة ١٢٢٥ سارت الفيالق إلى البحرين فى الجنوب الشرقى وإلى المزة فى الشمال بسورية ، ودانت أطراف جزيرة العرب لسعود . وحج حجته السابعة واحتفلت به رعيته ، وخُطب له فى حجيج مكة ، وأهدى شريف مكة إليه هداياه رمزاً للخضوع لسعود (الكبير) .

---

(١) فى هذا العام توفى حسين بن الغنام واضع كتاب تاريخ نجد . وهو أصدق المراجع لذلك التاريخ ، فهو تلميذ الإمام محمد بن عبد الوهاب وقد كلفه الشيخ وضعه . يقول فى مقدمته (أردت أن أصنف فيما أشرق ضياؤه وشاع فى غالب الأقطار واشتهر من الغزوات التى هى فى مجد الدهر كالغرر . . والإمام أيده الله يعزم على فى ذلك ويشير . . . فشرعت فيه حتى أتقنته . . .)

الفصل الثانى

الملحمــة

كانت هزائم والى العراق وعجز والى الشام مظهرين من مظاهر الشلل الذى أصاب الإمبراطورية التركية من قرون، وازداد تفاقماً فى القرن الثانى عشر للهجرة، وكانا مظهرين محليين.

لكن انقطاع الحجيج التركى عاما بعد عام جرح دائم النزيف فى قلب دولة الخلافة. وامتناع الحجيج من مصر والشام والعراق وسواهما اعلان عالمى عن عجزها، فوق ماله من آثار محلية فى هذه الأقطار العربية الخاضعة للأتراك، والتى صحت على مدافع الحملة الفرنسية وما جاءت به إلى الشرق من مبادئ تغرى الشعوب بالحكام. وعلى كلمات «المطبعة» ذات الأحرف العربية التى جاءت بها الحملة، فكان للمطبعة أعظم الأثر فى نشر العلم، فأحدثت صحوة العالم العربى، وهيأته الصحوة لقبول الأفكار الصحيحة على طول القرن الثالث عشر للهجرة فى كل بلاد الإسلام؛ لتنتهى بتحرير العرب من نير الأتراك ابتداء بمصر فى القرن الثالث عشر وانتهاء بالعراق والشام فى القرن الرابع عشر.

ولم يمنع السعوديون الحجيج، وإنما منعوا أن يغزو أرض الحرمين ما صاحب الحج من البدع التى افتنّ فيها الأتراك الأفانين فيما يتعلق بالمحمل وجمال المحمل وطقوس المحمل، تسير وراءها قوافل الحجيج الوافدة من تركيا أو مصر أو الشام أو العراق.

ولقد شهدنا الناس بمصر فى النصف الأول من القرن الهجرى الحالى – يحتشدون لتبصر أعينهم كسوة الكعبة تحملها إليها كل عام جمال المحمل: مبرقشة هى الأخرى برقشة الكسوة، وعلى الجمل أردية نسجت خيوطها من الذهب والفضة: وكأن جمل المحمل سلطان آل عثمان ذاته؛ تتقدمه الطبول بموسيقى السلاطين، وكل أولئك مُبَدَّع فى الإسلام، ويصحبه جيش مصغر بأسلحته النارية لحماية الحجيج من سراق البادية. وكانت الحكومات تحتفل رسميا بوداع المحمل. وباستقباله.

والذين لم يحجوا، كالذين يحجون، يلمسون بدن «جمل المحمل» ويتبركون!.

أما القوة العسكرية التى تصاحب الحجيج فهى إعلان تركى عن سلطان «حامى الحرمين» فى البلد الآمن الذى يجب أن تبتعد الجيوش منه.

ولما استولى السعوديون على الحجاز وطبقوا شرائع الإسلام عبد الناس الله وحده ، وانقطع السراق عن السرقة والعصاة عن أى معصية .

غير أن الإمبراطورية العثمانية التى نخرت عظامها تستطيع أن تشن الحرب باستعمال وال تركى طموح أشد أيداً من واليى العراق والشام ، وأكثر توقانا لمرضاة السلطان .

وبهذا فُرِض على محمد على– والى مصر للسلطان– أن تكون أولى حروبه ، حربا على العرب :

سير محمد على جيشا عدته أربعة عشر ألفا من الترك والمغاربة إلى الحجاز فى سنة ١٢٢٦ بقيادة ابنه طوسن . وتلاقى جيش طوسن والجيش العربى بقيادة عبد الله بن سعود ، وكانت عدته ثمانية عشر ألفا ، وكتب النصر للعرب وانهزم طوسن بجيشه تاركا ٧ مدافع وأربعة آلاف قتيل فى أرض المعارك وقتل من العرب ستمائة .

وتعلم المنهزمون أشياء فى أرض المعارك ينقلها عن الجبرتى (المؤرخ المصرى) عثمان بن عبد الله بن بشر (النجدى الحنبلى) : إن الأحياء من المنهزمين كانوا يقولون :

(أين النصر وأكثر عساكرنا على غير ملة ، ومنهم من لا يدين بدين ولا ينتحل مذهبا . وصحبتنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع فى عرصتنا أذان ، ولا تقام فريضة ولا يخطر فى بالهم شعائر الدين ، والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع . وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذنون وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر أخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك ؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته – انتهى كلام الجبرتى) .

وفى سنة ١٢٢٩ مات سعود وولى الإمرة ابنه عبد الله .

كان سعود يحضر مجلس الشيخ فلقد ولد سنة ١١٦٥ ، وكان بطل حروب من شبابه ، وفى إمارة أبيه ، مثلما كان أبوه عبد العزيز تلميذ الشيخ بطل حروب أبيه محمد بن سعود . أما عبد الله فكان يجلس إلى عبد الله بن الشيخ ويحضر دروسه فى التفسير (تفسيرى ابن جرير الطبرى وابن الأثير) ودروسه فى الحديث (شرح صحيح البخارى) ، وكان مؤهلا للنصر مرة أخرى على الأتراك ؛ إذ عاد إلى الحجاز جيش جديد يقوده الوالى التركى محمد على بنفسه .

يروى ابن بشر حوادث سنة ١٢٢٩ فيقول : (حصلت الواقعة بين الترك وبين تلك الجنود الحجازية والتهامية قرب حصن بجروش ، فاقتتلوا شديدا وانهزم الترك هزيمة شنيعة ، فغنم المسلمون خيامهم وقتل من الترك مقتلة عظيمة . . . . .) ثم يقول : (وفيها حج الشامى والمصرى ، وأبقوا عند محمد على ذخائر وأموالا أتوا بها من جهة الترك) .

ويقول عن سنتى ١٢٢٩ و ١٢٣٠ : (فى هذه السنة وقعت الواقعة المشهورة بين فيصل بن

سعود وبين الترك وقتل من الأتراك عدد كبير . . . فلما كان فى العام التالى أقبل محمد على صاحب مصر بعساكر كثيرة . . . . ووقع كسرة فى ناحية جموع المسلمين– ثم رحل فيصل . . . وترك الترك فى بلدة تربة . . . ثم سار منها إلى بلدة تبالة وهى البلدة التى هدم فيها المسلمون (ذا الخلصة) زمن عبد العزيز . . . . ورجع محمد على إلى مصر . . . . .

ثم إن الله تعالى ألقى الرعب فى قلوب الترك ، فجنحوا للسلم . . . وأظهر التركى كتبا معه وأنه حضر للمصالحة فوقع الصلح بينهم وانعقد بين طوسن وعبد الله على وضع الحرب بين الفئتين ، وأن الترك يرفعون أيديهم عن نجد وأعمالها . . .)

بعث طوسن مشروع الصلح إلى أبيه ورسولين من قبل عبد الله هما عبد العزيز بن حمد وعبد الله ابن ثنيان وأحدهما ابن بنت الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكان من قضاة الدرعية زمن سعود بن عبد العزيز .

وينقل ابن بشر قول الجبرتى فى المجلد الرابع من تاريخه فى هذا الصدد :

(لكأن الباشا لم يعجبه هذا الصلح .... ولم يحسن إنزال الواصلين.... وانصرفا إلى المحل الذى أمرا بالنزول فيه ومعهما أتراك ملازمون لصحبتهما . ودخلا إلى الجامع الأزهر وسألوا عن أهل مذهب الإمام أحمد بن حنبل وعن الكتب المصنفة فى مذهبه فقيل : انقرضوا . . . . . واشتريا نسخا من كتب التفسير الحديثة مثل الخازن والكشاف والبغوى والكتب الستة المجمع على صحتها وغير ذلك .

وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت فيهما أنسا وطلاقة لسان واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحسن الأدب والتفقه فى الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب – ما يفوق الوصف) .

انتصار الدعوة فى معركة الدرعية :

فى سنة ١٢٣١ = ١٨١٦ مات طوسن وجهز أبوه جيشاً آخر فى العام التالى يقوده ابن آخر هو إبراهيم باشا .

ونقل القائد المدفعية الثقيلة مع جيش عصرى التشكيل إلى الجزيرة العربية ، يقطعها من الغرب إلى الشرق ، لأول مرة فى التاريخ منذ حروب الردة .

ويذكر ابن بشر فى حوادث سنة ١٢٣٢ أن الترك رمت الموحدين فى ليلة واحدة خمسة آلاف

رمية بالقنابر والقبس وهى أجهزة دمار لا يملكونها بل لم يكونوا يعرفونها .

ودخلت سنة ١٢٣٣ وجنود إبراهيم باشا فى عنيزة . . . . وقصد أهل بريدة ونازل أهلها فأطاعوا . . . . . . وبلدتى أشيفر والعذيقية فاستأمنوا له وسار إلى شقرا وصالحوه . . . . . . وكاتبه أهل المحمل وحريملا وأعطوه الطاعة) .

وقصد إبراهيم بالترك إلى ضرماء وكما يذكر ابن بشير (أنهم أطلقوا بين المغرب والعشاء خمسة آلاف وسبعمائة رمية ما بين قبس ومدفع وقنبر . . . . لم يفجأ جنود نجد إلا الصراخ من خلفهم أن الترك قد خلفوكم فى أهلكم وأولادكم فكروا راجعين لبلدهم) — .

وفرق الباشا عساكره تجاه أهل الدرعية وكانت مقسمة خمسة أقسام لكل منها أسوار وأبراج لا يقل محيطها عن ١٢ كيلومتراً : فبدأ فى ١٦ أبريل سنة ١٨١٨ يحفر الخنادق يعاونه ضابط فرنسى كان فى جيش نابليون يسمى Vaissaire ونصب المدافع على المدينة . ولم يضرم نار الحرب إلا بعد أن جاءه مدد من أبيه بقيادة خليل باشا بعد حصار دام خمسة أشهر .

ودامت الحرب سجالا بين القوتين على مدى عشرة أيام متوالية بالمدافع والقبوس والقنابر والبنادق ، ثم أصبحت هجمات بالسلاح الأبيض .

يقول ابن بشر (ثم وقعت وقعة غبيراء فتضاربوا من بعيد وقريب فانهزم السعوديون وتتبعهم الترك وقتل الترك منهم نحو مائة ، منهم عبد الله بن محمد بن سعود ومحمد بن حمد بن مشارى ابن سعود . وأمر الباشا العساكر الشمالية من المغاربة والدالتلية أن يقدموا الحرب على أهل الدرعية . فاشتعلت السماء . . . . . وحملت عليهم الترك . . . . . ثم حمل الباشا وعساكره على بطن الوادى على فيصل ومن معه وإخوته ومن معهم وحملت المغاربة والدالتلية على من فى جهتهم من المتاريس الشمالية ، فانهزم أهل الدرعية ، فوقف فيصل وأخوه سعيد وكثير من الأعيان والشجعان فجالدوا الروم[1] جلاد صدق حتى ردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم عدة قتلى . . . . .

وكانت العساكر تتوالى من مصر إلى الدرعية ، فى كل أسبوع وشهر رحلة وقافلة من الطعام والأمتاع . . . . . وأهل الدرعية كل بوم ينقصون . وفى أثناء هذه الحرب أيضا قتل فيصل بن سعود بن عبد العزيز ، ثم تتابعت الاشتباكات وطال الحصار ، فلما كانت صبيحة السبت الثالث من ذى القعدة (١٢٣٣) حمل الترك على مخابئ أهل الدرعية وهزموهم فيها . فلما رأى عبد الله

---

(١) التعبير عن الأتراك بالروم قديم . استعمله المؤرخون كابن عربشاه ، وهو يتحدث عن سير تيمورلنك لمحاربة الروم قاصداً بهم الأتراك ، لحلولهم محل الروم فى إمبراطوريتهم ، والأتراك هم الذين سموا إسطنبول (إسلامبول) بعد إذ فتحوها ، وهى مدينة القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين إمبراطور « الروم » واستعمله الجبرتى فى تاريخه للحديث عن الوعظ التركى ويستعمل أحياناً وصف الططر (التتار) تعبيراً عن الأتراك واستعمله ابن بشر . ويقول فى بعض الأحيان هؤلاء الأروام .

ذلك بذل نفسه للترك فى ٨ ذى القعدة= ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ وفدى بها النساء والولدان والأموال ، فخرج إليه الباشا وتصالحا على أن يركب إلى السلطان (سلطان آل عثمان) فيحسن إليه أو يسيء) .

ويضيف ابن بشر : (إن كاتب الباشا ذكر أن الذى هلك من العسكر من ظهوره من مصر إلى رجوعه اثنا عشر ألف رجـل . والذى قتل من أهل الدرعية فى هذا الحصار [1] ، عدد كثير قيل إنه أكثر من ١٣٠٠ رجل . . قتل من آل سعود نحو واحد وعشرون رجلا منهم فيصل بن سعود وأخوه إبراهيم وأخوه تركى . . . . . وتوفى عبد الله بن عبد العزيز آل سعود بعد الصلح . . . . . وقتل محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب . . ورحل عبد الله ابن سعود من الدرعية إلى السلطان ، وليس معه من قومه إلا ثلاثة رجال أو أربعة ، مع العساكر إلى مصر ، سار من مصر إلى الترك . وقتل هناك . رحمه الله تعالى) .

وعين السلطان التركى إبراهيم باشا واليا تركيا على الحجاز

* * *

يقـول الجبرتى فى حوادث سنة ١٣٣٤ عن مقدم الأمير عبد الله إلى القاهرة :
(وصل عبد الله الوهابى ، فذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا بن الباشا ، فلما دخل عليه (على محمد

---

(١) زرنا قرية الدرعية فى ١٦ من يناير سنة ١٩٧٦ وهى تقع على بعد ٢٠ كيلومتر من الرياض فى ملتقى طرق غبراء وسدير وصفا والحربقة والخيف – على هضبة فوق وادى حنيفة وفى شرقها آثار القلعة التى كانت تشرف على الوادى ووراءها آثار سور وبقايا قصر لآل سعود وحصن ومسجد للقصر وعلى مقربة منه آثار مسجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومدرسته وداره تنحدر منه الدرجات إلى وادى بنى حنيفة .

وفى سائر الجهات آثار بلدة لم يبق منهار الا قليل : أظهرها آثار البـليدة حيث كانت حصون وأبراج . وكان ذكر النخل الذى تحدث عنه ابن الغنام فى كتابه تاريخ نجد فقال : (وفى بليدة الفدا ذكر النخل المعروف بالفحال يأتيه النساء والرجال ويذبحون عنده بالبكور والآصال ، وتأتيه المرأة إذا تأخر عنها الزواج ، ولم تأتها لنكاحها الأزواج ، وتضمه إليها بخضور قلب ورجاء الانفراج وتقول : يافحل الفحول أريد زوجا قبل الحول ! هكذا صح عنهم القول ، وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون)

وعلى مبعدة كيلو متر أو أقل من المبانى تبدو أرض النخيل فى الوادى يانعة فى بسط من الرمال الصفراء ، أما شوارع القرية فأزقة لاتزيد سعتها على مترين أو نحوهما .. يشقها شـارع لايصل عرضه إلى ثلاثة أمتار يقطع القرية من الشمال إلى الجنوب ، وفى جواره قصر الأمير . وللقصر ساحة مسورة مؤدية الى بابه . وفى الجدران فتحات لإطلاق السـهام على ارتفاع نحو ثمانية أمتار من الأرض . والقصر أطلال من الآجر . وقريباً من الأطلال تقوم بيوت بعض الأهلين ، وبجوارها بقايا مسجد قيل لنا إنه مسجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وبه محراب فى العراء ، فى جواره بقايا جدران المسجد .

فى الجانب الشرق مساكن حديثة ومرافق للدولة لمكتب التدريب الزراعى ومدرسة محمد بن سعود . وربما بلغ عدد سكان القرية الآن نحو ألف نفس ، وفى بعض المساكن أجهزة إذاعة غير مرئية (راديو) وأجهزة إذاعة مرئية (تليفزيون) وفيها هاتف (تليفون) .

على) . . . قام له وقابله بالبشاشة ، وأجلسه إلى جانبه . وقال له : ما هذه المطاولة ؟ فقال « الحرب سجال » .

قال : كيف رأيت إبراهيم باشا ؟ قال : « ما قصر وبذل همته . ونحن كذلك . حتى كان ماكان من قدر المولى »

قال : أنا إن شاء الله أترجى فيك عند مولانا السلطان .

قال : « المقدر يكون » ثم ألبسه خلعة ، وكان بصحبة الوهابى صندوق من صفيح . . . وفى يوم الأربعاء التاسع عشر سافر عبد الله بن سعود إلى الإسكندرية وصحبته جماعة من الططر (التتار= الأتراك) إلى دار السلطنة ومعه خادم لزومه . . . واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣٤ وفيه وصلت الأخبار أيضاً عن عبد الله بن سعود أنه لما وصل إلى إسلامبول طافوا به فى البلدة وقتلوه عند باب همايون . وقتلوا أتباعه أيضاً ، فذهبوا مع الشهداء — انتهى كلام الجبرتى) .

* * *

وترى بادى الرأى :

أن الجبرتى مؤرخ مصر ، وعالم الأزهر فى القرن الثالث عشر ، وفى عصر محمد على نفسه ، قد أعلن رأى المسلمين فى الأبطال من آل سعود : أنهم ذهبوا مع الشهداء .

ولسوف نقرأ بعد نحو مائة عام رأى إمام مصر (محمد عبده) حيث يقول عن محمد على : (فليقل لنا أحد من الناس أى أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل ؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية ، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين)[1]

---

(١) وكما أعلن الجبرتى رأيه صريحاً أعلن معاصروه من العلماء غضبهم بطريقة ضمنية — ذكر الجبرتى أن العلماء قابلوا إبراهيم باشا عند رجوعه من الحجاز فلم يحسن إستقبالتهم مما يشير إلى أزمات ثقة منهم فيه وفيهم منه .

وكما أعلن محمد عبده رأيه صريحاً أعلنه مؤرخ عصر محمد على بطريقة ضمنية . فالمؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى لم يملك إلا السكوت عن الحرب فى جزيرة العرب وهو يشيد بمحمد على بعدإذ تخلص من ولائه لتركيا وأعتبر نفسه مصرياً . يقول الرافعى [فهذه الحروب هى إذن من أقوى دعائم الدولة المصرية المستقلة ومن أعظم أركان القومية المصرية وخاصة فتح السودان وجنوب سوريا والأناضول . فإن فتح السودان قد أتم الوحدة القومية وحروب سوريا والأناضول كانت من أقوى المقومات المصرية إذ لا يخفى أنها فتحت أذهان المصريين إلى أن لمصر شخصية منفصلة تمام الإنفصال عن القومية التركية] .

أما إبراهيم باشا فسيعتبر نفسه عربياً ، ويفاخر بالعروبة بغداد بلغ نضجه السياسى بعد بضعة عشر عاماً ، بماحققته الجيوش المصرية على الأتراك ، فالمؤرخ المصرى عبدالرحمن الرافعى يذكر فى هذا المقام ما جاء فى كتاب (حرب مصر ضد الباب العالى فى سوريا والأناضول سنة ١٨٣١ — ١٨٣٣) لمؤلفيه كادفلين وبارو ما نصه « بينما كان الحصار مضروباً على عكا سئل إبراهيم باشا : إلى أى مدى ستصل فتوحاته إذا تم له الاستيلاء على عكا . فقال ما معناه : إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم معهم باللسان العربى . كما يذكر ما جاء فى كتاب (مهمة البارون لبو الكونت) — وكان مندوب فرنسا — بعد لقاء له بإبراهيم باشا فى أعقاب واحد من انتصاراته « إن إبراهيم باشا يجاهر علناً أنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم سواء فى الإدارة أم فى الجيش وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً... وقد سأله أحد جنوده : كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم ؟ فأجابه إبراهيم باشا على الفور : أنا لست=

وأن عامى ١٢٣٣ – ١٢٣٤ إذا كانا عامين للتراجع فهو تراجع الذى يستجم ليهجم ؛ فعقيدة الإسلام لا تنهزم ، والأفكار أنوار لا تحجبها الأستار .

وأن ما دار بين محمد على وبن عبد الله بن سعود دار بين عامل للسلطان التركى وبين أمير عربى لا يعمل إلا لله . أبوه وجده وجد أبيه أبطال حرب لم تعرف جزيرة العرب نظراء لهم من نحو قرون عشرة ، حاربوا للآخرة لا للدنيا ولمقاومة خرافات أدخلها على الإسلام آباء هذا السلطان وجدوده ، فى حين حارب الأتراك ، ليقدسوا الخرافات ، ويبقوا الحرمين الشريفين حلية فى لقب الخليفة التركى (حامى الحرمين) لا محل ميلاد للعقيدة الإسلامية الصحيحة ! مع الاستكبار فى الأرض والاستهتار بالشريعة !

ولما قتل حامى الحرمين فى دار السلطنة العثمانية أمير العرب كان حامى الحرمين سفاكاً يشرب دم أسيره كما قد طالما فعل أجداده التتار والأتراك !

وأن الحوار بين الوالى التركى وبين الأمير الشهيد كان حجاجاً من فارس مسلم يؤمن بقضاء الله ، ولجاجةً من حاكم غاشم غشم آبائه من الشعوبيين الذين دمروا أو أخروا العرب فى قرون عشرة .

ولما سأل الوالى التركى عن قائده فى الحرب كان فى جواب البطل إنصاف للقائد واستدراك على السائل . والقائد لم يقصر وبذل همته . وكمثله كان عبد الله . والله غالب على أمره .

ولما أجاب الأمير العربى (المقدر يكون) كان جواب بطل حرب ، علمته الرماح أن الحياة فى خضوع العبيد ليست هى الحياة ، وعلمته العقيدة أن الله بالغ أمره منفذ قدره ؛ فتلك هى الخصيصة الأولى للموحدين .

= تركياً . فإنى جئت إلى مصر صبياً . ومنذ ذلك الحين قد مصّرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته عربياً» .

وفى مقام آخر يذكر المؤرخ ذاته عن البارون « . . . . وهنا سكت إبراهيم باشا قليلاً عن الكلام كأنما أستوقفته فكرة طارئة . ثم قال : إنى أبحث كثيراً وأتساءل : لماذا تحقد الدول الأوربية كل هذا الحقد على الأمم الإسلامية ؟ . قلتُ إنى لم أفهم كلام سموكم . قال : نعم . . .»

وفى موضع آخر يذكر ما ينقله البارون لبوالكونت عن مصطفى بك ممتاز ياور إبراهيم باشا ووزير المعارف فيما بعد قوله للكونت «أنتم معاشر الفرنسيين تعترفون بالجنسية الفرنسية لمن يقيم بفرنسا عشر سنوات . أما نحن فقد جئنا إلى مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا . فلسنا الآن أتراكاً . ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذى لا يترك فى طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب . ولقد اندمجنا فى أمة أخرى أرق وأنبل وأذكى من الأمة التركية . اندمجنا فى تلك الأمة العربية التى سبقت أوربا إلى الحضارة . .» .

فإبراهيم باشا وياوره يردان القومية العربية إلى عناصرها الأصلية ويباهيان بها : اللغة العربية والدين . والموقع الجغرافى الذى يمصّر ويعرب . والموقف التاريخى الذى يجعل أوربة تضمر الحقد للأمم الإسلامية . والحضارة الراقية النبيلة الذكية التى سبقت أوربة وفاقت الأتراك .

لكن الدمار الذى أنزله الأتراك وأوربة بمحمد على وبمصر فى نهاية العصر جعل بعض أحفاده يلوذون بأخلاق المنهزمين ويعودون إلى اعتبار أنفسهم أتراكاً ، فيقضى عليهم المصريون فى سنة ١٩٥٢ .

ولما سأل الوالى التركى عن « المطاولة » كان يخشى أن تحسب عليه من ربه فى إسطنبول الكلمة الصحيحة . وهى « البسالة أو المقاومة التى طالت » . وكان الجواب من عبد الله جواب بطل عليم بمقادير الحروب . « فالحرب سجال » . يوم لك ويوم عليك !

ولو عرف الوالى التركى قول الشاعر العربى (والدهر بالانسان دوّارىّ) لتوقع الهزائم المقبلة للسلطان وله ، وللقوة التى لا تقوم على العقيدة الدينية أو الفضائل الإسلامية فتتساوى بذلك والدولة الوثنية ، وتنزل بها صعقات السماء من فساد الحكام واختلال الأحكام واختلاف الرعية . والرعية مؤدية للحاكم ما أدى الحاكم لله .

قالوا : إن « محمد على » نصح السلطان العثمانى ، ولكن السلطان أبى إلا القتل . وكلا الأمرين مفهوم . فصاحب الجيش الذى راعته بطولات الشهداء كان يتحلب لعابه أملا ، وعرقه خجلاً ، ليستقر له أمر مصر وكى لا يوقع – أكثر مما أوقع – بين البلد العربى الذى حكمه والبلد العربى الذى سفك دمه .

أما السلطان فتركى آخر لا يريد أن يستقر فى العرب أمر .

* * *

وإنما تضع الوقائع النبيلة المعارك الطويلة فى إطارها الصحيح فتجعلها مجعل الدليل ، فى طريق الجهاد الطويل، لنصرة الدين . وفى طليعتها واقعتان صادقتان صدق الغريزة إذا أنطقتها الفطرة دون تزويق :

أما الواقعة الأولى : فأمر صدر فى نشوة النصر فى ساحة الحرب ، يوم دخل الجيش السعودى مكة بعد وقعة العدوة ، فأمر قائده بتدريس « كتاب كشف الشبهات » فى الحرم المكى .

فتلك غاية الحرب وثمرة النصر .

والأخرى يوم جاء إلى مصر رسولاً عبد الله مع مشروع طوسن للصلح ، فدخلا الجامع الأزهر يسألان عن علماء الحنابلة ، ويشتريان كتب التفسير وصحاح السنة ، ويبهران الجبرتى بما يفوق الوصف .

أما سائر الدلائل فيجزئ عن الإسهاب فيها السلوك العام الذى تواترت فى إعلانه الوقائع على مدار ثلاثة أرباع قرن : يؤدون الصلاة وهم يحاربون ، ويقسمون الفئ قسمة المسلمين . ولا يحتلون أرض العدو إذ ينتصرون ، مادام قد صحح عقيدته ، فهو عندئذ مسلم داره دار إسلام جديره بالذود عنها كديار الإسلام . ولا يكفون عن الائتمار بالمعروف والتناهى عن المنكر ، ويرفعون مستوى الجماعة التى كانت تحاربهم إلى مستوى جماعتهم فى العلم بأصول الدين والأدب والتهذيب والتربيب .

بهذا ارتفعت الجماعة العربية إلى ذروة عالية من السلوك الإسلامى آلت إلى الحقب التالية

فضائل إسلامية يزدان بها جيل بعد جيل .

١ – والتاريخ إذ يسجل انتهاء معركة الدرعية العسكرية يسجل ابتداء انتصار عقيدتها الدينية واتصالها بالعالم ، وجريان سيرتها على الألسن وعلى أقلام العلماء وفى دروسهم .

٢ – أما عن الحرب فالأتراك لم يكسبوا الحرب وإن كسبوا معركة ، وإنما يكون الكسب للشهداء فى الدنيا ، كمثل كسبهم فى الآخرة ، إذا بقيت رحى الحرب قادرة على أن تعود للدوران فى الحياة .

ولا ينهزم جيش بقيت لدى شعبه إرادة النصر وخوض المعارك .

ولقد تكون الغداة فى التاريخ يوماً أو عاماً أو أعواماً .

ومن الهزائم ما هو أنبل من النصر ومنها ما فيه دروس للانتصار :

كان عليه الصلاة والسلام يقول : (أُحُد هذا جبل يحبنا ونحبه) ولم يعرف المسلمون هزيمة بعد أحد . وستتلاحق الانتصارات على عقيدة الدرعية فيما بعد . وعلى سواعد أبناء هؤلاء الأمراء وهؤلاء الشهداء .

٣ – ولئن كان على النفس أن تجزع إذ تشهد الجيوش المسلمة تغزو أرض الحرمين لتقاتل الموحدين الصادقين ، إن فى هذه المعارك دلالة إثبات للجسارة الجبارة التى حارب بها الموحدون ، ولجلال الاستشهاد من ألف وثلثمائة رجل هم كل الذكور القادرين على الحرب من قرية الدرعية حتى ليبلغ عدد الشهداء من الأمراء واحدا وعشرين أميرا بعد أمير ، يتهاوون دراكا كالأنجم المنكدرة . وإنما بلغ عدد الشهداء هذه الأرقام لأن أصحابها كانوا يدافعون عن الدين الذى خاض آباؤهم المعارك لنصرته فى كل أنحاء نجد والحجاز وتهامة والعراق واليمن والشام وغيرها من بلدان الإسلام .

٤ – وإذا كان عجيباً تعاظم الظلم من أهل الأرض لأنفسهم ، وطول الحصار وفداحة الدمار الذى لا تزال تنطق به رسوم الدرعية وأطلالها ، وإصرار العدو على مسحها من الوجود بالمدافع ، فليس ذلك غريباً ، وإنما هو لفت للأنظار للوعد الحق عند المسلمين ، أن الذى ستمحوه السماء من الوجود بعد مائة عام ونيف هو :

١ – السلطان التركى وخلافة بنى عثمان بتمامها – ٢ – والوالى التركى ودولة محمد على بتمامها .

أما الذى سترفعه السماء عاليا فى الدنيا فهو أسماء هؤلاء الشهداء وأبنائهم وأركان دولة عظيمة تطلع إليها أعناق الأتراك وبقية العالم .

وإنما كانت السماء تتكلم بلغة « القدر » الذى تحدث عنه عبد الله بن سعود بلسان عربى مبين وعَمى عنه سلاطين الساعة من محمد على إلى مولاه فى إسطنبول .

وإذا كان التاريخ لا يعرف معركة مات فيها أكثر من أمير أو أميرين من جيش أو جيشين فإن ارتفاع القتلى من الأمراء إلى عشرة أضعاف هذه النسبة دلالة على أنهم يقتفون بدقة آثار الصحابة ، فيستشهد العظماء فى الصفوف الأولى هنا وهنالك : فى عهد أبى بكر على هذه الأرض ذاتها فى اليمامة والجبيلة وعقرباء .

فى يوم مؤتة قتل أمير الجيش زيد ملاقياً الرماح بصدره ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت ، فاحتضن الراية فقتل كذلك ، فأخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فقتل ، فأخذها خالد واندقت فى يده أسياف سبعة !

وفى يوم أحد قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : (عليك بابن عمك) ويقول أبو بكر : فأتى طلحة بن عبيد الله وقد نزف منه الدم ، فجعلت أنضح فى وجهه الماء وهو مغشى عليه ، ثم أفاق فقال : ما فعل الرسول ؟ فقلت : خيرا ، وهو أرسلنى إليك ؛ قال : الحمد لله : كل مصيبة بعده جلل)

فشهداء الدرعية كانوا أبناء لآباء ، يصدق عليهم قوله سبحانه (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) آل عمران ١٦٩ و ١٧٠

* * *

وفى الناحية الأخرى تنطق أخلاق الأتراك بمنطق المنهزم ، فيسلك القائد المسلك الدميم فى موضع الموعظة ، ويسلك أبوه مسلك سوء !

١ – لقد أحضر إبراهيم باشا إلى مجلسه عقب المعركة عالم نجد ومؤلف كتاب (تيسير الحميد فى شرح كتاب التوحيد) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، وأظهر بين يديه آلات اللهو والطرب لينال من دينه إن رضى ، ومن كبريائه إن رفض الموافقه على ما يكره ، ثم أرسله مع عساكره إلى المقبرة حيث أطلقوا عليه الرصاص فاستشهد !

٢ – والغدر شنشنة يعرفها التاريخ لأبيه ، فهو الذى ذبح ضيوفه المماليك بعد إذ دعاهم إلى طعامه فى وليمة [1] ، تتقاماً بجوارها ذكريات ولائم السفاحين من بنى العباس ومذابحهم ، ثم تجرع

(١) دعا إلى الوليمة بمناسبة سفر جيشه إلى الحجاز المماليك وأعوانهم فحضروا فى ١٨١١/٣/٣١ ، فحصدتهم النيران من كل جانب ، ومن قبل ذلك بعامين تخلص من الزعيم المصرى عمر مكرم سنة ١٨٠٩ .

ومن المؤرخين من يقررون أن (محمد على) كان يدبر لجيشه ذاته مذبحة فى الجزيرة العربية ليتخلص من مواطنيه الألبانيين الذين تمردوا عليه سنة ١٨٠٧ . ولم ينشئ محمد على جيشاً مصرياً إلا بعد سنة ١٨٢٠ . . يقول السردار إسماعيل سرهنك باشا . وهو تركى تولى نظارة المدارس الحربية فى مصر فى القرن الميلادى الماضى (وكان بمصر وقتئذ جيش يبلغ ٢٥ ألف مقاتل جميعهم من « الباشيوزق » الذين كانت الدولة « العثمانية » جمعتهم تحت قيادة الصدر الأعظم ضياء باشا لما أرسلته لها لإخراج الفرنسيين من=

كأس السوء حتى الثمالة فترق من الغدر برعيته التي استأمنته إلى الفتك بسيده : سلطان تركيا ذاته .

والله من صفاته العدل ، بعيد الانحراف دائماً إلى الجادة . وكثيراً ما وعظ الناس بأنفسهم ، فدمرتهم أعمالهم وغدر بهم من غدروا لهم .

٣– ذلك أن ما هيّأ للوالى التركى أنه انتصار على العرب بشرازم أرنئوطية وانكشارية ومرتزقة أقنعه فى الغداة بأن يؤلف جيوشا مصرية يقودها إلى الشام صوب القسطنطنية ، فتهزم جيوش السلطان فى معارك حاسمة ، فيغدر بجيوشه الإنجليز والفرنسيون والروس مخافة أن يهيئ النصر للعرب أن تقوم دولة لهم تقبض على برزخ الدردنيل فى شرق أوربة كهيئة ما قبض العرب على برزخ جبل طارق بالأندلس فى غرب أوربة .

سيرى محمد على فرنسا وانجلترا تدمران الأسطول المصرى فى نافارين ، وتؤلبان عليه أهل الشام وتهزمانه ومعها الأتراك ، فى معاهدة تنتهى بها أعمال نصف قرن من حياته ، يسرح بعدها الجيش المصرى الذى أنشأه ، لتحتل إنجلترا بعدها أرض مصر ذاتها وتسترجع شعوب أوربة من تركيا أراضيها فى البوسنة والهرسك فبلغاريا ، فاليونان ، ويسترجع العرب منها أراضيهم فى مصر والعراق وسورية وغيرها من البلدان العربية ، ثم تولى تركيا وجهها شطر أوربة فتزداد عجزا كمجتمع ودولة .

وفى القرن التالى أزال خلافة بنى عثمان ودولتهم بتمامها قائد تركى رفع من دستور تركيا أن دينها الإسلام !

* * *

قال بعض إن منع الحجيج كان سبب الحرب ؛ وقال الآخرون : إن أشراف مكة منعوا

= مصر ، فتمكن محمد على من أن ينتخب من هذا الجيش قوة للمدافعة عن مصر تبلغ ٨٤٧٢ جنديا من المشاه و١٧٠٧ من الطوبجية للقلاع والحصون ، وجعل منه أيضاً قوة متحركة عددها ١٨٣٣٣ مقاتلاً انتخب منها ٦٠٠٠ من المشاه و ٢٠٠٠ من الطوبجية ومثلهم من السوارى للحملة الحجازية المذكورة) .

ويقول سرهنك (لما جهز محمد على جيشا لفتح السودان بعد حرب الوهابيين كان جيشه من الأرنئوط . كذلك لم يُدخل المصريين فى الجيش إلا فى الحروب اللاحقة) .

والحروب اللاحقة هى التى دَمرت فيها الجيوش المصرية جيوش الترك فى الشام وآسيا الصغرى ، وانفتحت أمامها الأبواب إلى القسطنطينية عاصمة تركيا ، وهى هى الجيوش التى حاربت ضد اليونان لحساب تركيا كيما تجعل الحكم وراثيا فى أبناء محمد على .

ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عصر محمد على «وكان لمحمد على أغراض أخرى محلية أدركها من الحملة الوهابية أهمها التخلص من طوائف الجنود الأرناءوط الذين ألفوا التمرد والشغب . فقد رأيت كيف أزداد طغيانهم وتمردهم حتى صار خطراً على الأمن وعقبة دون إستقرار سلطة الحكومة . فكانت الحملة الوهابية فرصة أنتهزها ليقذف بتلك الطوائف المتمردة إلى الأصقاع النائية من جزيرة العرب لعله يستطيع فى غيبتهم أن يدخل النظام الجديد فى الجيش المصرى وقد سعى إلى ذلك فعلاً خلال الحملة الوهابية وإن كانت ظروف الأحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فأرجاه إلى سنة ١٨٢٠»

والحرب الوهابية انتهت سنة ١٨١٩ .

حجيج نجد من قبل ، فهذا منع بمنع ، لكن الأسباب أبعد . وهى عند الفريقين أسباب من أنفسهم وأسباب من موقعهم .

أما الذى من أنفس الأتراك فرده إلى فساد عاشت فيه الجماعة التركية أيام إدبار ، من بعد عن الإسلام إلى ظلم الحكام إلى سيطرة الحريم فى قصر الخليفة إلى الوزراء المرتشين فى الحكومة إلى نفوذ التجار الأرمن ، إلى تسلط السفراء الأجانب ، إلى الغرور السلطانى والصلف التركى ، إلى مجتمع لا يفقه ولا ينقه فى العلم الدينى أوالدنيوى . وكانت تركيا فى أعين أوربة : « الرجل المريض » لم تدخل جيوشه حربا إلا انهزمت فى حين كان السعوديون ينتصرون .

وأما الذى من موقعهم . فكونهم « خلفاء المسلمين » تفترض طاعة الشعوب لهم وثقة المسلمين فيهم فلا يسكتون عن شعب كفر أعمالهم وأذلّ كبرياءهم .

وأما الذى من أنفس العرب فهو الشموخ العربى الذى حقق الانتصار تلو الانتصار على مدى نصف قرن كامل .

وأما الذى من موقعهم فإنهم فى مركز النواة للإسلام ، تولى شطره وجوه المسلمين على مدار الليل والنهار . وأن الجيوش السعودية وحدت العرب فى الجزيرة العربية ، وانتقلت بأسلحتها إلى العراق والشام .

والوحدة العربية تثير مشكلة أكبر للأتراك ، لأنها بشريات الفجر الجديد ؛ فالتاريخ عندئذ يعيد نفسه ضد الأتراك ، بعد إذا أملى للسلاف منهم ؛ بويهيين وسامانيين وسلجوقيين وخوارزميين وتتار .

والوحدة قانون الإسلام كله . وهى فرع التوحيد الذى جاء به الدين ، وشرط للنصر الذى وعد الله به المسلمين كلما اتحدوا . يقول جل ثناؤه (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) . آل عمران / ١٠٣ :

ولا جرم إن أول أثر للحرب العثمانية على يد الوالى التركى كان تأخير قيام الوحدة للأمة العربية بعمله وعمل أبنائه بعده واستعدائهم أهل أوربة على المصريين .

وآية ذلك أن المصريين غداة خلع فاروق سنة ١٩٥٢ = ١٣٧٢ – آخر الملوك من أسرة محمد على – نصوا فى دستورهم أن مصر جزء من الأمة العربية ، ثم نصوا أن الشريعة الإسلامية مصدر التشريع .

* * *

وتاريخ هذه الملحمة من البطولات يضع بين يدى القارئ مجموعة من المبادئ .

أولها : أن العقيدة الإسلامية هى الطريق القاصدة للنهوض بالأمة إذا عملت بها عقول مخلصة وسواعد صادقة وجماعة متضافرة .

وثانيها : أن الوحدة هى النتيجة اللازمة لكل جهد تتأخى به الأمة إثبات ذاتها أو الذود عن كيانها .

وثالثها : الاعتماد على الذات ، فالشجاعة تنبع من النفس ، ولا تستورد من خارجها أو من خارج الجماعة ومبادئها .

ورابعها : اقتدار المنهج السلفى ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر على أن يحيى الجماعة الإسلامية حياة جديدة . وأحْرى بالقرن التالى أن يشهد اقتداره على أن يوطئ الطريق الفسيح للتكنولوجيا فى العالم المعاصر .

* * *

والتاريخ لا يقف عند يوم الدرعية ؛ بل كان يوم الدرعية موقعةً فى سنة ١٢٣٣ = سنة ١٨١٨ . وكان له يوم بعده هو العاشر من رمضان فى سنة ١٣٩٣ = السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ . وقعت فيه الحرب بين العرب وبين اليهود ، ومن كان وراءهم من دول الغرب ، وارتفع فيه صوت حفيد لمحمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب معاً هو الملك فيصل بن عبد العزيز .

وحَنَى العالم ، كله ، هاماته له . وطار رئيس جمهورية الولايات المتحدة إليه . وفيما بين اليومين مائة وسبعون عاماً من السياسة والحرب يمكن الحديث عنها بكلمات .

* * *

حمل الجيش الغازى الأحياء من آل سعود وأبناء الشيخ وأبنائهم إلى مصر بحريمهم وذراريهم سنة ١٢٣٤ ، ولم يبق منهم بالجزيرة العربية إلا من اختفى أو هرب ليعيدوا الدولة من جديد بعد خمس سنين سنة ١٢٣٩ على يد الأمير «تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود» [1] .

فحارب الأمير تركى أهل الرياض فى سنة ١٢٤٠ ، واستقر له الأمر فى نجد .

وفى سنة ١٢٤٣ قدم ابنه فيصل من مصر هارباً من الروم المسيطرين فى مصر. وفى سنة ١٢٤٩ قتل تركى بمؤامرة فثأر له ابنه فيصل وتولى الإمارة . فأرسل إليه محمد على قائده خورشيد باشا فحاصره حتى قبض عليه وأرسله إلى مصر فبقى زمناً ثم هرب من القلعة ، فبلغ نجداً ، واستقر فى عنيزة . وانطلق يغزو البلدان حتى احتل الرياض سنة ١٢٦٣ وفى سنة ١٢٦٤ غزا عُمان

(١) عبد الله بن محمد بن سعود أخو عبد العزيز بن محمد بن سعود وعبد الله رأس الفرع الثانى من حفدة محمد بن سعود . ومايزال الملك فيهم

والقصيم . ثم خلفه ابنه عبد الله وقد عقدت بريطانيا معه معاهدة سنة ١٨٦٦ على ألا يتعرض لها فى مشيخات الخليج بعد إذ خيب الله سعيها وأملها وشماتتها فى العرب .

جاء فى تقرير المستر فرانس واردن الذى قدمه لحكومة الهند عقب معركة الدرعية : (هكذا قامت وسقطت ، ويؤمل ألا تقوم مرة ثانية ، تلك الجماعة الشاذة التى شجعت الغارات البحرية فى الخليج وبحار الهند بدرجة من النجاح وجرأة وحشية لا تفوقها غير بشاعة الجزائريين فى أوربة) .

وأعلن القنصل البريطانى فى مصر شماتة قومه بقوله : (عصابة من اللصوص ثبت أنها أكثر تعصباً وأشد عداوة من أعداء الدين الذين حاولت العصابة أن تحل محلها) [1] .

وفى سنة ١٨٩١ انتفض على السعوديين واليهم على حائل — عبد العزيز بن الرشيد وكان عثمانى الولاء ، فغادر السعوديون نجد وأميرهم عبد الرحمن بن فيصل ومعه أبناؤه التسعة إلى الأحساء ثم إلى الكويت .

وكان ابنه عبد العزيز فى العاشرة فلما ناهز العشرين قاد فيلقا من ستين رجلاً من الإخوان ، واحتل به الرياض سنة ١٩٠١ م = سنة ١٣٥٩ هـ وأقام الدولة وبايع عبدُ الرحمن لابنه المنتصر . واقتصر على تسديد خطاه ونصحه ، فسارت فيالقه من نصر إلى نصر .

وبدأ بعبد العزيز التاريخ العالمى للدولة الجديدة وللدعوة فى القرن الرابع عشر للهجرة والعشرين للميلاد [2] .

---

(١) انتهت الحروب الصليبية فى الشرق وطرد الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١ ميلادية فاتجهوا إلى الغرب فى الأندلس ليجلوا عنها المسلمين فتم لهم ما أرادوا ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ ميلادية وابتدأ قرن الكشوف الجغرافية ، واتجهت أوربة صوب الهند عن طريق الغرب تفادياً لبلاد المسلمين فى شرق البحر الأبيض فاكتشفوا أمريكا بالصدفة ، وداروا حول أفريقية لتتصل البرتغال إلى الهند ، وفى سنة ١٥١١ خطب (البوكرك) فأعلن وجوب اقتلاع الإسلام من جذوره فى مكة والقاهرة ، وظهر الأسطول البرتغالى فى ينبع ثغر المدينة المنورة فأغرقه أسطول مصرى .

وفى سنة ١٦٠٠ تابعت إنجلترا مغامراتها الاستعمارية فى المحيط الهندى لتقضى على دولة الإسلام القديمة فى الهند ثم أسست لها شركة الهند الشرقية واستعمرتها وأنشأت مركزا تجاريا فى البصرة بالعراق سنة ١٦٤٣ . وفى سنة ١٧٥٠ أنشأت وكالة لها فى بغداد .

وفى سنة ١٧٩٩ احتلت جزيرة بريم عند مدخل بوغاز باب المندب .

وفى سنة ١٨٠٠ بدأت تدخل الخليج العربى ، فعقدت معاهدة مع سلطان مسقط وكثر نشاط إنجلترا فى الخليج فى عهد ولاية محمد على على مصر وسيطرته على البحر الأحمر .

وفى سنة ١٨٣٩ استولت على (عدن) فى مدخل البحر الأحمر وفى سنة ١٨٨٢ احتلت مصر ، وفى سنة ١٨٩٩ عقدت معاهدة مع آل الصباح فى الكويت .

وكانت دائما ترقب فى حذر نجاح آل سعود .

(٢) أمراء الدرعية الذين ولوا الإمارة قبل محمد بن سعود :

١ — مانع ٢ — ربيعة ٣ — موسى ٤ — إبراهيم ٥ — فرحان ٦ — ربيعة ٧ — فرحان ٨ — وطبان ٩ — ناصر ١٦٧٣ ١٠ — محمد ١٦٩٤ ١١ — إبراهيم ١٦٩٥ ١٢ — إدريس ١٦٩٦ وكل هؤلاء سعوديون ، ١٣ — سلطان بن حمد القيسى (غير سعودى)

١٤ – عبد الله بن حمد القيسى (غير سعودى قتل سنة ١٧٠٨) . ١٥ – موسى ١٧٢٠ ١٦ – سعود ١٧٢٤ ١٧ – زيد ١٧٢٦ ١٨ – مقرن ١٧٢٦ ١٩ – زيد ١٧٢٦ ٢٠ – محمد بن سعود آخر شيخ وأول أمير.

أمراء الدولة وملوكها فى مراحلها المختلفة ومدة حكم كل منهم .

١ – محمد بن سعود (١١٥٨ – ١٢٠٨ = ١٧٢٥ – ١٧٦٥ .

٢ – عبد العزيز بن محمد بن سعود (١٢٠٨ – ١٢١٨) = (١٧٦٥ – ١٨٠٣) .

٣ – سعود بن عبد العزيز – مشارى – خالد (١٢١٨ – ١٢٢٩) = (١٨٠٣ – ١٨١٤) .

٤ – عبد الله بن سعود (١٢٢٩ – ١٢٣٤) = ١٨١٦ – ١٨٢٠ .

٥ – تركى بن عبد الله ١٢٤٠ – ١٢٤٩ = (١٨٢٠ – ١٨٣٩) .

٦ – فيصل بن عبد الله (١٢٤٩ – ١٢٥٤) .

٧ – مشارى بن سعود (١٢٣٣ – ١٢٤١) .

٨ – خالد بن سعود (١٢٥٤ – ١٢٥٧) = (١٨٣٧ – ١٨٤١) .

٩ – فيصل بن عبد الله (١٢٤٩ – ١٢٨٢) = ١٨٩٥) .

١٠ – عبد الله بن ثنيان (١٢٥٧ – ١٢٥٩) .

١١ – عبد الله بن فيصل (١٢٨٢ – ١٢٩١) .

١٢ – عبد الرحمن بن فيصل (١٢٩١ – ١٣٠٩) .

١٣ – الملك عبد العزيز عبد الرحمن (١٣١٩ – ١٣٧٣) (١٩٠١ – ١٩٥٤) .

١٤ – الملك سعود بن عبد العزيز (١٣٧٣ – ١٣٨٣) (١٩٥٤ – ١٩٦٤) .

١٥ – الملك فيصل بن عبد العزيز (١٣٨١ – ١٣٩٥) (١٩٦٤ – ١٩٧٥) .

١٦ – الملك خالد بن عبد العزيز (١٣٩٥ = ١٩٧٥) .

الفصل الثالث

المنهج السلفى يقيم الدولة العصرية

(إننا لا نبغى التجديد الذى يفقدنا ديننا وعقيدتنا .
ليس هناك دليل أو سنة تمنع إحداث التلغراف) .
الملك عبد العزيز

فرضت جيوش عبد العزيز سيطرتها على أقطار الجزيرة العربية فى حزم من لا يريد سفك الدم إلا بقدر ، وفى حذر. كان فى مطالع الشباب والنصر فى ركابه ، وفى فترة سبقت الحرب العالمية الأولى ، والإمبراطورية التركية تريد أن تنقض ، وألمانيا تزاحم الدول العظمى بمنكب عظيم . فلما دارت رحى الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) - فرض عبد العزيز حياده على عالم لم يألف ذلك من العرب . ولما وضعت الحرب أوزارها حل يوم الحساب لشريف مكة ، وكان إنجليزى الولاء . فسارت إليه جيوش عبد العزيز ، وخلع أهل مكة الشريف (حسين) ، وحملت سفائن إنجلترا ابنه الملك عليا ؛ فدخل عبد العزيز سنة ١٣٤٣ = ١٩٢٤ مكة المكرمة .

وإجتمع العلماء والأعيان فأعلن فيهم جملة الخلاف الذى يحمل السلاح من جرائه :

قال فيما قال : (يقولون إننا ننكر شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة ! معاذ الله أن نقول هذا . وإنما نطلب من الله أن يشَفِّع فينا نبينا : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) البقرة/٢٥٥ ، بل ندعو الله أن يشفع فينا الولد الصغير ونقول : (اللهم اجعله فرطاً لأبويه) ولا نطلب شفاعة الطفل . وأما محبة الأولياء والصالحين فمن ذا الذى يبغضهم منا ؟ فإن كان هذا مقبولاً عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده) .

قالوا : كلنا نبايع :

قال : (أعيذكم بالله من التقية . لا تكتموا شيئاً) .

وفاقه علماء مكة علماء نجد ، فاتفقوا على (أن من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم فى جلب نفع أو دفع ضر فهو كافر حلال الدم والمال . وأن البناء على القبور واتخاذ السرج عليها وإقامة الصلاة فيها بدعة محرمة فى الشريعة ، وأن من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً) .

وتكلم عن التجديد فقال : (إن التدين الذى فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا «مرحبابه وأهلاً» وأما التدين الذى يؤذينا فى أدياننا وأعراضنا وشرفنا فوالله لن نذعن له ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب) .

وفى غرة ذى الحجة ١٣٤٧ (١٩٢٩/٥/١١) خطب الحجيج بمكة ليعلن التزامه بالمنهج السلفى ويحدد أبعاده فقال : (يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا الوهابى باعتبار أنه مذهب خاص . . . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد . فعقيدتنا هى « عقيدة السلف الصالح » التى جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله . ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة ، كلهم محترمون فى نظرنا ، إننا لا نبغى التجديد الذى يفقدنا ديننا وعقيدتنا . . . .) .

وفى ٢٠ من جمادى سنة ١٣٥١ = ١٨ من سبتمبر ١٩٣٣ أعلن قيام المملكة العربية السعودية فى جزيرة العرب .

وفى حجيج سنة ١٣٥٢ (١٩٣٤) زاد تحديداً فقال : (وقد جعلنا الله مبشرين بالكتاب والسنة وماكان عليه السلف الصالح ، لا نتقيد بمذهب دون آخر ، ومتى وجدنا الدليل القوى فى أى مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا إليه وتمسكنا به ، أما إذا لم نجد دليلاً قوياً فنأخذ بقول الإمام أحمد) .

* * *

وكما صنع هذا المسلم العظيم ملكه بالعلم السلفى – صنعه بالمسلك السلفى الذى يهب للمسلم كل القوة ، إذ يدرك من معنى الشهادة ومنطق العبادة : أن الله أكبر . وأن من كان الله معه فهو منصور .

وبالتوحيد الخالص صار بين المسلمين فى عصره « المسلم الأول » . وهذا درس فى العظمة خليق بكل مسلم أن يتعلمه .

يقول روزفلت – أول وآخر أمريكى رأس أمريكا مدداً أربعاً – لصديقه «برناردباروخ» أول رئيس للجنة الطاقة الذرية وأمريكا فى أوج انتصارها العالمى : (إن هذا الملك العربى ذا الإرادة الحديدية هو الوحيد من بين جميع من عاملتهم طول حياتى الذى لم آخذ منه إلا أقل شىء لبلادى»[1] .

---

(١) ورد النص بالفرنسية فى كتاب فيصل ملك العربية
لمؤلفه بنواميشان
والنص الفرنسى :

Faycal. Roi d'Arabie.
Benoist M chin.

Parmi tous les hommes auxquels j'ai eu affaire au cours de mavie. je n.ai pas rencontré un seul. dont l'ai pu moins tiré que ce cemonarque à la volonté de fer.

فلقد التقى الرجلان على ظهر البارجة كوينسى فى البحيرات المرة (فى أرض مصر) والحرب العالمية الثانية فى عنفوانها. قال روزفلت:

أنا سعيد بلقائك. ماذا أستطيع أن أصنع لك؟

قال ملك العرب: إنك دعوتنى للقائك فأنا أتوقع أنك تطلب منى شيئاً.

واستطردا إلى السياسة، فأعلن الملك وجوب جلاء الإنجليز والفرنسيين، المنتصرين فى الحرب والمتحالفين مع روزفلت، عن كل بلاد العرب التى يحتلونها فى آسيا وأفريقية.

وهذا الذى أعلنه لرئيس أمريكا سنة ١٩٤٥ فى الحرب العالمية الثانية عالن به القائد التركى (أنور باشا) قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨) ليجلو الأتراك عن أرض العرب.

وفى اللقاء ذاته طلب إليه رئيس أمريكا أن يوافق على زيادة هجرة اليهود إلى فلسطين فأجاب: (إننى – على النقيض من ذلك – أطلب أن يقل عدد الموجودين منهم فيها).

وفى ١٥ نوفمبر من العام ذاته خطب الحجيج فيما صار قضية الإسلام كله. فقال لممثليهم المجتمعين بمكة.

(إن مسألة فلسطين أهم ما يشغل أفكار المسلمين هذه الأيام، وقد سبق أن تكلمت مع أركان الحكومة البريطانية، كما تحدثت مطولاً مع الرئيس روزفلت).

ومن أجل فلسطين حاربت الأمة العربية حروب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ وستحارب.

ولما نشرت الوثائق السياسية فيما بعدُ ظهر أنه كتب إلى روزفلت فى ٧ شوال سنة ١٣٥٧ = ١٩٣٨/١١/٢٩: (لقد ظهر من البيان الذى نشر عن موقف أمريكا من قضية فلسطين أنه قد نظر إليها من وجهة نظر واحدة هى وجهة نظر اليهود والصهيونية وأهملت وجهات نظر العرب، وقد رأينا من آثار الدعاية اليهودية الواسعة النطاق أن الشعب الأمريكى الديمقراطى قد ضلل تضليلاً عظيماً أدى إلى اعتبار مناصرة اليهود على سحق العرب فى فلسطين عملاً إنسانياً... وأنا على ثقة بأنه إذا اتضح لفخامتكم وللشعب الأمريكى حق العرب فى فلسطين فإنكم ستقومون بنصرته حق القيام).

وأتبع هذا الاحتجاج بالتحذير الذى أثبتت الأيام صدق بصر صاحبه بالأمور، فى رسالة مؤرخة فى ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٢ = ١٩٤٣/٤/٣٠ يقول فيها: (... لقد سبق أن كتبت لفخامتكم... كتاباً أوضحت فيه حقيقة الأمر بين العرب واليهود فى فلسطين، وكنت بعد كتابى المشار إليه لفخامتكم أعتقد أن حق العرب فى فلسطين أصبح واضحاً لفخامتكم. إننا لا نريد محو اليهود ولا نطالب بذلك، ولكننا نطالب بألا يمحى العرب من أرض فلسطين من أجل إسكان اليهود فيها!

إنه – لا سمح الله – لو أعطى اليهود بغيتهم فى فلسطين لظلت فلسطين مقر الفتن دائماً ، كم حصل فى الماضى ، تسبب المتاعب للحلفاء عامة ولحكومة بريطانيا خاصة ، واليهود بما أوتوا من قوة فى المال والعلم قادرون على إيقاع الشقاق بين العرب والحلفاء فى كل وقت – حرر فى مخيمنا بروضة خريم فى اليوم . . .) .

وبعث إليه روزفلت مبعوثاً شخصياً (الكولونيل هارى هوسكنز) يستطلع : ما إذا كان الملك يقابل (حاييم وايزمان) – أحد مؤسسى إسرائيل؟ فوضح الملك الكبير الجميع مواضعهم. فكتب إلى روزفلت فى رجب سنة ١٣٦٢ (يوليو ١٩٤٣) يشير إلى الخطابين السابقين ثم يقول . . . (أما الشخص الذى هو حاييم وايزمان فهذا الشخص بينى وبينه عداوة خاصة ، وذلك لما قام به نحو شخصى من جرأة مجرمة ، بتوجيهه إلىّ دون جميع العرب والمسلمين تكليفاً دنيئاً لأكون خائناً لدينى وبلاد ، الأمر الذى يزيد البغض له ولمن ينتسب إليه ، وهذا التكليف قد حدث فى أول سنة من الحرب إذ أرسل إلىّ شخصاً أوربياً معروفاً يكلفنى أن أترك مسألة فلسطين وتأييد صفوف العرب والمسلمين فيها ، ويسلم إلى عشرين مليون جنيه مقابل ذلك ؛ وأن يكون هذا المبلغ مكفولاً من طرف فخامة الرئيس روزفلت نفسه ! فهل من جرأة أودناءة أكبر من هذه . . . ؟ وهل من جريمة أكبر من هذه الجريمة ؟) .

* * *

لم تكن الانتصارات فى ميادين المعارك ولا إقامة الدولة بتمامها إلا كهيئة الصعود إلى قمة الجبل . والاستقرار فيها أشق من الصعود إليها . وأشق منهما أن يجارى الصاعد المستقر رياح التغيير وأن تصدر مبادرات التغيير عنه .

والعمل للإصلاح الداخلى كهيئة إصلاح النفس أشق من إصلاح الغير وأدق . وفى هذا الميدان الخطير كان عبد العزيز كدأبه غَزَّاءَ ميادين وبنّاء دول ؛ فخاض معركة التجديد ببراعة وورع ، وآتاه الله الزمن فأحسن استعماله : فلقد لبث فى قومه عشر سنين ينصحهم باستعمال التليفون .

وفى سنة ١٩١١ اعترض البعض لاستعمال البرق (التلغراف) فكان جوابه من صميم الأصول الفقهية التى يعلمها ابن عبد الوهاب : ليس هناك دليل أو سنة تمنع إحداثه : أى أنه يستعمل «أصل الإباحة» .

وكذلك كان شأن السيارات والدراجات وأمثالها من وسائل الحضارة ، فمادام لا يوجد نص يقطع بالمنع فعلينا أن نجتهد لاستخلاص حكم الشارع فيما تصلح به الدنيا كما يأذن لنا بها الدين .

وفى سنة ١٣٤٥ = ١٩٢٧ اجتمع رؤساء الإخوان فى الأرطاوية وأنكروا عليه أموراً .

١ – إرساله ولده سعوداً إلى مصر .

٢ – إرساله ولده فيصلاً إلى لندن .

٣ – استخدامه السيارات والتلغرافات والتليفون .

٤ – فرض الضرائب فى الحجاز ونجد .

٥ – منعه المتاجرة مع الكويت .

٦ – إذنه لعشائر العراق وشرق الأردن بالرعى فى بلادهم .

وعجل بجمعهم للمشورة ، فاجتمعوا فى الرياض وأصدروا فتواهم المشهورة [1] .

وفى العام التالى جمعهم فى بريدة ١٣٤٧ = ١٩٢٨ وجمعهم مرة ثالثة لمناقشتهم فى تعلم الرسم

---

(١) (من محمد بن عبد اللطيف و . . . . و . . . . إلى من يراه من إخواننا المسلمين سلك الله بنا وبهم الطريق المستقيم وجنبنا وإياهم طريق الجحيم آمين . . . . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فقد ورد علينا من الإمام سلمه الله تعالى سؤال من بعض الإخوان عن مسائل تطلب منا الجواب فأجبناه بما نصه :

أما مسألة البرق – التلغراف غير السلكى – فهو أمر حادث فى آخر الزمان ولانعلم حقيقته ولارأينا فيه كلاما لأهل العلم ، نتوقف فى مسألته ، ولانقول على الله ورسوله بغير علم .

وأما مسجد حمزة وأبى رشيد فأفتينا الإمام – وفقه الله – بهدمها على الفور .

وأما القوانين فإذا كان منها شىء بالحجاز فيزال فورا ولايحكم إلابالشرع المطهر .

وأما دخول الحاج المصرى بالسلاح والقوة فى بلد الله الحرام فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة من إظهارهم الشرك وجميع المنكرات .

وأما المحمل فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام ومن تمكن أحد أن يتمسح به ويقبله . وما يفعله أهله من الملاهى والمنكرات يمنعون منها وإما منعه من مكة بالكلية فإن أمكن بلامفسدة تتعين وإلا فاحتمال أحد المفسدتين ه لدفع أعلاهما سائغ شرعا .

وأما الرافضة فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل . وعلى الإمام أيضا أن يلزم نائبه على الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر . ويبايعون على دين الله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم . وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ويمنعون من زيارة المشاهد . ولذلك يلزمون الاجتماع للصلوات الخمس هم وغيرهم فى المساجد . ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة ويلزمون تعلم ثلاثة الأصول وكذلك فإن كانت لهم محال معينة لإقامة البدع تهدم ، ويمنعون إقامة البدع فى المساجد وغيرها من أبى قبول ماذكر ينفى من بلاد المسلمين .

وأما الرافضة من أهل القطيف فيلزم الإمام أيده الله – الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم ما ذكرنا .

فأما البوادى التى دخلت فى ولاية المسلمين فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين ويلزم نوابه من الأمراء فى كل ناحية مساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام ومنعهم من المحرمات . . .

واما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول فى مواقع المسلمين وأرضهم .

وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة فإن تركها فهو الواجب عليه ، وإن امتنع فلايجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته لأجلها .

وأما الجهاد فهو محول إلى نظر الإمام وعليه أن يراعى ماهو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ماتقتضيه الشريعة الغراء .

ونسأل الله لنا ولكم ولجميع المسلمين التوفيق والهداية . . . . .) .

ونفذ الإمام فلم يقبل المحمل . وهدم مسجد حمزة . وعطل التلغراف . ثم فرضه الزمان على الجميع فى حياة عبد العزيز .

واللغة الأجنبية والجغرافيا . فلقد كانوا ينكرون كروية الأرض مع أن هذا كشف عربى قديم . فلم يجيئوا بدليل ضدها ، بل أجابوا بما يمكن إجماله فى العبارة التالية : (لقد أدلينا برأينا فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله ، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها) .

وهكذا عمل العلماء بأصل طاعة الإمام إذا لم يأمر بمعصية ، وساروا وراءه فى أصل الإباحة . وهم العليمون باقتداره فى اجتهاده وإخلاصه لله وورعه . وهم سلفيون يحفظون حديث عبادة بن الصامت – وكان أحد النقباء : (بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرةٍ علينا . وعلى ألا ننازع الأمر أهله . قال إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم) .

وبارك الله فى الأرض التى يُعبد فيها الله وحده . فتفجرت فيها ينابيع البترول فى حياة عبد العزيز . فضلاً من الله ونعمة ، وإيذاناً بعصر جديد تعلو فيه كلمة المملكة السعودية ، ومعها كلمة الأمة العربية ، أى كلمة الإسلام .

وفى سنة ١٩٥٣ صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى فتتابع على الملك أبناؤه سعود ففيصل فخالد .

الملك فيصل بن عبد العزيز :

لئن مثل عبد العزيز وابنه فيصل روح الدعوة الوهابية وهو إحياء العقيدة الصحيحة وإيقاظ المسلمين – إن لفيصل شأناً خصته به السماء هو أن يثبت حضور ابن عبد الوهاب فى عصرنا الحاضر ، فى فترة حاسمة كل الحسم فى تاريخ المسلمين : ففى فيصل تجتمع دماء (محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود) فأمه بنت عبد الله بن حسن قاضى قضاة نجد وحفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

قرأ القرآن على جده . وسُقى الورع منذ الحداثة . وقاد جيوش أبيه وهو فى مطلع شبابه ، ففتح عسير سنة ١٣٤٠ . واختص بتمثيل أبيه فى محافل السياسة . فلما جاء إليه الملك جاءه فى ميادين السياسة والشجاعة والورع والزهد وعلوم السلف .

وكان ابنَ عبد العزيز حقاً ، وحفيد محمد بن عبد الوهاب صدقاً . حيى حياة زاهدة لا طاقة بها للملوك ، ولمعت فى أفعاله ومضات فكر أخلص صاحبه لله وللناس ، فسار سيرة السلف الصالح ، فكان كما عبر عنه بعض الفرنجة رجل عالمين : الدنيا والآخرة !

تخضلّ عينه بالدمع أو ينهلّ من مأقييْه القطر إذ يستمع إلى خطبة الجمعة ، – فى حين يدفع بساعدين قويين جزيرة العرب فى ميادين الحضارة العصرية التى يأذن بها الإسلام . ويشيد

الجامعات الدينية والعلمية والصناعات الحديثة والزراعات المختلفة ، ويعلم المرأة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويفتح الميادين لشعبه ، ويمد يد المساعدة لأهل الإسلام فى أكثر من مكان .

ولما دنت ساعة العسرة حمل مسئولية الإسلام كله على عاتقه . فجالد الدول العظمى جلاد رجل عرك السياسة العالمية ، فجعلها أسمع للحق وأنطق بالصدق ، وأبصر بحقوق العرب .

يومئذ دخل فيصل التاريخ مدخل صدق : إنه الرجل الذى صيرّ البترول – عصب الحرب والسلام – مصدر قوة للعرب بعد إذ كان منشأ خوف لهم

والله الذى يرسل السحاب والغيث حيث يشاء ، ويخرج الخير من الأرض حيث يشاء – ينصر بالقيم الدينية التى تقيم الأمم ، وبالقوة المادية التى تلزم للانتصار .

فلم يك صدفة ، وإنما كان حساباً من حسابات السماء – أن تفتح بركاتها فى حياة الملك الصالح فيصل بن عبد العزيز ، فتدر آبار البترول من باطن الأرض على جزيرة العرب لتبقى على مكانة الإسلام .

وصدق فيصل عهده لله وللمسلمين يوم أعلن (إن كبرى أمانىّ أن أصلى فى بيت المقدس قبل أن أموت) ليبقى استرداد أولى القبلتين صيحة للحرب ، وغرضاً للسلام ووصية لأهل الإسلام ، من ابن محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب .

ولئن كانت إشارة عبد العزيز إلى «مخيَّمنا بروضة خريم إذ يكتب إلى «روزفلت» تمسكاً بالعروبة وفحولة بساطتها ، إن شجاعة فيصل وإيمانه بصنيع السماء فى الانتصار العربى فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ – أعادت للمسلمين ذكريات صلاح الدين فى حطين وفى بيت المقدس ، وأمكنته أن يقول لرئيس أمريكى آخر يوم طار إليه (الرئيس نيكسون) فى جزيرة العرب : (لقد ولدنا وولد آباؤنا فى الصحراء ونحن من أجل أمتنا على استعداد للعودة إلى الصحراء) .

وفسر بعضٌ ذلك المقال بأنه التهديد ، وفسره بعض بأنه إعلان بالاستعداد أو الجهاد .

وصدق رسول الله ﷺ : (مثل أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره) .

ولقد شاءت السماء لفيصل أن يموت ميتة الشهداء ، برصاصة مجنون سنة ١٣٩٥ = سنة ١٩٧٥ . فلما صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ترك المملكة العربية السعودية عاشر دولة فى العالم من حيث المساحة . تزيد مساحتها مرة ونصف المرة على مساحة دول السوق الأوربية المشتركة التسع ، جماع سياستها فى الداخل : تطبيق الشريعة بالفعل أما سياستها الخارجية فالدعوة للإسلام ، والدفاع عن مبادئه فى كل مكان .

وأورث فيصل المسلمين جميعاً قوة البترول بعد أن كان إحدى تبعاتهم !

فما أعظم ما قدم للمسلمين حفيد ابن سعود وابن عبد عبد الوهاب .

الفصل الرابع

صعود الشمس فى السماء

(ليس لأحد أبداً أن يقول فى شىء حل ولا حرم
إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخبر من الكتاب أو السنة
أو الإجماع أو القياس) .
(والاجتهاد القياس) الشافعى

كانت حروب الجزيرة العربية صدى الصوت المهيب الذى أيقظ المسلمين ووحد جزيرة العرب . وكانت بطولات الدرعية بُشريات بانتشار ضوء النهار ، ولما لم يُلق العرب السلاح كان انتصار دعوتهم مسألة زمن . وطريق التاريخ طويلة ليست الأحداث أو الأشخاص فيها إلا علامات طريق :

لقد انتصر الأتراك مراراً على المسلمين ، لكنهم كانوا ينهزمون أمام الإسلام فيسلمون . وعندما ينتصر الإسلام ينتصر العرب كمثل ما ينتصر العرب كلما انتصر الإسلام .

والإسلام يخدمه أهله إذا عملوا به ، وكثيراً ما يخدمه أعداؤه إذا فهموا مبادئه .

لقد انسحب «نابليون» من مصر وخلف على جيشه «كليبر» . فلما قتل «كليبر» تولى قيادة الجيش الفرنسى بعده (مينو) . وهدى الله (مينو) للإسلام فأسلم .

وانهزم نابليون عن مصر ، فراح يطير فى آفاق أوربة من نصر إلى نصر ، ويهز عروشها وهى متفرقة ، حتى إذا قهرته وهى مجتمعة – بدأت مبادئ الثورة الفرنسية فى الانتشار بعد إذ انهزمت جيوشها . أن كانت تحمل مع عتادها الحربى مبادئ ينادى بها الإسلام هى الحرية والإخاء والمساواة وحق تقرير المصير . ثم تتابعت ثورات التحرير فى أوربة . وكانت تركيا أول الخاسرين ، فاستقلت اليونان عنها ، وتتابع انفصال الدول منها مملكة مملكة فى أوربة .

وكان شروق الدعوة الوهابية من جزيرة العرب خسراناً مبيناً للأتراك قبل قيام الثورة الفرنسية ، وفيما بعدها ؛ فهى قد شرقت وغربت كهيئة انتشار الإسلام من جزيرة العرب ، وكانت شرارتها تشعل الضوء والدفء ، وتحدث القوة المحركة فى بلدان تدين بالولاء لتركيا فانتهى أمرها بالاستقلال عنها . وصاحب انتشار الدعوة ظهورُ أثر المطبعة وتعليم الناس ، فتتابع على مبادئ الدعوة رجال لا يكتفون بمجالس العلم ، بل يعملون ، ويجاهدون فى شتى الميادين ، فكرية ، أو سياسية ، أو

عسكرية . وتعمل الانتصارات والهزائم فى خدمتهم ، لنشر المبادئ التى نادى بها محمد ابن عبد الوهاب .

والذين يعلمون ولا يعملون يبخعون أنفسهم (١) .

* * *

١ – لقد علمت تجارب الدعوة المسلمين على مدار قرون ثلاثة أن الوسيلة القاصدة للإصلاح هى البدء بتطبيق الشريعة وتنقية عقائد المنحرفين ، لإقامة الجماعة الصالحة التى تنبت الرجال الصلحاء ، وإن احتاجت إلى سنوات . وما السنوات فى عمر الإسلام إلا سويعات .

ودرس الدعوة قائم كذلك للعالم . فالشرق والغرب الآن يرجعان البصر يمنة ويسرة يبحثان عن مخرج من شراكٍ أوقعتها فيها عبادة المادة والإحساس الذى يستبد بضمائر الناس كلما حققوا نصراً علمياً أو اقتصادياً ، لا يقابله نصر على أنفسهم ، إذ يتجلى لهم أنهم يظفرون بفراغ لا يملؤه إلا القيم الدينية التى تهب معنى للحياة . فالطريق مفتوحة أمام رجال الدعوة الإسلامية إلى القلوب فى الشرق والغرب . يقول جورج سارطون ما يردده الآن كثيرون :

(لقد سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفى سنة قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم فى المستقبل القريب أو البعيد !) .

٢ – أما المنهج السياسى المحض للإصلاح فقد سار عليه الأتراك فى القرن التاسع عشر ، وانتهى بهم فى القرن العشرين إلى دولة علمانية حرص دستورها على رفع الدين من نصوصه ، ثم اطرحت مجلة الأحكام العدلية المستقاة من الفقه الحنفى واستوردت قوانينها من تشريعات سويسرية فصنعت فى نفسها ما حاول أن يصنعه نابليون ، إذ كان بمصر ، فعرض فى أول جلسة للديوان استبعاد الشريعة لاستيراد قوانين فرنسية فيما بعد فرفض علماء الأزهر .

وكهيئة نابليون اختط محمد على للإصلاح خطة استيراد «عقلية أوربية» وانتهت خطته بحفدته إلى استيراد التشريعات الأوربية بدلاً من الشريعة ! .

فلما احتلت الجيوش البريطانية مصر فى سنة ١٨٨٢ كان من انتصارات البريطانيين على المصريين

---

(١) عاصر ولى الله الدهلوى فى الهند (١١١٤ – ١١٧٦) محمد بن عبد الوهاب من مطلع حياته وكان علمًا يشار إليه بالبنان فى مذهب أبى حنيفة ، يستنكر الكثير من الانحرافات التى تحاربها الدعوة ومع ذلك لم يتأثر به المجتمع الإسلامى إلا كهيئة تأثير الفقهاء فى الدارسين عليهم ، لأنه اكتفى بالعلم دون العمل ولم يجاهد فى سبيل فكره فى حين أحدث السيد أحمد (١٧٨٢ – ١٨٣١) – إصلاحا كبيرا فى الهند بجهاده ، ولم يكن حظه من العلم حظ الدهلوى .

خاصة والمسلمين عامة – أن قرر مجلس وزراء الاحتلال العدول عن قرار مجلس الوزراء فى سنة ١٨٨١ بتقنين الشريعة الإسلامية ، وأقر الإنجليز استيراد قوانين أوربية لتطبيقها على المصريين فلم تقدر القوانين على أن تجعل المصريين أوربيين ، ولم يقدر المصريون مع وجود هذا القانون أن يطبقوا الشريعة إلا فيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية .

٣ – وأما المنهج التعليمى فمنهج تجريبى يستعمل الزمن إذ لا تسعفه القدرة ، ويفت فى عضده خذلان السلطة له ، مع تعويله عليها . وقد سلكه كثيرون فى القرن الثالث عشر الهجرى – التاسع عشر الميلاد – أظهرهم عالمان مصريان من أشهر علماء الأزهر أولهما رفاعة الطهطاوى (١٧٩١ – ١٨٧٢) وقد أبعده السلطان إلى السودان ، فلما رجع انكب على التأليف والترجمة والتعليم وسار محمد عبده أشواطاً بعيدة على المنهج ذاته . وقد نفته من الوطن محكمة عسكرية ، فلما عاد سار على دربه وأيده الشعب فيه .

والمنهج أكثر اقتراناً بمحمد عبده لأنه « جاهد » الإنجليز والأتراك والخديويين والعلماء المعممين ، وتوجّه طول حياته وجهة إصلاح الأزهر ، وفى الإصلاح الدينى إصلاح الجماعة .

فالمنهج التعليمى يمشى بساقين هما القيم الدينية وتأييد السياسيين أصحاب السلطة . ومن ثمة عثرات أصحابه كلما أصاب الوهن ساق السياسة .

* * *

من أجل ذلك كثر خلاف دعاة الإصلاح مع الساسة ، واختط كل من تلاميذ محمد بن عبد الوهاب للإصلاح خطة تنجحه : فكان المهدى فى السودان أقدر على الإصلاح ؛ لأنه « حارب » وانتصر وقاد المجتمع . وعاش السنوسى بدعوته بعيداً عن مجال السلطة فى زوايا أقامها بالجبل أو فى الصحراء التى تعيش فيها القبائل . واقتصر الشوكانى وهو فى سدة الحكم على القضاء والتأليف فى محاربة البدع . وسار الألوسى بالعراق والكواكبى فى الشام على الدرب ، أما السيد أحمد فى الهند فقد استعمل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وتلمذة هؤلاء لابن عبد الوهاب لا يستبعدها عدم اللقاء أو انصرام الزمان ؛ فلقد تصارمت الأجيال بين العُمَرين . وعمر بن عبد العزيز نخبة المدرسة التى تعلقت بأسباب عمر بن الخطاب وإن لم يلقه .

الشوكانى : محمد بن على الشوكانى (١١٧٣ – ١٢٥٢ هـ) أفتى فى العشرين من عمره وولى القضاء بصنعاء باليمن حيث الأئمة – الحكام – شيعة . والشعب قسمان فسكان المرتفعات شيعة وسكان تهامة شافعية .

وانضافت إليه الوزارة بعد سنوات ، فتمرس بمسئولية الحكم . وخلع ربقة التقليد ، فلم يحصر

نفسه فى دائرة المذهب الزيدى ، بل بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق .

وقد ترجم حياة آل تيمية فى خطبة كتابه (نيل الأوطار فى شرح «منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار» لابن تيمية «مجد الدين» .

بهذا يلتقى هو وابن عبد الوهاب فى منبعها العلمى وفى سلفية آل تيمية . ولما مات ابن عبد الوهاب رثاه الشوكانى أكثر من مرثية .

يقول فى نيل الأوطار كلاماً قاله من قبل ابن تيمية «تقى الدين» وابن القيم وابن عبد الوهاب (وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام . منها اعتقاد الجهلة كاعتقاد الكفار للأصنام ، وأعظم من ذلك ظنهم أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً يطلب لقضاء الحوائج ، وملجئاً لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم . وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا ، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً كانت الجاهلية تفعله إلا فعلوه ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حميةً للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ولا وزيراً ولا ملكاً .

وقد توارد علينا من الأخبار ما لا يشك فيه أن كثيراً من هؤلاء «القبوريين» أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه تعالى ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة ! فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين ، أى رزء للإسلام أشد من الكفر وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون مثل هذه المصيبة ؟ وأى كفر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين) ؟

وأكثر الشوكانى من التأليف فى أسباب تأخر المسلمين وبدّع الصوفية الفلاسفة . ومن تأليفه

---

(١) يقول فى بعض مراثيه عن محمد بن عبد الوهاب :

لقد مات طود العلم قطب رحى العلا ... ومركز أدوار الفحول الأفاضل
أفق يامعيب الشيخ ماذا تعيبه ... لقد عبت حقا وارتحلت بباطل
أفيقوا أفيقوا إنه ليس داعيا ... إلى دين آباء له وقبائل
دعا لكتاب الله والسنة التى ... أتانا بها طه النّبى خير قائل

ويقول فى آل سعود :

هم الناس أهل الفضل يعرف فضلهم ... جميع بنى الدنيا فما للمجادل
لقد جاهدوا فى الله حق جهاده ... إلى أن أقاموا بالظبى كل مائل

كتاب (قطر الولىّ على حديث الولى) ، وفيه ينفى معرفة أى ولى للغيب ، ويقرر مذهب ابن تيمية فى أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وأن الولاية لله ومن الله ، ينالها من يعمل عملاً صالحاً فى الفروض والنوافل .

وكمثله يوجب الاجتهاد ويندد بالتقليد يقول .

(والذى أدين به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشىء من علم النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه فى ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة . ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأى سواء كان قائله واحداً أو جماعة الجمهور) .

وفى كتابه (الدواء العاجل لدفع العدو الصائل) نبه على «أن الفتنة لا تنزل بالأمة ويتغلب عليها العدو إلا لما ترتكبه من المعاصى عقوبة من الله لها مثل عقوبة الخوارج ثم القرامطة والباطنية ثم الترك ، وكما يقع كثير من تسليط الفرنج وغيرهم» .

وانتشر علم الشوكانى فى الهند – وباكستان الحالية – وفى سائر ديار المسلمين ومصر خاصة ومن كبار تلاميذه محمد صديق خان (١٢٤٨ – ١٣٠٧) أمير مملكة بهوپال .

السيد أحمد : حج السيد أحمد (١٧٨٢ – ١٨٣١) من الهند فى سنة ١٨٢٢ ، والسعوديون منهزمون من بضع سنين لكن أنباءهم تذيع أسباب الدعوة للمذهب ، ثم عاد إلى البنجاب ينشرها فى رقعة كبيرة فى شمال القارة الهندية حتى البنجاب .

وكثر أتباعه واستعملوا القوة لمقاومة البدع ، وخشيت بأسهم الحكومة الإنجليزية واعترضت طريق الإصلاح التى سلكوها .

وظهر أثر السيد أحمد بالإصلاح التعليمى والاجتماعى بين أسباب النهضة التى نهضتها الهند وباكستان فى القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد .

السيد محمد بن على السنوسى : (١٢٠٤ – ١٢٧٦ = ١٧٨٧ – ١٨٥٩) من ذرية المثنى ابن الحسن بن على .

قضى بواكير حياته فى خواتيم الملحمة التى صنعتها دعوة ابن عبد الوهاب ، وتنقل بين صحراء مستغانم بالجزائر ، وبين جزيرة العرب ذهاباً وجيئة .

طلب العلم فى فاس بالمغرب ، ورحل إلى مكة فتلقى العلم على علمائها ، وبنى زاوية للتعليم فى جبل أبى قبيس بمكة ، ثم قفل راجعاً إلى الجبل الأخضر فى ليبيا سنة ١٢٥٥ ، فأكثر من بناء الزوايا هنالك ، ثم رجع سنة ١٢٦٣ إلى مكة يقيم فى الزاوية ، ويحدث الحديث ويفقه الطلاب ثم قصد إلى مصر سنة ١٨٤٠ ليبقى بها عامين ، فألقى دروساً بالأزهر ، وأصبحت القاهرة بعد ذلك ملجأ

لبنيه كلما أحدق بهم خطر ، بعد إذ صار إليهم ملك ليبيا .

ومن القاهرة بعث إلى واحة جغبوب بالصحراء فى وسط أفريقية ، فبنوا له زاوية انتقل إليها سنة ١٢٧٣ لنشر طريقته إلى أن توفى سنة ١٢٧٦ .

وفى سنة ١٣١٣ انتقل مركز الدعوة من جغبوب إلى واحة الكفرة .

والسنوسيون يركزون على التعليم وتحفيظ الكتاب الكريم وتضييف ابن السبيل ، ليعلموه العقيدة الصحيحة ؛ وشراء العبيد وتحريرهم ، وإنكار التضرع للأولياء وزيارة القبور للتوسل ، وشرب القهوة والتدخين ، ويحضون على السعى للرزق ، فالسنوسية منهاج حياةٍ حجر الأساس فيها هو التعليم ونشر الإسلام على أساس التوحيد الخالص .

محمد بن أحمد « المهدى » ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٨٨٥ . من أسرة قيل : إنها من الأشراف الحسينية أصلها فى مصر بمحافظة أسوان . حفظ القرآن ودرس التفسير وصار عضواً فى الطريقة السمانية التى قامت فى السودان فى أوائل القرن . وانتقل إلى (جزيرة أبا) ، فأقام خمسة عشر عاماً يهدى الناس إلى الدين الصحيح ، ويمنع الأذكار وينهى عن التبرج والإقبال على الملذات ويأمر الناس بالزهد .

وفى سنة ١٨٨١ أعلن أتباعه أنه المهدى المنتظر ، مع إلحاح الرجل فى الإفصاح عن أن مهمة حياته هى إحياء السنة وتعليم العقيدة الصحيحة .

ولما نجحت دعوته أعلن أنصاره الثورة على الحكومة ، وكانت مصر والسودان دولة واحدة ، فحارب جيوش الحكومة – وكان يقودها إنجليز يضمرون لها الشر بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ – واستولى على الخرطوم سنة ١٨٨٥ . وأعلن أنه يريد أن يأسر القائد الإنجليزى فى الخرطوم حيًّا ليفك به أسر القائد المصرى أحمد عرابى الذى نفاه الإنجليز إلى إحدى جزرهم بعد هزيمة الجيش المصرى سنة ١٨٨٢ فى معركته مع الإنجليز .

انتصر المهدى فأقام دولة بالسودان ، وأصدر التشريعات لمقاومة البدع والعادات التى لا تقرها الشريعة . وأقام الحدود . ومد حد القذف فعاقب بنفس العقوبة على كل لفظ شوه وجه الأدب ، وطبق حد الخمر وجلد على التدخين ثمانين جلدة مع حبس أسبوع . وعزر على الرقص والقمار ، وقلل المهور فللبكر عشرة ريالات وللثيب خمسة . وأباح طلاق زوجة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها ما تنفقه إلا أن يكون فى جهاد .

واختار مذهب أبى حنيفة فى فقه المعاملات .

ويضع المهدى وثورته فى مكانهما الصحيح فى التاريخ تصريح من الشيخ محمد عبده* حينما

قصد إلى لندن بعد نفيه من مصر فقال للحكام الإنجليز : (لاخطر من حركة المهدى ؛ إنما الخطر على مصر من وجود الإنجليز فيها ، فإذا غادر الإنجليز مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، وهو الآن محبوب من الشعب المصرى ، لأنهم يرونه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى ، وينضمون إليه عند حضوره) .

محمود شكرى الألوسى : (١٢٧٣ : ١٣٤٤) الألوسيون أشراف فى العراق . أشهرهم أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسى صاحب التفسير الشهير (روح المعانى) ١٢١٧ - ١٢٧٠ ، وكان مفتياً حنفيًّا للعراق ومن أبنائه عبد الله (١٢٤٨ - ١٢٩١) جلس للقضاء على مذهب أبى حنيفة بعد إذ كان شافعياً . ومن أولاد عبد الله محمود شكرى الألوسى المعروف بجمال الدين أبى المعالى الألوسى .

تعلم محمود شكرى الألوسى فى حداثته على أبيه ، فلما مات كفله عمه السيد نعمان خير الدين الألوسى (١٢٥٢ - ١٣١٧) مؤلف كتاب (جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين) : أحمد بن حجر وأحمد بن تيمية . ومن تأليفه كذلك مختصر ترجمة ابن الجوزى لأحمد بن حنبل .

وكان يستنسخ مريديه وتلاميذه كتب ابن تيمية ليتدارسوا مبادئه ، ويؤلف الكتب فى ذم الذين يستغيثون بغير الله والمعطلين والمشبهين من المتصوفة والقادحين فى فقه ابن تيمية .

كما ألف كتاباً أسماه (فصل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وكتاباً أسماه (القول الأنفع فى الردع عن زيارة المدفع) . وكان مدفعاً من بقايا عتاد حربى ، نصبه الأتراك فى بغداد سنة ١٠٤٧ فأصبح وثناً يحج إليه العامة ويقدمون النذور له !

وفى مؤلفه (تاريخ نجد) شرح العقيدة السلفية وشمائل الناس ومعايشهم ، فتحدث عن أمراء

---

(١) صار محمود شكرى رئيس المدرسين فى إحدى مدارس بغداد ، وظفر بجائزة لجنة اللغات الشرقية فى « استوكهولم » بالسويد لكتابه (بلوغ الأرب فى أحوال العرب) سنة ١٨٨٣ ، ثم نفاه الأتراك من بغداد زمانا ، ثم أطلقوا سراحه فزاد عزا فى قومه .

ولما هجمت الجيوش البريطانية على العراق بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) استغاثت تركيا بأمير نجد (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) واستعانت بواحد من محبيه هو محمود شكرى الألوسى ليفاوضه ، فأبدى الأمير له معاذيره ورفض الإسهام فى مناورات دول تغتصب أرض العرب .

وفى سنة ١٣٣٥ سقطت بغداد فى أيدى الإنجليزفعرضوا على محمود قضاء بغداد فمنصب الإفتاء فمشيخة الإسلام فلم يقبل ؛ فلقد كان يستصحب قول أبى ذر لمسلمة : (ياسلمة لاتغش أبواب السلاطين فإنك لاتصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه !)

آل سعود وجهادهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأرخ لعلماء نجد ، وخص منهم محمد بن عبد الوهاب [١] .

محمد عبده : - (١٢٦٦ - ١٣٢٣ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥) .

تلمذ محمد عبده لجمال الدين الأفغانى ، وكتب فى الصحف وألف رسالة الواردات ثم حاشية على شرح الدوانى ثم تخرج من الأزهر سنة ١٨٧٧ ، فعين مدرساً به ، فمدرساً بدار العلوم ، فمحرراً بالوقائع الرسمية سنة ١٨٨٠ ، ثم اشترك فى الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وحوكم ونفى فى العام ذاته .

وأنشأ فى منفاه مع جمال الدين جريدة العروة الوثقى فى باريس لإيقاظ أهل الإسلام وعاد إلى مصر فعين قاضياً سنة ١٨٨٩ ، فمستشاراً بالاستئناف فعضواً بمجلس الأزهر سنة ١٨٩٥ ، فمفتياً للمسلمين سنة ١٨٩٩ ، فرئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٩٠٠ ، فتتابع على رياستها بعده سلطان مصر حسين كامل ، والأمير يوسف كمال . فعدلى يكن فمحمد محمود من رؤساء الوزارة فشيخا الأزهر المراغى ومصطفى عبد الرازق .

وفى سنة ١٩٠٥ استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على الخديو وبعد أشهر وافته منيته ، فلم يشغل أحد مكانه فى أمة الإسلام حتى هذه الساعة . وهو أكبر علماء الأزهر أثراً فى الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر ، والكلام عنه كلام عن واقعنا ؛ ولا تزال كلماته فى العروة الوثقى برامج إصلاح لعالمنا المعاصر . وكلامه فى البدع كلام السلفيين والمتكلمين ، وطريقته فى الإصلاح طريقة «الأصوليين» و«العمليين» جميعاً .

يقول إثر عودته من منفاه عن أصول منهجه للإصلاح : (إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن

---

(١) قال عنه المستشرق ماسنيون وهو يرثيه : (كتب ليحبب للمسلمين المذهب الحنبلى على الطريقة الحديثة الوهابية ، وقد نشر كل هذا باسم مستعار) ولا شك خفيت بعض الكتب على ماسنيون فالألوسى قد كتب كتاب (فصل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب) وقال فى تقديمه (الإمام محيى السنة ، ومجدد الشريعة النبوية أبوعبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدى الحنبلى تغمده الله برحمته . . .)

فلم يكن الألوسى ليخفى أو يخاف أو يكتب باسم مستعار.

وأجمل الأب أنستاس الكرملى حياة محمود شكرى الألوسى وشخصيته فى الكلمات التالية عندما رثاه : (كانت كتاباته غارة شعواء على الخرافات المتأصلة فى قلوب الجهلة والتقاليد الموهومة التى لا نصيب لها من الدين . . . وكان قد وصل إلى حالة قاسية من الحاجة إلى المال فى عهد الاحتلال البريطانى ، لأن الأتراك أفقروا البلاد ، فلما عرف ذلك المعتمد السامى (البريطانى) برسى كوكس أهدى له ثلثمائة دينار ذهبا إنجليزيا وكلفنى تقديمها إليه . فلما أتيته بها رفضها بتاتا وقال : (خير لى أن أموت جوعا من أن آخذ مالم أتعب فى كسبه) إلا أن فاقته كانت وقرا على وعلى محبيه فتكلمت مع أولى الأمر وتمكنت من أن يعين قاضى قضاة المسلمين فى العراق ، فلما وقف على تنصيبه أبى وقال : (إن هذا المقام يستلزم علماً زاخراً وذمة لا غبار عليها ووقوفاً تاماً على الفقه . وأنا لا أشعر بذلك . ووجدانى يحكم على بأنى غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضى قضاة المسلمين) .

مراقبة الحكومات فنعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا التــلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار ؛ فقال : أنت مثبط !) . . .

وسنراه رجل قول وعمل بلغ فى كل منهما الذروة : يلى الوظائف الكبرى ويخوض فيها المعارك الضخمة ، ويتعلم الفرنسية . ويفحم بكتاباته أحبار المسيحية وفلاسفتها أمثال هانوتو ويكتب فى الصحف . ويفسر القرآن ، ويصب اللعنة على السياسة الإنجليزية وهو فى العاصمة الإنجليزية . وسنراه الشيخ الكبير لمدارس المصلحين والسياسيين المصريين كافة ، وفى طليعتهم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، وقاسم أمين قائد حركة تعليم المرأة ، والشيوخ والعلماء الأحرار فى الأزهر محمد مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق وعلى سرور الزنكلونى وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ، كما رأس ، وهو فى الوقائع الرسمية ، سعد زغلول وإبراهيم الهلباوى [1] ووفا زغلول وعبد الكريم سليمان وتتلمذ فى رياسته رؤساء الوزارات سعد وعدلى ورشدى وثروت ومحمد محمود والزعيمان محمد فريد وطلعت حرب والشيخان المراغى ومصطفى عبد الرازق .

وظل على ما بدأ به حياته فى عهد الطلب متقشفاً زاهداً يقاوم الخرافات والجهالات فى كل موقع شغله أو اطلع على عيوبه أو استعان به أصحابه لإصلاحه .

* * *

ولما كرثت مصر كارثة الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ واجتمع عليها الحكم التركى يمثله الولاة من أبناء محمد على والاستعمار البريطانى كتب عن محمد على – وحفيده الخديو عباس حلمى الثانى على عرش مصر يحتفل بمرور مائة عام على تأسيس دولته – فقال : (ماذا صنع محمد على ؟ . . . لم يستطع أن يُحيى ولكن استطاع أن يميت ! . . اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير خاضع للسلطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب الأوربيين فأوسع لهم فى المجاملة !

. . . وانقلب الوطنى غريباً فى داره غير مطمئن فى قراره . فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية ، وذل سامهم الأجنبى إياه ليضل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة . . .) .

وقال عن محاربة محمد على للدين : (لا يستحى بعض الأحداث من أن يقول : إن (محمد

---

(١) أول النقباء وأشهر المحامين فى العالم العربى – انظر (المحامون وسيادة القانون) للمؤلف طبعة ١٩٧٦ ص ١١ الى ص ١٢٩ .

على) جعل جدران سلطانه بنيةً من الدين[1] . أيّ دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين التحصيل ! دين الكرباج ! دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل؟ لا يذكرون إلا «مسألة الوهابية» وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين . . .) .

ولا عجب – وهذا رأيه فى محمد على وفى (المسألة الوهابية) – أن يقول فيه أنصار محمد على وأعداء ابن عبد الوهاب : (إن مبنى أصول محمد عبده فى ضلالته على أصول ابن عبد الوهاب) (٢) .

* * *

(١) كان فهم محمد على وأسرته للدين مجرد إقرار بالإيمان دون القيام بعمل صالح أو إدراك صحيح لحقائق التوحيد. ومن أمثال ذلك دعوة حفيده إسماعيل علماء الأزهر ليقرءوا صحيح البخارى إبان هزائم جيشه فى حرب بالحبشة لينصر الله الجيش ، فكانوا يقرءون فى القصر وكانت الجيوش تنهزم فى الميادين فقال لهم : إما أنكم لا تقرءون وإما أنكم لستم بعلماء ! فأجابه واحد منهم : إن النبى ﷺ يقول : «لتأمُرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) .

(٢) عبر محمد عبده عن المنهج السلفى بسيرته فى الكفاح وبمؤلفاته أصدق تعبير وواجه الملحدين والدهريين والمشككين . يقول فى كتابه رسالة التوحيد :

إن الله وهب لنا الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه ، لها أو عليها . وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا . . . فذلك إنما يرد إلى الله وحده . فلا يجوز أن نخشع إلا له ولا نطمئن إلا إليه . . . لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله .. فهو وحده مالك يوم الدين.. اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها بما لو اختلف فى الصورة والشكل أو العبارة أو اللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة ، فتبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة . . . . وتخلصت تلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وغيرهم . وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض قاهر الناس أجمعين . . . . سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هى : كإرادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما ظن فى القبور والأحجار ، والأشجار والكواكب ونحوها وانفكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم وسيلة النجاة . . .

صار الإنسان بالتوحيد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ما سواه . . . ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم . . . ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء . . . طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه .

ويقول فى الاجتهاد والتقليد : (أنحى الإسلام على التقليد . . . وأقتلعت أصوله الراسخة وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته . . . علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام . ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون إلى طريق البحث هادون .

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم . . . فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان قد استعبده . يقضى فيه بحكمه وحكمته . . . !

بهذا وما سبقه تم للإنسان أمران عظيمان طالما حرم منهما : وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر . وبهما كملت له إنسانيته وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين . . .ولم =

أعلن محمد عبده — بعد تقلبه فى الوظائف وأسفاره فى الممالك وكفاحه لإصلاح الجماعة أنه فى طول حياته كان يتأخى « المنهج السلفى » الذى يستعمل العقل ويتسع للاجتهاد ، فقال فى مذكراته التىكتبها فى خواتيم حياته :

(ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف بالرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى واعتباره من موازين العقل البشرى التى وضعها الله . . . وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا الدهر ومن هو فى ناحيتهم .

أما الأمر الآخر فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير . . .

وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى أمرين : كليهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب...

وأضاف أن الحكومة العادلة هدفه ، وأن الوسيلة إليها هى بذر بذور التعليم وتربية غراسها فى الأمة . قال :

(وهناك **أمر ثالث** كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه وعن تعقله ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ؛ وما أصابهم الدهر بالضعف والذل إلا بسبب خلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على

= يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد السيد المسيح ، وقرر هذا الحكيم أن هذا الإشعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان . . . ا) .

ويقول : (واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذلته الأنصار . . . لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم التتار يقودها جنكيز خان ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين . . . ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام دينا . جاءوا لشقوتهم فعادوا لسعادتهم . . .)

ويقول فى الصفات : (ويجب أن يقتصر الاعتقاد على ماهو صريح فى الخبر ، ولاتجوز الزيادة على ماهو قطعى بظنى ، وشرط صحة الاعتقاد ألا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين . فإن ورد ما يوهم ظاهره . . . . وجب صرفه عن الظاهر : إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد واما بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة) .

ثم يقول : (إن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لاتكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة ، بل هى رؤية لاكيف فيها ولاتحديد ، ومثلها لايكون إلابيصر يختص الله به أهل الدار الآخرة) .

ويقول فى خوارق العادات والكرامات على يد غير نبى : (وانما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه يجب عدم الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى ، ولايكون بإنكار هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ولامائلا عن سنة صحيحة ولامنحرفا عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة . أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء ، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون) .

الحكومة . . . جهرنا بهذا القول والاستبدادُ فى عنفوانه والظلم قائم على صولجانه . . . ! نعم إنى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع ، ولكنى كنت روح الدعوة ولا أبرح أدعو دعوتى فى الدين ، وأطالب بالإصلاح فى اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبيره ؛ لأنى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غرس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال . . .)

المنهج الإسلامى منهج علمى :

كان كل واحد من المصلحين الذين أسلفنا ذكرهم مع اختلاف مذاهبهم ومواقعهم أبرز مفكر فى جيله ، وكان إجماع طرائقهم على الأخذ بالمذهب السلفى ، ومبادئ دعوة محمد بن عبد الوهاب ، واتباع الأمة لكل منهم فى مكانه وزمانه ، وتحقق بعض الإصلاح الذى دعا إليه كل منهم : إنْ بالأمر بالمعروف وتغيير المنكر كما صنع السيد أحمد ، وإن بالسلاح كما صنع المهدى ، وإنْ بالعلم كما صنع الشوكانى والألوسى ، وإن بجوب الآفاق والتربية كالسنوسيين ، وإن بالتعليم والتربية والمشاركة فى إصلاح مرافق الحياة كمحمد عبده ، كان كل أولئك دلائل على أن « هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله » وهو العودة إلى الأمر الأول .

ولا جرم إن أظهر ما يستوقف النظر من دعواتهم :

١ – أنها تعيد الفكر الإسلامى إلى صفائه من تخليط الحشويين ، وتهدم الأفكار الباطنية والدعاوى الغيبية والعلوم اللدنية والانحرافات التى تصيب الفكر بالشلل والمجتمع بالتخبط والإرادة الفردية بالغيبوبة الكاملة أو الناقصة .

٢ – أنهم جميعاً واجهوا تحديات العصر بمنهج علمى يحارب عدوين للأمة :

الأول : عدوّ لها من نفسها هو انعدام الثقة فى نفسها والاستكانة أمام الطغاة ، والتواكل فى انتظار السماء أن تمطر الذهب والفضة ، أو أن يساقط عليها الأولياء والشفعاء أو الشياطين النعمة أو النقمة أو اللقمة .

والآخر : عدوّ لها من خارجها – تردها جيوشه ، كلما رفعت رأسها ، إلى مجتمع الخرافات والغيبيات ، وتفرض عليها الشحناء والشقاق كهيئة ما فرض هذا العدو نفسه بالسلاح تعاطى الأفيون على شعوب الصين .

ولقد كان عدواً سافراً لكل المصلحين : بجيوشه حيناً ، وبفتكه وسفكه أحياناً ، وبأعوانه السافرين والمتوارين على الدوام .

٣ – أن أقرب سير السلف منهم كانت سيرة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وكان لها

الأثر فيهم ، فتقشّفوا كتقشفهم ، ودعوا الناس صراحة للاقتداء بهم فى منهجهم .

٤ – أنهم مجمعون على إيجاب الاجتهاد وذم التقليد ، والتفكير بحرية ، مبتدئين بالقرآن والسنة ، ومنتهين إليهما . وما هو إلا منهج السلف الصالح ، إذ يأخذ العلم من مصادره ، وينتفع بنعمة العقل الذى ميزنا الله به ، وأمرنا باستعماله ، والاعتبار بواقع الكون وعجائبه التى أمكننا الله منها وأظهرنا عليها ، وأمرنا بالنظر فيها بحرية ، واستخلاص الدلالة منها بأمانة تقطع بوجوده سبحانه وتعالى . وعلى هذه القواعد – النزاهة والواقعية والأخذ بما هو محسوس وارتباط المعلول بالعلة – يجرى الاستخلاص فى سائر العلوم .

وهذا هو المنهج العلمى الذى أمر به القرآن وعلمته السنة .

* * *

يقول الشافعى فى « رسالة الأصول » : (وليس لأحد أبداً أن يقول فى شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم . وجهة العلم الخبر فى الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس) ويتكلم عن القياس فيقول : (أهو الاجتهاد أم هما مفترقان ؟ قلت : هما اسمان لمعنى واحد . . .) (. . . والاجتهاد القياس .

(ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها ، وهى العلم بالأحكام بكتاب الله ، فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده . ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين . فإن لم يكن بإجماع فبالقياس . ولا يكون له أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب ، ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشتبه ، ولا يعجل بالقول دون التثبت ، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد فيما اعتقد من الصواب .

وعليه فى ذلك بلوغ جهده ، والإنصاف من نفسه ؛ حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك . ولا يكون بما قال أعْنَى منه بما خالفه ، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، إن شاء الله) .

ويستطرد فى بيان أساس طريقة التجربة والتزام الواقعية والموضوعية ونزاهة التقدير والتقرير فيقول :

(. . . ولا يجوز أن يقال لفقيه عدل غير عالم بقيم الرقيق أقم (قوم) هذا العبد ولا هذه الأمة ولا إجارة هذا العامل ؛ لأنه إذا أقامه على غير مثال بدلالةٍ على قيمته كان متعسفاً . . .) .

ويقول فى « الأم » لينهى عن الوهم والتخيل وليأمر بالتزام الواقع : (وإن زعمتم أن واسعا لكم ترك القياس والقول بما سنح فى أوهامكم وحضر فى أذهانكم واستحسنته مسامعكم حججتم بما

وصفنا من القرآن ثم السنة وما يدل عليه الإجماع) .

ويقول : (. . . فإن عدم واحدا من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياساً . . . كما لا يجوز أن يقال قِسْ لأعمى وصفت له . . . وهو لا يبصر ما قيل له . . . أو يقال سر بلاداً لم يرها قط ولم يأتها قط . . وليس له فيها علم يعرفه . ولا يثبت له فيما قصد سمت يضبطه ، لأنه يسير فيها على غير مثال قويم . وكما لا يجوز لعالمٍ بسوق سلعة من زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال له قوم . . . ؛ لأن السوق تختلف . . . ولا لرجل أبصر بعض صنف من التجارات وجهل غير صنفه . . . قوّم كذا ؛ كما لا يقال لبنَّاء انظر قيمة الخياطة ولا خياط انظر قيمة البناء . !) .

* * *

ويقول فى « الرسالة » عن وجوب الأخذ « بالظاهر » . (العلم من وجوه . منه إحاطة فى الظاهر والباطن ، ومنه حق فى الظاهر ، فالإحاطة منه ما كان نص حكم الله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة ، فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل الله أنه حلال وفيما حرم أنه حرام . وهذا الذى لا يسع أحد عندنا جهله أو الشك فيه . وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يتكلفها غيرهم . . . وهى فيهم أو بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه . . . وهو الحق فى « الظاهر » كما نقتل بشاهدين . وذلك حق فى الظاهر . وقد يكمن فى الشاهدين الغلط ، وعلم إجماع وعلم قياس . .) . ويقول : (وأيهما كان فقد فرقوا بين حكم الظاهر والباطن ، وألغوا المأثم عن المجتهد على الظاهر ، وإن أخطأ عندهم ، ولم يلغوه عن العامد) .

وحجة الأخذ بالظاهر من التصرفات والعبارات قوله عليه الصلاة والسلام : «إنكم بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار) .

ويبنى الشافعى على ذلك : (فمن قضى بتوهم منه على سائله ، أو بشىء يظن أنه خليق به ، أو بغير ما سمع من السائلين – فخلافُ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيْب وادّعى هذا علمَه .) .

وفى تفسير العقود وإنزال الأوصاف عليها من الصحة والبطلان يستبعد أى شىء « باطن » ، ولا يقبل إلا « الظاهر » .

يقول فى الأم : (يبطل حكم الإزكان (الفراسة لمعرفة كون العقد ذريعة لمحرم) من الذرائع فى البيع وغيرها . ونحكم بصحة العقد . وإذا أراد رجل أن ينكح امرأة ونوى ألا يمسها إلا يوماً أو عشرة وإنما نوى أن يقضى منها وطرا ، وكذلك نوت هى منه ، غير أنهما عقدا النكاح مطلقاً على

غير شرط) . ويقول (لا يفسد عقد أبداً إلا بالعقد نفسه . لا يفسد بشيء تقدمه ولا تأخر ولا بتوهم ولا بأغلب . وكذلك كل شيء لا نفسده إلا بعقده) .

ولئن كانت المعانى هى المقصودة لا المبانى ، وإرادة المعنى آكد من إرادة اللفظ ، إن اعتبار المعانى لا يرتب الأحكام إلا أن يكون المتكلم قاصداً لها مريداً موجباتها .

والآخذون بالظاهر يتقيدون بكل نية «تظهرها» الدلائل من لفظ أو قرينة . فهى عندئذ أمر ظاهر .

* * *

وهذه الأصول من منهج الشافعى تضع نصوص الكتاب والسنة ومعانيها موضعها من الفكر الإسلامى كافة . وتلزم الناس الاجتهاد وسلوك وسائله وهى :

١ — العلم .

٢ — الاجتهاد وفحواه بذل الجهد واحترام الواقع الظاهر وإدارة المعلولات والعلل معاً .

٣ — النزاهة الكاملة فى تقدير وتمحيص العلل وترتيب النتائج .

٤ — عدم الاستناد إلى نظريات مسبقة أو حقائق مفروضة والتزام ما يثبت .

٥ — عدم الخضوع للميل الشخصى أو التفكير الباطنى .

وهذا هو المنهج الذى نقلته أوربة فى فاتحة عصر النهضة بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، بعد إذ قاومت الكنيسة المسيحية حرية الفكر وتدْريس العلم الإسلامى قروناً طويلة ، وألزمت العلماء أن تنتهى نتائج أبحاثهم نهاية توافق مقولات الكنيسة ، مهما دلت الدلائل على النقيض . فحوكم الكثيرون وأعدم منهم بعضهم .

تابع الفقهاء المسلمون منهج الشافعى فى أصول الفقه ، وانتقل المنهج ، لأنه قرآنى ، إلى سائر فروع العلم الإسلامى فى الطبيعة والفلك والطب والكيمياء والصيدلة والجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا وغيرها .

وجرى العلماء كالفقهاء على المنهج ، وحسبنا الآن بعض أسماء نختارها من كل فروع العلم :

من جابر بن حيان — أول كيمياوى فى التاريخ — فى القرن الثانى للهجرة إلى الرازى الطيب (٣٤٠ — ٤٢٠) إلى البيرونى المؤرخ (٣٥١ — ٤٣٠) إلى ابن سينا الفيلسوف (٣٧٥ — ٤٢٨) إلى أبى الحسن بن الهيثم (٣٥٤ — ٤٣٠) عالم الطبيعة إلى المسعودى المؤرخ (٣٤٦) إلى القزوينى الجغرافى (٦٠٥ — ٦٨٢) إلى التيفاشى (٦٥١ هـ = ١٢٥٣) الجيولوجى .

ومن هؤلاء انتقل المنهج إلى روجير بيكون (١٢٩٦) الذى نادى بتعليم المنهج الإسلامى ونقل

علوم المسلمين إلى أوربه كما تدفق سيل الترجمة إلى أهل أوربه من جامعاتها الكثيرة وشهدنا فى القرن السابع عشر من الإنجليزى فرانسيس بيكون والفرنسى ديكارت (١٦٥٠) تفاصيل منهج جديد هو المنهج الإسلامى ذاته، وتبعه العلماء فى أوربا وأمريكا ولا يزالون يتبعونه [١].

وبانتصار الحرية الفكرية على قيود الكنيسة بدأت أوربة نهضتها المعاصرة. وباستعمال منهج التجربة والاستخلاص بلغت الحضارة العلمية والتكنولوجية مبالغها الحالية.

* * *

وبعد: ففى العالم الآن حضارتان ماديتان تتجاريان.

الأولى: حضارة ورثها الغرب من وثنية اليونان والرومان ملاكها القوة والسيطرة وإطلاق العنان للإرادة «الفردية»، لم تحولها المسيحية عن طبيعتها الوثنية ولم تصقل منها إلا الظواهر.

والأخرى: ملحدة لا تعترف بوجود الله. وتحتكر الدولة فيها السلطة والمِلْكية والحرية.

ولقد أفلست الحضارتان لخلوهما من الروح وفزعهما من الغد، وانتهى بهما السباق إلى غير غاية، وسيطر عليهما الرعب النووى الذى يميت البشرية تفاريق، يوماً بعد يوم، ليدمرهما، يوم يفرغ المتسابقان ما يختزنان من القنابل الذرية. وهى إذ تنتَج وتختَزن سوف تستعمل.

وانصرف أصحاب الحضارتين إلى تعاطى وسائل النسيان بالمخدرات تمتلئ بضحاياها المستشفيات الخاصة بالمدمنين فى كبرى العواصم، وإلى الاستكثار المجنون من لذات الجسد ورفاه البدن وتكاثر السلع، يعيشون بها أياماً لا يثقون فيها ويخافون غدها.

وكلتا الحضارتين تسترقّ الناس للإنتاج الكبير الذى تدفعه الآلات إلى أيديهم ولا تسعد به نفوسهم، وكلما ألهاهم التكاثر زادوا قلقا ورهقا!

والحضارتان تبحثان عن قيم اجتماعية جديدة، وكمثلها العالم الصاعد: فالأرض مفتوحة أمام قيم الإسلام وعقيدته لإصلاح أى مجتمع عصرى بالمنهج الإسلامى، الذى عبر عن قيمه طاهر ابن الحسين فى وصيته لابنه إذ ولى خراسان. فقال له.

(وليكن كنز خزائنك فى عمارة الإسلام وأهله).

فالقيم الدينية تحدث القيم الاقتصادية وتطب لأدواء الحضارات جميعاً.

وإنما يضع الحواجز لقمع انتشار الإسلام فى الأرض المفتوحة أمامه ترويج أعدائه لخرافات المرجفين من أبنائه، ومحاولة أعدائه إخفاء المنهج الإسلامى الذى تحققت به الحضارات، كى لا يدرك الناس أن فى الإسلام شفاءهم، وأن منهجه العلمى ومنهجه الاجتماعى يتخطيان مجاراة العصر إلى استباق أسباب التقدم.

---

(١) راجع كتاب المنهج العلمى المعاصر مستجد من القرآن للمؤلف دار الاتحاد العربى للطباعة سنة ١٩٧٦ ص ٩ – ٥٣).

فهرس الأحاديث

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس المسائل

رهنية ديرانية ٤٢ – ٥١

فهرس الأماكن

فهرس الأعلام

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

مراجع الكتاب

١ -كتاب التوحيد	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٢ - مختصر الإنصاف والشرح الكبير	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٣ - مختصر سيرة الرسول	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٤ -كشف الشبهات	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٥ - الكلمات النافعة	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٦ - مسائل الجاهلية التى خالف فيها الرسول أهل الجاهلية .	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٧ - نصيحة المسلمين بأحاديث سيد المرسلين	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٨ -كتاب الكبائر - كتاب أصول الإيمان كتاب فضل الإسلام .	شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
٩ - مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لعلماء نجد الأعلام .	مكتبة الأزهر
١٠ - أصول مذهب الإمام أحمد	د عبد الله بن عبد المحسن التركى
١١ - فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد	عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١٢٥٨)
١٢ - القول السديد فى شرح كتاب التوحيد	عبد الرحمن بن ناصر بن سعدى
١٣ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	أبو بكر الخلال
١٤ - الروحية عند ابن عربى	د . عبد الجليل راضى
١٥ - أعلام الموقعين	ابن قيم الجوزية
١٦ - مدارج السالكين - عدة الصابرين	ابن قيم الجوزية
١٧ - طريق الهجرتين وباب السعادتين	ابن قيم الجوزية
١٨ - الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى	ابن قيم الجوزية
١٩ - السياسة الشرعية	ابن تيمية
٢٠ - الاعتصام	الشاطبى
٢١ - المجازات النبوية	الشريف الرضى - مؤسسة الحلبى - طبع مصر
٢٢ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن	الشريف الرضى
٢٣ - الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل	محمد السيد الجليند
٢٤ - رسالة التوحيد	الشيخ محمد عبده

العنوان	المؤلف
٢٥ – تاريخ نجد	الشيخ حسين بن غنام
٢٦ – عنوان المجد فى تاريخ نجد	عثمان بن عبد الله بشر النجدى الحنبلى
٢٧ – الشيخ محمد بن عبد الوهاب	حسن خلف الشيخ خزعل
٢٨ – صقر الجزيرة	أحمد عبد الغفور عطار
٢٩ – محمد بن عبد الوهاب	أحمد عبد الغفور عطار
٣٠ – محمد بن عبد الوهاب – الدعوة الوهابية	عبد الكريم الخطيب
٣١ – جوانب من حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .	الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ محاضرة بمؤتمر الفقه الإسلامى سنة ١٩٧٦
٣٢ – من حياة ابن عبد الوهاب	محاضرة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
٣٣ – ابن تيمية	الشيخ محمد أبو زهرة
٣٤ – ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٣٥ – القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى	الغزالى
٣٦ – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام	د . على مى النشار
٣٧ – المجددون فى الإسلام	عبد المتعال الصعيدى
٣٨ – زعماء الإصلاح	أحمد أمين
٣٩ – ضحى الإسلام	أحمد أمين
٤٠ – الصلة بين التصوف والتشيع	د . مصطفى كامل الشيبى
٤١ – نظرية الإمامة عند الشيعة الإمامية	د . أحمد محمود صبحى
٤٢ – طائفة الإسماعيلية	د . محمد كامل حسين
٤٣ – دولة الإسماعيلية فى إيران	د . محمد السعيد جمال الدين
٤٤ – الحكيم الترمذى ونظرية الولاية	د . عبد الفتاح بركة
٤٥ – كتاب الرياضة وأدب النفس لأبى عبد الله محمد بن على بن الحسن الحكيم الترمذى	أ – ج آربرى و د . على حسن عبد القادر
٤٦ – ولاية الله والطريق إليها	إبراهيم إبراهيم جلال
٤٧ – قطر الولى على حديث الولى	الشوكانى
٤٨ – كشف المحجوب للهجويرى (بالفارسية)	ترجمة د . إسعاد عبد الهادى قنديل
٤٩ – الملامتية والصوفية	د . أبو العلا عفيفى
٥٠ – الإمام القشيرى	د . إبراهيم بسيونى
٥١ – مولانا جلال الدين الرومى	أبو الحسن الندوى

٥٢ – الأخلاق المتبولية	عبد الوهاب الشعرانى
٥٣ – الطبقات الكبرى	عبد الوهاب الشعرانى
٥٤ – الجهاد الإسلامى	د . أحمد غنيم
٥٥ – قيام الدولة العربية السعودية	د . عبد الكريم غرابية
٥٦ – الدولة العربية الأولى	د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
٥٧ – حقائق الأخبار	إسماعيل سرهنك باشا
٥٨ – معجزة فوق الرمال	أحمد عسة
٥٩ – فيصل ملك العربية (بالفرنسية)	بنوا مشان
٦٠ – درب الانتصار	عبد الوهاب فتال
٦١ – الصحف والسيف (مجموعة خطابات الملك عبد العزيز)	محيى الدين القاسمى
٦٢ – مذكرات الإمام محمد عبده	طاهر الطناحى
٦٣ – محمد عبده	عباس محمود العقاد
٦٤ – أعلام العراق	محمد بهجة الأثرى
٦٥ – الصديق أبو بكر	د . محمد حسين هيكل
٦٦ – الإسلام والعروبة	د . محمود كامل
٦٧ – مهدى الله	توفيق أحمد البكرى
٦٨ – الفخرى فى الآداب السلطانية والأمم الإسلامية .	ابن الطقطقى
٦٩ – الإمام الشافعى ناصر السنة	عبد الحليم الجندى
٧٠ – المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن	عبد الحليم الجندى
٧١ – حضارة الإسلام فى عز العرب	محمد كرد على
٧٢ – تراجم إسلامية	محمد عبد الله عنان
٧٣ – العالم البيزنطى	ج . م هسى ترجمه (وقدم له د . رأفت عبدالمجيد)
٧٤ – تاريخ الحركة القومية	عبد الرحمن الرافعى
٧٥ – مصر والسودان	عبد الرحمن الرافعى
٧٦ – الأحاديث القدسية	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٧٧ – معجم الأدباء	ياقوت
٨٨ – معجم المؤلفين	نور الدين كحالة

للمؤلف

الكتاب	جهة النشر
١ – أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	طبعة دار المعارف
٢ – الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٣ – مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٤ – أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٥ – أئمة الفقه الإسلامى	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٢
٦ – نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى .	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤
٧ – الإمام جعفر الصادق	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٦
٨ – المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن	دار الاتحاد العربى سنة ١٩٧٦
٩ – المحامون وسيادة القانون	مطبعة دار الاتحاد العربى ١٩٧٦
١٠ – الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف (مجموعة كتابك)
١١ – من أجل مصر البطل أحمد عصمت	طبعة المطبعة التجارية
١٢ – مجموعة مذكرات قضائية (فى جزأين)	طبعة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٦٥
١٣ – توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة – مصر سنة ٦٤
١٤ – تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة – مصر سنة ٦٥
أبحاث منشورة	
١٥ – الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة فى العصر الحديث .	مجلة إدارة قضايا الحكومة ١٩٧٧
١٦ – نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامى	مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٥
١٧ – الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع (بحث مقدم لمجلس الأمة عند إعداد الدستور المصرى سنة ١٩٧١) .	مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧١

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٤٧٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٥٥٣ – ٧

١/٧٨/٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

يبين هذا الكتاب بأسلوب عصرى وتحقيق علمى :

كيف تسربت البدع والخرافات إلى المجتمع الإسلامى وأفقدته أسباب إمتيازه وكيف يقيله من عثاره .

١ - إخلاص العبادة لله والتخلص من الأوهام والمعتقدات التى تشرك مع الله بعض الأحياء والأموات .

٢ - تطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً فى حياة الأفراد وأنظمة الدولة .

كيف قدمت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب الدليل الحىّ على ذلك بانتصارها للدين الصحيح . وانتشارها فى أسوأ الظروف .

وكيف عملت فى خدمتها الانتصارات والهزائم فى معارك خاضها « الموحدّون » وقادها الأمير محمد بن سعود وأبناؤه .

اقتدار « المنهج الفلسفى » على إقامة الدولة العصرية باتباع « المنهج القرآنى » القاضى باستعمال العقل والاعتبار بالواقع الملموس ونبذ التأويل الباطنى وادعاء العلم اللدنّى .

وهو المنهج الذي تعلمته أوربا فيما ترجمته من كتب المسلمين منذ القرن الثانى عشر للميلاد وبلغت به مبالغها الحالية .

١٧٠

٢٣٥٠٩ / ١